
إياد جميل محفوظ
بيوت
الخفاء
في حلب الشهباء
أبو عبدو البغل
مدونة أبو عبدو
خزائن لم تفتح
دار الحوار

بيوت الخفاء في حلب الشهباء

خلال القرن العشرين

الكتاب: بيوت الخفاء في حلب الشهباء - خلال القرن العشرين

المؤلف: إياد جميل محفوظ

الطبعة الأولى:2017/3

❁❁

ISBN: 978-9933-523-79-4

❁❁

تم تنفيذ التنضيد والإخراج الضوئي في القسم الفني بدار الحوار



دار الحوار للنشر والتوزيع www.daralhiwar.com

ص. ب 1018 اللاذقية، سورية،

هاتف وفاكس: 339 422 41 963+

البريد الإلكتروني daralhiwar@gmail.com

info@daralhiwar.com

إياد جميل محفوظ

بيوت الخفاء في حلب الشهباء

خلال القرن العشرين

خزائن لم تفتح



دار الحوار



عملي-هو رصد العالم والبشر وليس الحكم عليهم.
أحبُ دائماً أن أضع نفسي بعيداً عن إصدار الأحكام.
وأحبُ أن أرى الأشياء مفتوحة على سعتها لجميع الاحتمالات الممكنة في العالم.

الروائي الياباني

هاروكي موراكامي

بين الصمت والخجل تضيع الحقيقة وتولد بدلاً عنها الخرافات، وبين الحياء والغفلة تندثر الذاكرة الجمعيّة وتسود بدلاً عنها حكايات خاوية لا تثري من فكر ولا تغني من تراث.

حاولت جاهداً أن أنحّي سفه القول ومباذله حرصاً مني أن يقرأ الصغير قبل الكبير كتابي دون أن يُجرح ذوقُهم الخلقيّ الوقور المحتشم والمترفع عن بذيء القول.

لن ينتظر قارئ كتابي هذا أن أذمّ العاملين في قطاع الدّعارة، وأسند إليهم ما لا يقرّه الواقع، فأنا كجهاز التصوير أصوّر القصر والكوخ كما هما عليه في الطبيعة، وأجسّد الخير والشرّ كما هما عليه في الحياة.

إياد جميل محفوظ

2016/05/11



إهداء

إلى جيل الرواد الشيخ كامل الغَزّي والشيخ محمد راغب الطبّاخ والعلامة محمد خير الدين الأسدي.

لعل عملي المتواضع هذا يضيف لبنة صغيرة إلى صروحهم المشبعة بنبل نفوسهم والمشيّدة بأبحاثهم الجليلة ودراساتهم المعمّقة عن تاريخ حلب وتراثها وثقافتها والمطرّزة بحبّهم وتفانيهم وسمّوّ غاياتهم.

لقد انحاز جيل العمالقة إلى الشعب الحلبي وجنحوا إلى عاداته وتقاليده ومعتقداته، حتى موروثه المحكيّ وخرافاته منحوها ما يليق بها من اهتمام وعناية وصانوها من الضياع والاندثار.

إلى أرواحهم الطاهرة أهدي كتابي.

إياد - العين

2016/07/12

بين يدي الكتاب

كتابٌ يَبرزُ وفق كلمة الأديب والروائي الياباني الجيدة. إذ إنّ المعرفة الأساسيّة ضرورة لا بدّ منها لإعطاء الرأي. وعموماً تختلف الآراء كثيراً عبر الأشخاص والعصور، وإنّ تعريف إياد لكتابه يسير على هذا النهج.

عنوان الكتاب يثير القارئ والموضوع جديد كلّ الجدّة، ومعلوماته لم تُطرق من قبل فضلاً عن أنها موسوعيّة وشائقة.

وقائع الكتاب يعرفها من عاشها. وهي من الأمور الطبيعيّة في تكوين الإنسان في مرحلة النضج والشباب والتفجّر الحيوي وعلى الجيل المتقدّم أن يعرفها، ويعرّفها للجيل الشاب.

في الكتاب حالات خاصة وحالات عامة تصبّ جميعها في اتجاه واحد. وهو التركيب الحيويّ للإنسان وعلى الجميع الاطّلاعُ عليها والكتاب يعرض لحالات كثيرة، قد تغيب عن النظر ولكنها واقعة.

موضوع لم يحاول أيُّ باحث أن يطرقه لعواملَ عدّة، ومن تعمّق في تاريخ البشريّة سوف يرى عاهرات المعابد القديمة ينذرن أنفسهنّ لزائري المعابد كلهم.

أسجل إعجابي بهذا الكتاب وأهنئ المؤلف لكشفه للملأ ظاهرة اجتماعيّة لم يفكر أيُّ أديب أو باحث في تاريخ حلب في توثيقها وإلقاء الضوء عليها مع العلم أنها من الوقائع، ربما الخفيّة منها.

***

د. محمود حريتاني

هذا كتاب ينبش في أسرار المتعة المحظورة المرغوبة، يرسم مخطّطاً أو ما يسمى في فنّ الهندسة (كروكيه) كاملاً متكاملاً لمدينة عريقة يصنفها التاريخ على أنها المدينة الأقدم التي بقيت مسكونة إلى اليوم. كروكيه مشغول بريشة فنان أضفى جماليّة لافتة بأسلوبه الحكائيّ على كتاب بحثيّ لم تثقله الوثيقة التي عرف كيف يستخدمها بأمانة.

ليست الحكاية، حكاية (الدّعارة، أو المتعة المأجورة) المهنة الأقدم في التاريخ كما جاء في الكتاب أو بيوت الخفاء فقط، بل هي حكاية مدينة عريقة ومجتمع ترسّخت ثقافته على أساس متين هو: حبّ الحياة. فدراسة هذا النشاط الاجتماعيّ وتحوّلاته عبر التاريخ وارتباطه بالمكان والأعراف والقوانين والتغيرات السياسيّة والحداثة أيضاً كانت مسرحاً لعرض ما بحوزة الكاتب/الساحر من أفانين الغواية التي تبهر القارئ، فهذه (الخزائن) التي قال عنها الكاتب (لم تُفتح)، هي جزء أساسيّ من أرشيف المجتمعات البشريّة، تواربها أقلام الكتاب ويقاربها بخجل أو بخفر معظم الباحثين لما تملك من خصوصيّة تفرض التستّر عليها بتواطؤ غير معلن في محاولة لتجنّب الاصطدام بسلطة الأعراف والسياسة والدين.

لكن إياد محفوظ ابن حلب المتيّم بها كما يظهر من الصياغة الطريفة المشغولة بشغف وعشق لمدينته فتح ما استطاع إليه سبيلاً من خزائن مدينته العريقة وأخذ يفرد أمامنا كنوزاً من نسيجها المزركش بألوان الحياة.

المدن كالكائن الحي، منظومة عضويّة متكاملة وليست تقاسيم الجمال البادية للعين فقط ما يمنحها الحياة، بل هناك في الأعماق

وفي عتمة البطون والصدور ما يخفي أسراراً أخرى، وهذا ما فعل الكاتب بصبر وبحث وصدق وأمانة فأخرج إلينا هذه التحفة السرديّة الغنيّة الشائقة.

أستطيع القول إنني كنت بمزاج طفلة أمام صندوق الدنيا صندوق العجائب وعندما أنهيت الكتاب بمتعة أيضاً كانت قد ترسّخت في بالي مجموعة كبيرة من المعلومات التي قدمها الكتاب إليّ بسرديّة محببة، فسيفساء من العلامات والمفردات وأنماط السلوك والأمكنة والأمثلة والأهم من هذا كله صورة حيّة للفرد الحلبيّ والمجتمع الحلبيّ والثقافة الحلبيّة ونزوعها القديم قدم تاريخها نحو الحياة وإثرائها بما يضمن ازدهارها.

هذا الكتاب الجريء الفريد يستحق أن يوصف بأنه فتح بمهارة (خزائن) لم تفتح سابقاً، وفرد أمامنا نفائس المجتمع الحلبي بلا تنظير ولا إطلاق أحكام مسبقة، بل كان أحياناً يومض بفلاشه على ما يعزّز إنسانيّة شريحة صُنّفت تاريخيّاً بصورة نمطيّة جائرة، لافتاً من خلال النفي بأنه لا يريد الخوض بالأسباب والدوافع إلى مظلوميتها التاريخيّة، متيقّظاً على الدوام لأن يبتعد عن إطلاق أحكام قيمة.

"بين الصمت والخجل تضيع الحقيقة، وتولد بدلاً عنها الخرافات، وبين الحياء والغفلة تندثر الذاكرة الجمعيّة وتسود بدلاً عنها حكايات خاوية لا تثري من فكر ولا تغني من تراث".

على هذه القاعدة بنى الكاتب عمارته الأدبيّة فكان هذا الكتاب الذي قدّم لنا حلب كمنظومة حياتيّة لها قوانينها الطبيعيّة الناظمة لسيرورتها.

***

د. سوسن جميل حسن

عُرِفَ الصديق إياد جميل محفوظ عندما كان نجم كرة السلة السوريّة في السبعينيّات والثمانينيّات بلقب (أبو حديد)، وهو لقب يتضمن إشارة إلى القوّة البدنيّة التي كان يتمتع بها حينما كان يلعب تحت السلة. ويخطر لي الآن، أن ألقبه (أبو الهوايات).

الهوايات، في الحقيقة، نشاط جسديّ وعقليّ واجتماعيّ يتناسب مع الأسر الأقرب إلى الأرستقراطيّة، كأسرة الدكتور جميل محفوظ الذي كان من أوائل الرجال الذين حازوا على شهادة عالية في التربية وعلم النفس من السوربون، وعلى أساس هذه الشهادة عُيّن مديراً للتربية في محافظة إدلب، واكتسب من خلال عمله وسلوكه في العمليّة التربويّة صفة "المربي الفاضل" والشيء الطبيعي أن يربي أولاده ليكونوا عصاميين من هواة العلم، والمعرفة، والهوايات النافعة.

درس إياد الهندسة في جامعة بيروت العربيّة ثم تخرّج في جامعة حلب مهندساً مدنيّاً وقد تطوّرت هوايته في كرة السلة حتى أصبح أحد نجوم كرة السلة السوريّة محقّقاً بطولات كبيرة مع ناديه الاتحاد الحلبي (حلب الأهلي) ومع منتخب سوريّة الوطني، ثم ذهب إلى الإمارات واشتغل هناك ضمن عمله وحقّق نجاحات لا يستهان بها وكما يقولون في حلب (بنى نفسَه بنفسِه) ووقتها التفت إلى هواية الكتابة الأدبيّة واختار لنفسه ميدان القصة القصيرة.

أزعم أنني واكبتُ تجربة إياد في القصة القصيرة منذ بداياتها في سنة (2002) ولاحظت أنه لا يكتب القصة بقدر ما (يهندسها) وأنه

من النوع (النقّاق) الذي لا يطمئنّ لنصّ كتبه ما لم يُطلع عليه زملاءه وأصدقاءه وحتى زوجته وأولاده! وكذلك أقول إنّ إياد كان يتطوّر في كل مجموعة قصصيّة ينتجها على سابقتها وإنه مخلص لهوايته بدليل أنه يصدر مجموعة قصصيّة في كل عام.

في سنة (2011) أُعجب إياد بتجربتي في تدوين الطرائف الاجتماعيّة والسياسيّة التي دوّنتها في كتابيَّ (المستطرف الأزرق) و(المستطرف الأخضر) وفاجأني بمجموعة من الطرائف التي دوّنها مستفيداً في بعضها من تجربته الشخصيّة وفي بعضها الآخر من تجارب أصحابه المقربين، وكان أن تشاركتُ معه وأصدرنا كتاباً مشتركاً اسميناه (المستطرف الليلكي) صدر عن دار نون - الإمارات.

ربما كانت هذه المقدمة الطويلة ضروريّة لفهم طبيعة المؤلف ومقدرته الاستثنائيّة على الشغل والبحث والتقصي وقراءة المراجع بأناة وهذه المقدرة تجعله الوحيد - ربما - القادر على تأليف كتاب فريد في بابه يتحدّث عن بيوت الدّعارة، بشكل عام وعن عالَم المحل العمومي بحلب بصورة خاصة الذي كانت له تسميات عديدة: الكرخانة- المنزول – بحسيتا - شارع 142.

إن إغلاق المنزول في سنة (1974)، يجعل أمر التأريخ له ممكناً لمن كان في عمرنا لأننا كنّا في عمر الشباب حينما كان في أوجه وبالطبع فإن معاصرتنا له لا تكفي إذ يتطلب الأمر التنقيب عن كل شاردة وواردة تتعلق به، ثم بمصير (طاقم الشغل) من مومسات وبترونات وقبضايات وزبائن والحقيقة أنّ إياد أبدع في ذلك إذ إنه تابع خروجهم وتشردهم ثم دخولهم في حياة المجتمع الحلبي في بيوت وأحياء أخرى منها حي الشيخ طه الشهير في حلب.

ثمّة ملاحظات أخرى يجدر بي أن أشير إليها في سياق تسجيل انطباعاتي الشخصيّة عن هذا الكتاب:

أولاً- إنه كتاب عن الجنس ولكنه ليس كتاباً (سكسيّاً) وإنما هو بحث علميّ تاريخيّ من نوع خاص جداً.

ثانياً- إنه مكتوب بموضوعيّة وحياديّة، بمعنى أنه غير مكتوب بمنطق ذكوري وبمعنى آخر المؤلف لا ينظر إلى النساء اللواتي عملن في هذه المهنة على أنهن (قحبات) محتقرات.

ثالثاً- لقد استطاع إياد المواءمة بين الاتجاهين الأساسيين اللذين اتبعهما ضمن الكتاب: الجانب التأريخي التوثيقي والجانب الأدبي، وفي الحقيقة أنّ النوادر والطرائف والحكايات التي ضمّنها الكتاب جعلت قراءته شائقة وممتعة. وهنا تبرز أهميّة المعلومة التي ذكرتها سابقاً المتعلقة بكون إياد (يهوى) كتلبة الطرائف الأدبيّة.

في الختام أبارك لصديقي إياد إنجاز كتابه (المهم) هذا متوقّعاً له نجاحاً كبيراً.

* * *

الأستاذ محمد خطيب بدلة

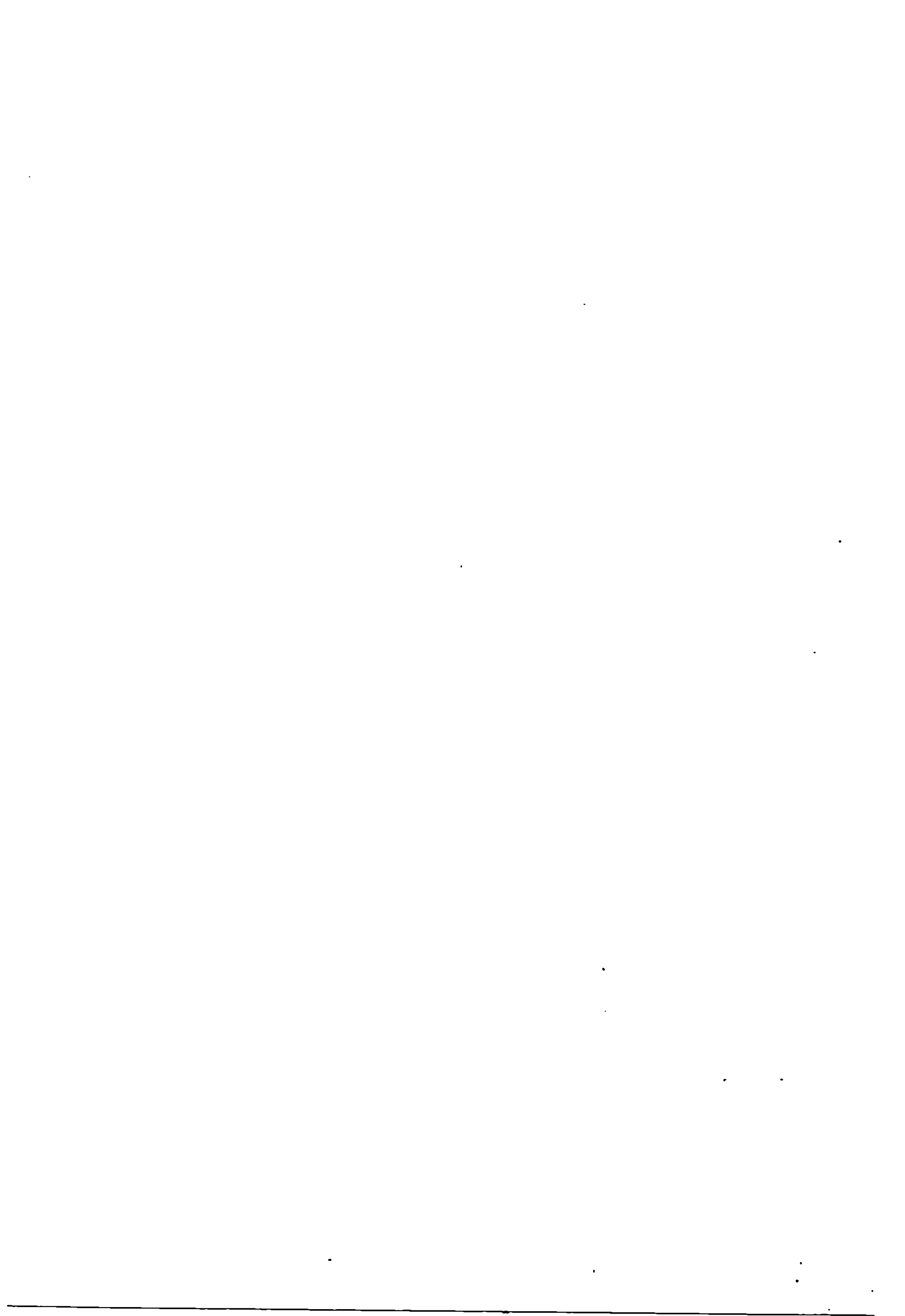
القسم الأول

بمثابة المقدّمة

الفصل الأول: أم المدن

الفصل الثاني: معابر لتنشيط الذاكرة

الفصل الثالث: لمحة تاريخيّة



الفصل الأول

أم المدن

بداية لا يسعنا القول إلّا أنه لم يعد ثمّة مجالٌ للشك في أنّ حلب هي أقدم مدينة مأهولة على وجه البسيطة. فقد أجمع الباحثون والدارسون على أنّ هذا الأمر بات حقيقة علميّة خالصة، وقد أقرتها على نحو قاطع كلّ المنظمات الدوليّة والمحليّة المختصة بتاريخ البشريّة والتراث الإنساني، ولا نملك إزاء هذا المجد الحضاري إلّا أن نطلق على حلب لقب (حواء مدن العالم)، أو (أمّ المدن).

تمتعت المدينة بموقع جغرافي متميز في شمالي بلاد الشام، فهي على مقربة من هضبة الأناضول في آسيا الصغرى ومن نهر الفرات الطريق الدوليّة القديمة للتجارة والشعوب والحضارات، وهي على تخوم بادية الشام طريق قوافل اللؤلؤ والتوابل والحرير من الشرق إلى الغرب عبر البحر الأبيض المتوسط القريب منها أيضاً.

لعبت حلب منذ القدم دوراً مهماً، بدأ في الألف الثالث قبل الميلاد واستمر إلى يومنا هذا، وربما تكون ثمّة مدن فاقتها شهرة آنذاك من

قبيل إبلا وأوغاريت وأفامية إلّا أنّ هذه المدن، إمّا باقية في باطن الأرض أو هي أطلال تزار بينما حافظت حلب على ازدهارها وألقها حتى الآن.

على هذا النحو نشير إلى أنّ المدينة دأبت على احتضان أبنائها والقادمين إليها ورعايتهم كالأم الرؤوم إذ عُدّت في كثير من مراحل تطورها بمثابة الفردوس المنشود تُشدّ إليه الرحال لا سيما التجار منهم وأصحاب المهن فضلاً عن شذّاذ الآفاق، وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدلّ على أنّ مجتمع المدينة كان بيئة إيجابيّة حاضنة تنصهر فيها ثقافات الشعوب الوافدة إليه كافة نظراً لما يتميز به من ذهنية مرنة وغنى إنساني تناميا وتراكما عبر العصور والأزمان.

يمكنني القول إنها أشبه بمنجم كنوز وحكايات لا ينضب إذ مهما غَرف مؤرخو المدينة ومحبوها من تراثها الماديّ منه والمعنويّ وسكبوه على صفحاتهم البيضاء فإنّ ذلك لا يتعدّى أن يكون غيضاً من فيض، كما أنها ما فتئت تدعونا إلى التواطؤ مع أسرارها وكشف مستورها وما خفي من أخبارها وتدفعنا لاختراق حكاياتها المسيّجة بأسلاك محظورات الموروث الديني والثقافي، والقفز فوق جدران التابوهات المقدّسة التي زرعتها العقول الخشبيّة في وجداننا الجمعي وقطف كنوزها النفيسة التي ما زالت مختبئة هنا وهناك.

إلى ذلك يبدو لي أنه ليس من اللائق والعدل أن نتخذ من الغفلة وعدم الاكتراث والمبالاة ملاذاً وسبيلاً لا سيما في هذه المرحلة الأليمة من تاريخ أمّ المدن إذ يبدو كما لو أن ثمّة تنافس على تدمير تراثها وماضيها ومجتمعها بأشدّ الوسائل شراسة وخسّة.

وما انفكت المدينة في إنتاج سيرورتها المجتمعيّة مرّة بعد مرّة والمتمثّلة في ثنائيّة الإبداع المادي والإنساني، وأكثر ما يتجلى ذلك في ريادتها على المستوى التجاري والصناعي في منطقة بلاد الشام إذ ازدهرت فيها الحركة الاقتصاديّة منذ الأزل ونالت أسواقها وخاناتها

شهرة واسعة نظراً لما عرفت به من اشتغال أهلها في المهن الحرفيّة والتجاريّة كافة.

كما أبرز الرّحالة العرب والأجانب والدّارسون أهميتها التاريخيّة عمرانياً واجتماعياً واقتصادياً وقد استأثرت الناحية الأخيرة بالاهتمام إذ عدّوها المركز الدولي للتجارة العالميّة منذ القرن الثاني عشر الميلادي، فضلاً عن أنّ الجاليات الأجنبيّة سكنتها عدّة قرون بقصد تسهيل التجارة الدوليّة بين الشرق والغرب وقد حفلت سجلاتها المحفوظة بالوثائق التي تشير إلى ازدهار المدينة في مجالات الحياة كلها، وكان لأكثر الدول الأوربيّة قنصليات فيها وعلى رأسها القنصليّة الإنكليزيّة.

ها هنا نلاحظ أنّ الأخوين راسل قد تحدّثا في كتابهما (تاريخ حلب الطبيعي)[i] بإسهاب عن النشاط التجاري والصناعي في المدينة، وهما طبيبان أقاما في حلب بين عامي (1740و 1770) وعملا على تقديم الرعاية الطبيّة للعاملين في قنصلية إنكلترا بحلب ولأفراد الجالية التجاريّة الإنكليزيّة المقيمين فيها عندما كانت مدينة بارزة في الشرق تأتي بعد الآستانة (إستانبول) والقاهرة في الأهميّة والمنزلة.

كما أرى أنه من المفيد الإشارة على نحو سريع إلى بعض القضايا المهمة التي وردت في كتابهما لما لها من دلالات ومعانٍ ذات قيمة كبيرة إذ كانا معجبين بالنظام الاجتماعي المحكم الذي كان سائداً في مدينة يعيش فيها نحو من ثلاثمائة ألف نسمة دون أن يلحظا أدنى خللٍ في البنية التنظيميّة أو الإداريّة، فضلاً عن إشادتهما بنشاطها التجاري المهول فقد كان يفد إليها مع كل مطلع شمس أكثر من ألفي جمل تحمل على ظهورها البضائع والمنتجات المتنوعة، وما إن تعبر أبوابها حتى تتوزع وتضيع في خاناتها وأسواقها، ومن ثم لا يلبث أن ينتشر

معظمها شمالاً وجنوباً وغرباً وشرقاً في الأيام التالية وبالمقابل كانت الجمال تقوم بحمل المصنوعات والأرزاق الحلبيّة ونقلها إلى ميناء السويديّة الذي كان منفذها الرئيس آنذاك على البحر الأبيض المتوسط لتصديرها إلى الدول الأوربيّة وبلاد العالم كافة.

إضافة إلى ذلك فقد ساق الأخوان راسل في كتابهما مشاهداتهما عن مجمل أوجه الحياة الفكريّة والحضاريّة في المدينة وتنوع الأقوام والأجناس البشريّة التي يحتضنها مجتمعها المنفتح على الأعراق والإثنيات والأديان كلها.

لا ينفرد مجتمع حلب عن غيره ولا يشذّ عن سواه من مجتمعات كبريات المدن التجاريّة المنتشرة في مشارق الأرض ومغاربها إذ لم تزل تلك المدن في سالف العصر والأوان تحتفظ بحظوظها في احتضان المغريات والمسرّات المختلفة التي تساهم في نهوض مجتمعاتها وتطورها، وبالتالي فهي قادرة على الانحياز نحو الضفة التي تتشارك فيها المهن جميعها وتتفاعل في سبيل ضمان سيرورتها وتنامي ازدهارها دون الحاجة لإطلاق أحكام القيمة الأخلاقيّة أو اللاأخلاقيّة على أية واحدة منها.

دون أدنى حرج لا يسعنا الاستمرار في تجاهل وغضّ الطرف عن أقدم مهنة في التاريخ واللجوء إلى الحياد في عدم الخوض في زواريها وأسرارها وأعرافها إذ نجد أنّ مجتمع أمّ المدن الموصوم بصفات عدّة أهمّها: الوسطيّة والحيويّة والتجدّد لم يلفظ ذاك القطاع بل يبدو لي أنّ الثقافة الجمعيّة للمدينة عدّته ضرورة حضاريّة لا مهرب منها ولا انفكاك.

من هنا جاء هذا الكتاب الذي يسعى إلى سدّ فجوة من تراث المدينة وتاريخها كثيراً ما كان يكتنفها الغموض ويسودها الإظلام مقتحماً عالماً لشدّ ما وصف الاقتراب منه ضرباً من الإسفاف ونمطاً

لسلوكٍ غير أخلاقي على أنّ الثيمة الجوهريّة التي ستشكل المرتكزات المنهجيّة في بحث هذه الظاهرة ودراستها في حلب على مدى القرن العشرين هي ثلاثيّة (الحياديّة والموضوعيّة والحشمة).

كما يمكنني القول إنه لا يخفى على أحد أنّ أيّ عمل أدبي لا يتحلى بالحياد والنزاهة لا ريب في أنه لن يصيب النجاح المأمول، وهذه الحقيقة البدهيّة وضعتني أمام مواجهة صعبة إذ يبدو أوّل وهلة أنّ موضوع الكتاب كله يرصد نشاط سلبي بالمطلق وهذا ما جعل مهمتي أكثر صعوبة في تناول التفاصيل والأحداث دون الوقوع في فخّ الانزلاق في متاهات الفضيلة الخشبيّة.

لمّا كان هذا الكتاب يتكلم عن التاريخ والتراث اقتضى الأمر الاستعانة بالمراجع والكتب والوثائق التي اهتمّت بتلك الظاهرة الاجتماعيّة ودَرَستْها، ولمّا كانت تلك المصادر نادرة بل تكاد تكون معدومة لم أجد سبيلاً للوقوف على المعلومات والأخبار المغلّفة بالحقيقة والمصداقيّة سوى تقفّي الروايات الشفويّة والتجارب الشخصيّة عبر ما تجود به ذاكرة الأصدقاء والمعارف ممن كانوا قريبين من هذا القطاع لا سيما الأطباء منهم ورجال الدولة المتقاعدين والمخضرمين من فئات المجتمع كافة إضافة إلى الوافدين من المدن والبلدات السوريّة جميعها، ومن ثم قمت بغربلة الروايات الشفويّة غير مرّة متوخّياً الدقّة والموضوعيّة ولم أبادر إلى تدوينها إلّا بعد إخضاعها لتقاطعات ومقاربات أقرب إلى الصرامة منها إلى المرونة.

لا بدّ من الإشارة أخيراً إلى أنّ العنصر الأصعب في تأليف الكتاب كان الوقوف على الأسلوب الأنسب في عرضه دون أن أفقد رصانتي في اختيار المصطلحات والعبارات التي من شأنها ألّا تخدش حياء القراء

بمختلف أعمارهم وثقافاتهم، وأشدّ ما كان يشغلني هو حرصي على الجيل الناشئ الذي لم يعاصر تلك المرحلة.

أمام هذا التحدي الكبير أجدني في موقع لا أُحسد عليه إذ كيف يمكن لكتاب ديدنه رصد قطاع الدّعارة عبر قرن من الزمن وتسليط الضوء على بيوت البغاء المرخصة وغير المرخصة وعلى العاملين فيها واستعراض المراحل المتعاقبة التي مرّت بها هذا المهنة ألّا يقع في المحظور؟

وقد انتابتني غير مرّة أفكار ملحة تدعوني إلى العزوف عن متابعة البحث والتقصي في عوالم هذا الفئة المليئة بالتناقضات والأسرار، ولكنني كنت أعود دائماً لاستكمال ما بدأته متسلحاً بروح المغامر والمكتشف.

لم يقتصر تركيزي على الإحاطة بجوانب الموضوع جميعها فحسب بل كان همي الأكبر مركزاً على الانطباع الذي سيخرج به القراء بعد أن يفرغوا من قراءته فالمأمول ألّا يشعر المتلقي بأنه يطّلع على كتاب يتحدث عن الجنس وإثارة الغرائز.

ها هنا أجدني لا أخفي سرّاً حين أقول إن إغواءات بعض المواضيع كادت تدفعني في أحايين كثيرة إلى الانزلاق في متاهات التفصيلات التي تلامس مباشرة الإيحاءات الجنسيّة وهذا ما جعل مهمتي أشدّ صعوبة!

إنّ ما أورده الأديب والباحث الدكتور (عبد الرحمن دركزللي)[2] في أحد فصول كتابه (الظواهر اللغويّة الكبرى في العربيّة)[3] عن المحظور اللغوي أتاح لي الانحياز إلى الأنسب من المفردات والعبارات والصفات، وقد أعانني كثيراً في اختيار الأسلوب الأفضل في عرض فقرات هذا الكتاب.

كما أنه من الجدير ذكره في هذا السياق أنّ الكتب القديمة التي تحدّثت عن أخبار البغائين والمخنثين والزناة عند العرب والمسلمين كانت تُسمي الأشياء بمسمياتها دون أدنى حرج أو موازبة ومن أشهرها كتاب (مثالب العرب)[4] لهشام الكلبي، وكتاب (رجوع الشيخ إلى صباه)[5] للعلامة أحمد بن سلمان الشهير بابن كمال باشا.

آمل في الختام أن أكون قد قدمت ما فيه الخير لمجتمعنا ساعياً في الوقت نفسه إلى تجاوز هذه العقدة الكأداء، ولعل هذه الدراسة المتواضعة تنفض غبار المحرمات والمحظورات عن ثقافتنا الجمعيّة وتنير جانباً من تراثنا لطالما صبغناه بسواد أفكارنا المظلمة.

* * *

1. تاريخ حلب الطبيعي: كتاب تاريخ حلب الطبيعي في القرن الثامن عشر، صدرت الطبعة الأولى منه في عام (1999) عن دار شعاع للنشر والعلوم في حلب للأخوين الكسندر وباتريك راسل وترجمة خالد جبيلي.

2. الدكتور عبد الرحمن دركزللي: ولد في مدينة حلب الشهباء عام (1949) تخرّج في جامعة حلب وحصل على الدكتوراه في اللغات القديمة (الساميّة)، درّس النحو وفقه اللغات القديمة بجامعة حلب وأصبح رئيس قسم التاريخ فيها، وأعير إلى جامعة الإمارات العربيّة المتحدة منذ عام (2000) ترجم كتاب (المقدمة التمهيديّة للغة الأكاديّة) وألف كتاب (الظواهر اللغويّة الكبرى في العربية) وغيرها.

3. **الظواهر اللغويّة الكبرى في العربيّة:** صدر هذا الكتاب في عام (2006) عن دار القلم العربي في حلب للباحث والأديب الدكتور عبد الرحمن دركزللي، ولأهمية ما جاء في أحد فصوله رأيت أن أقتبس منه الجزء التالي:

"المحظور اللغوي أمر معروف في جميع لغات العالم وليس قصراً على واحدة منها، أمّا العوامل الداعية إليه فكثيرة كان أبرزها أربعة هي: (الخجل، القرف، الخوف، التقديس).

ولقد استخدم الإنسان عدّة طرق لتفادي استخدام الكلمات المحظورة، ويمكننا حصرها في الطرائق التالية:

1 - استخدام بدائل (مترادفات).

2 - استعمال الكلمات الأجنبيّة.

3 - الرمز والكناية.

4 - التشويه اللفظي.

5 - التمهيد والتطويق.

وسوف أعرض ما جاء من شرح وتفصيلات عن العامل الأول فقط، وهو الخجل:

وهو يشمل ما يتصل بالجنس والعورات والمحارم، فالعربي مثلاً يخجل من ذكر الاسم الصريح لزوجته وبناته، وإذا اضطر إلى ذلك استخدم البدائل مثل (بنت عمي، أهل بيتي، عيلتي، إلخ).

والمتنبي مثلاً رثى أخت سيف الدولة أمير حلب فلم يذكر اسمها الصريح بل قال:

كأن (فعلة) لم تطرق مواكبها ديار بكر ولم تخلع ولم تهب

وهنا نلاحظ أنه استخدم الوزن الصرفي (فعلة) بدلاً من الاسم الحقيقي (خولة).

وعندما يُسأل العربي عن اسم (أمه، أو أخته، أو زوجته) يشعر بالغضب ويحس بالحرج، لذلك نرى القوم يمهدون للاسم بـ (أختي، أو أختنا).

والغريب في الأمر أننا نجد الشخص العادي يأنف من ذكر اسم زوجته وبناته مع أنّ أسماء أزواج رسول الله سيدنا محمّد (صلّى الله عليه وسلّم) وأسماء بناته معروفة! وهذا أعجب العجب.

ويتضح لنا الخجل تماماً في حال استخدام الألفاظ التي تتصل بالجنس:

- فالكلمة الأساسيّة لعضو المرأة يستخدمون لها كثيراً من البدائل سواء في الفصحى أو في العاميّة، ففي الفصحى نجد: (الفرج، الحرث، العورة، السوءة، الحر، الهن)، وفي العاميّة نجد: (...الجفن، المشقليز، الفلق، الشفتور، الشليف، الكي، الشقدوف، الباشا، ...).

- والكلمة الأساسيّة لعضو الرجل يستخدمون لها بدائل في الفصحى: (الذكر، القضيب...) وفي العاميّة: (الماخود، التبع، الخال، التمراية، الحمامة، الشرابة، الضربان، الشرطي، الخواجة، الأنكل، الكوكيّة، العصفور، ...).

- والكلمة الأساسيّة للعمليّة الجنسيّة لها بدائل كثيرة في الفصحى: (الرّفث، المباشرة، الإفضاء، الدخول، المس، الإصابة، الطمث، الجماع، الوطء، المواقعة، المضاجعة، الغشيان، الإتيان، القُرب) وفي العاميّة: (الطّرق، الخرط، الدّك، السمط، التقبين، الكبس، البلخ...).

وقد كان القرآن الكريم في غاية الحشمة إذ لم يعبر بصريح العبارة عن العمليّة الجنسيّة، وإليكم قائمة البدائل التي استخدمها:

- النكاح: (الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أو مُشْرِكَةً) (النور،3).

- الرفث: (أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلى نِسَائِكُمْ) (البقرة،187).

- المباشرة: (فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ) (البقرة،187).

- القُرب: (وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَى يَطْهُرْنَ) (البقرة،222).

- الإفضاء: (وَكَيفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلى بَعْضٍ) (النساء،21).

- الدخول: (فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ) (النساء،23).

- الملامسة: (أو لَامَسْتُمُ النِسَاءَ) (المائدة،6).

- التغشية: (فَلَمّا تَغَشّاها حَمَلَتْ) (الأعراف،189).

- الطَمث: (فِيهِنّ قَصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنّ إِنسٌ وَلا جَآنّ) (الرحمن،56).

والجدير بالذكر ههنا أنّ الألفاظ بحدّ ذاتها لا يمكن أن تصنف على أنها بذيئة (Dirty) لأنها ليست سوى تجمع للأحرف، ونحن لا نعرف لماذا تعدّ كلمة (قحبة) مثلاً من المحظور اللغوي على حين تعدّ كلمة (بغيّ) مقبولة بدليل استخدامها في القرآن الكريم، كما أنّ الإنكليز لا يعلمون ما الذي جعل كلمة (Vagine فرج) مقبولة على حين عُدّت مرادفتها (Cunt) من المحظور.

وفي العربيّة يستخدم العلماء كلمة (قضيب) في الكتب حتى المدرسيّة منها على حين تعد مرادفاتها من المحظور!

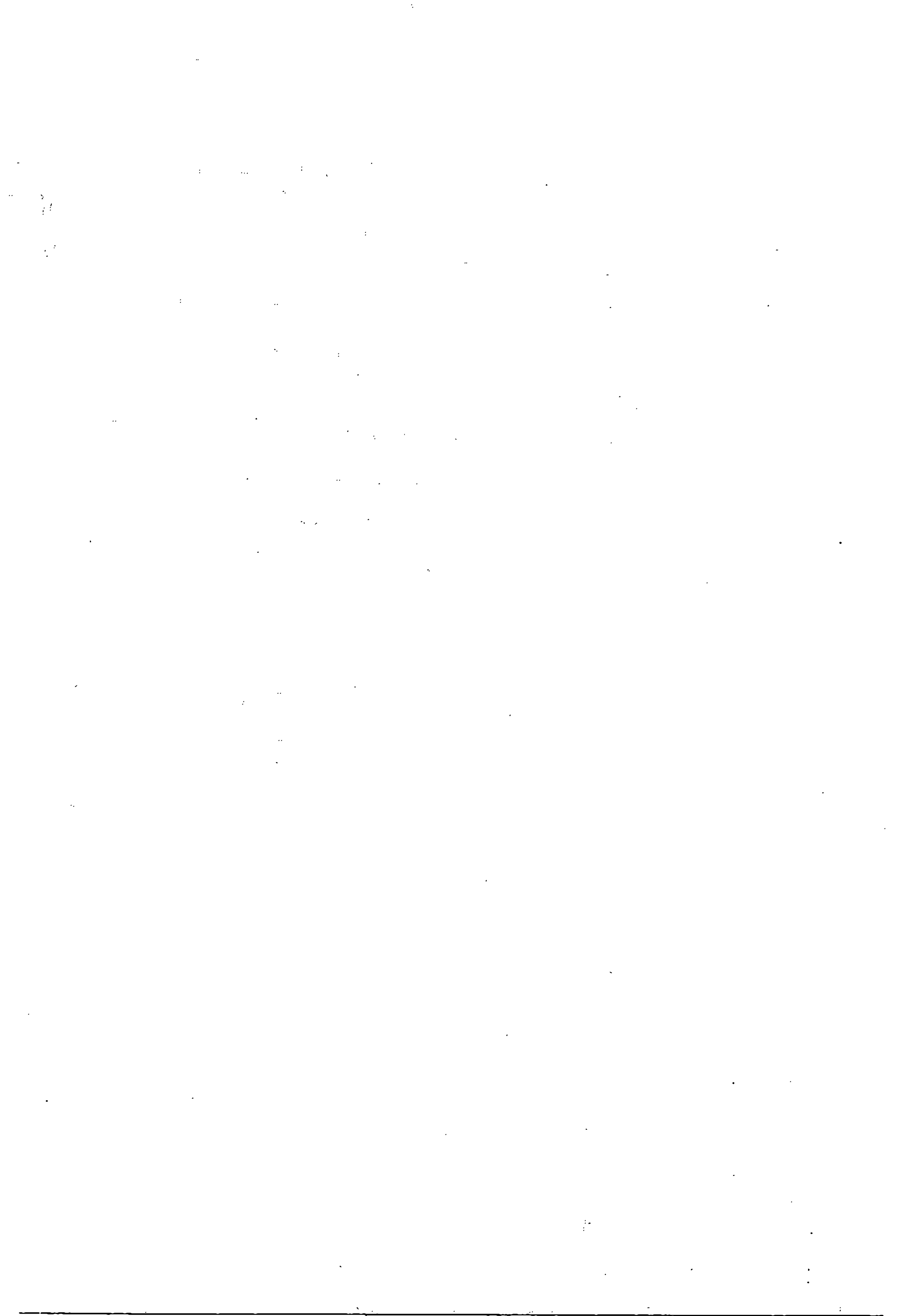
وأخيراً يتساءل المرء: هل كثرة المفردات تدلّ على نفسيّة الشعب الذي أنتجها؟؟ أي هل تدلّ كثرة المترادفات على شيء معين؟

في العربيّة مثلاً نجد: (عاهرة، بغيّ، ساقطة، زانية، فاجرة، فاسقة..)، هل هذه الكثرة تدلّ على أنّ العرب منحلون أخلاقياً؟ لئن

صحّ هذا فإنّ الإنكليز موصومون بالعُهر لكثرة ما لديهم من مرادفات لكلمة عاهرة.

4. مثالب العرب: تأليف هشام الكلبي، وتحقيق نجاح الطائي، صدر عن دار الهدى، بيروت - لندن في سنة (1998)، وهشام الكلبي هو أبو المنذر هشام ابن الكلبي، نال شهرة واسعة بعلم الأنساب عند العرب منذ النصف الثاني من القرن الهجري الثاني، ولد في الكوفة وتربى وتعلم فيها ومات سنة (204) وقد ساق هشام ابن الكلبي في كتابه باب تسمية ذوات الرايات أسامي صواحبات الرايات في الجاهليّة، فسمى منهنّ أكثر من عشر نسوة مشهورات، منهنّ امرأة يقال لها (أم مهزول) كانت تسافح في الجاهليّة فأراد بعض الصحابة أن يتزوجها فنزل النهي عن ذلك بقوله تعالى (الزانيّة لا ينكحها إلّا زانٍ أو مشرك) (النور،3).

5. رجوع الشيخ إلى صباه: تأليف العلامة حُجّة الناظرين أحمد بن سلمان الشبير بابن كمال باشا، صدر عن دار الحياة، القاهرة – جمهورية مصر العربيّة، في سنة (2012).



الفصل الثاني



معابر لتنشيط الذاكرة

المعبر الأول

تحدّث الأخوان راسل في كتابهما تاريخ حلب الطبيعي في القرن الثامن عشر عن العفّة والفضيلة في المدينة وأقتبس منه هذين المقطعين:

الأول: "وبما أنّ المغامرات العاطفيّة نادرة فيمكن الاستنتاج بأنها لا تحدث كثيراً فقلما أذكر أنني سمعت عن حادثة زنى جرت في حلب خلال سحابة عشرين عاماً".

الثاني: "وعندما ادّعى بعض التجار الفرنسيين أنّ المرأة الحلبيّة ماجنة خليعة تحب الأجانب وتسعى إلى إغوائهم من وراء النوافذ والأبواب أجاب باتريك: بالنسبة إلى التجار الفرنسيين فإني أميل إلى الاعتقاد بأنها من نسج الخيال لأنها لا تتماشى أبداً مع مفاهيم اللياقة والاحتشام في ذلك البلد".

إذن أعتقد أنّ تغيرات طارئة كبيرة عصفت بالمجتمع الحلبي خلال القرن التاسع عشر أدت إلى بروز ظاهرة الدّعارة إلى العلن ونموها على نحو ملحوظ.

* * *

المعبر الثاني

هل كانت سلطات حلب المحليّة في عام (1900) أكثر حكمة وعقلانيّة من مثيلاتها في العصور الحديثة؟ أم كانت أكثر انحلالاً وتقليداً للغرب؟

هل كان مجتمع المدينة بمختلف شرائحه وفئاته ومشاربه وطوائفه في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين أكثر نضجاً ووعياً وانفتاحاً ممّا أصبح عليه في العقود الأخيرة من الألفيّة الثانية؟

أو أنّ مدينة حلب كانت عاصمةً للبغاء في منطقة بلاد الشام في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين؟؟!!

هل من اللائق، أو من المنصف أن ننعت المجتمع الحلبي في تلك الفترة بأنه كان مجتمعاً جاذباً لفنون الدّعارة والفجور؟

هل وصف نسيج المدينة المتنوع بالبيئة الحاضنة لألوان المجون يعدّ نوعاً من المبالغة وضرباً من جلد الذات؟

هل بوسعنا ألّا نصدق ما جاء على لسان مؤرخ حلب وأديبها العلامة الشيخ (محمد راغب الطبّاخ)[1] في معرض حديثه عن فتح بيوت خاصة بالفحش في عام (1900)؟؟

هل يمكننا تجاهل الأرقام التي ذكرها الطبّاخ في كتابه (إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء)[2]؟

هل باستطاعتنا ألّا ندرك ما جاء على لسان مؤرخ حلب وأديبها العلامة الشيخ (كامل الغَزّي)[3] في معرض حديثه عن فسح الحكومة مجال البغاء؟

هل يمكننا غضّ الطرف عن أعداد المومسات الكبير التي ذكرها الغَزّي في كتابه (نهر الذهب في تاريخ حلب)[4].

لا شكّ في أنّ الجنوح إلى هذا السلوك يعدّ ضرباً من الهراء!! لأنّ إهمالنا لهذه الأرقام وانصرافنا عنها يعدّ خسراناً مبيناً وغفلة لا تغتفر إذ نجدهما قد حدّدا صراحة أنه بفضل اتخاذ هذه الأماكن أصبح عدد المومسات في الشهباء يناهز الخمسمائة.

سيل من التساؤلات يكاد لا ينتهي!

* * *

المعبر الثالث

تحدث الشيخ الطبّاخ في كتابه (إعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء) عن تعداد سكان مدينة حلب في بدايات القرن العشرين إذ لم يكن يتجاوز حاجز المائة ألف نسمة على أحسن تقدير.

إلى ذلك دارت التخمينات والمعلومات في المصادر التاريخيّة الأخرى حول فلك ذاك الرقم، وبحساب بسيط نكتشف أنه كان لكل مئتيّ مواطن حلبي بما فيهم النساء والأطفال وحتى الكهول ثمّة مومس تمارس مهنتها جهاراً نهاراً دون أدنى حرج أو خوف.

على أنّ ما يثير الاهتمام هو ما ذكره الطبّاخ عن أسباب فتح وترخيص تلك البيوت فقد أشار بأنّ الهدف الرئيس من إنشائها كان حصر وتنظيم عمل المومسات في أماكن محدودة منعاً من تواجدهنّ في مختلف الأحياء إضافة إلى فرض رقابة صحيّة وأمنيّة عليهنّ.

المعبر الرابع

تحدث الشيخ الغَزّي في كتابه (نهر الذهب في تاريخ حلب) عن طائفة من الأمور التي جعلت الناس ينفرون من الحكومة العثمانيّة في آخر أيّامها إذ قال:

"من المنفّرات العظيمة أيضاً فسح الحكومة مجال البغاء وتكثير فتح أبواب العِهْر وشدّة العناية بتيسير وسائط الوصول إليه في أكثر البلاد العثمانيّة حتى كان لحلب من هذه الوسائط النصيب الأوفر. فقد فُتح فيها بصفة رسميّة ما ينوف على مائتيّ بيتٍ يجمعها اسم المنزول أي الماخور هذا! عدا مئات من بيوت العِهْر غير الرسميّة التي كانت متفرّقة في المحلات بين البيوت والمنازل التي يسكنها أهل العِرْض والناموس فكان الإنسان إذا رفع خبر بيت من هذه البيوت المدنّسة إلى الحاكم لينقل أهله إلى المنزول بحسب أحكام القانون يكون جواب الحاكم قوله له: ليس لنا أن نُخرج صاحبة هذا البيت من بيتها إذا لم يظهر منها لجيرانها (زررتي) ويعني بهذه الكلمة فتنة أو استعمال سلاح أو تلويث باب دار جار أمّا ما دامت تُجري شؤونها ولا يظهر بسببها للجيران شيئ من الأضرار المذكورة فليس لنا عليها من سبيل.

على أنّ الذي كان يدافع عن أمثال هذه البيوت ويقف في وجه المشتكين منها هم رجال الشرطة والضباط العسكريون لأنهم هم الذين كانوا يتردّدون عليها للعِهْر أو كانوا يأخذون من كلّ بيت منها راتباً أسبوعيّاً ليدافعوا عنها تجاه أهل المحلّة ويحموها ممّن يسيءُ معاملتها من الزبائن. فكان أهل العِرْض والشرف المجاورون لهذه البيوت المدنّسة يتكبّدون كل ضرر من جوارهم ويُسلبون الراحة والقرار في الحرص على حريمهم وبناتهم كيلا يلحقهنّ شيء من فساد

الأخلاق بسبب الجوار الأمر الذي أُصيب به كثير من الناس وأصبحوا منكّسي الرؤوس.

وبينما كان الناس يتضجرون من كثرة المومسات ووفور بيوت الريبة إذ أصبحوا – وهم في أواخر أيام هذه الحرب – فرأوْا في محلّة (بَحْسيتا) بيوتاً عُلّق على أبوابها ألواح كُتب فيها (ملاقاتخانة) نومرو (كذا) أي محل لقاء، فسألنا عن المراد من هذه البيوت فقيل لنا: المراد تسهيل الوصول إلى المحبوب لذوي الهيئات الذين يتحاشَوْن الدخول إلى (المنزول). فعجبنا من اعتناء الحكومة بهذه الأمور الرذيلة في الوقت الذي تقتضي فيه عليها السياسة – فضلاً عن الدين – أن يكون تباعدها عنها فوق كل تباعدٍ رعايةً لعواطف السكان المسلمين.

والغريب أنّ المراجع التي كان يلجأ إليها المشتكي من هذه الأحوال السيئة أصبحت مراكز للمومسات ومصائد لاقتناص الحرائر وإيقاعهنّ في شبكات الفجور. فقلّما كان الإنسان إذا راجع المخفر للتشكي من هذه الأحوال ألّا يرى فيه عاهرة أُعدّت لرئيس المخفر أو لأحد مقربيه أو يرى فيه حُرّة لها حاجة عند هذا الرئيس قد أمسكها وماطلها لينال منها أَرَبه أُجرة له على قضاء حاجتها فإمّا أن تضحّي بشرفها أو تخسر حاجتها.

* * *

المعبر الخامس

من هنا نجد أنّ هذه الإفادة الصريحة التي وردت في كتابيّ الشيخين الطبّاخ والغزّي ليس لها إلّا أن تقودنا على نحو مؤلم إلى الاعتقاد أنّ هذه المهنة كانت مزدهرة في الشهباء خلال تلك الحقبة إذ كيف لنا أن نفسّر هذه النسب الصادمة. ولئنّ صحّت هذه

الفرضيات فإنّ مجتمع المدينة موصوم بالعهر لارتفاع هذه النسب التي تكاد تلامس نسباً قريبة منها، تتمتّع بها مدن الدّعارة الشهيرة في العالم وذلك في العصور القديمة منها والحديثة.

في الأحوال كلّها ينبغي لنا أن نشير إلى أنّ أهميّة ما ذكره الشيخان (الغَزّي، والطبّاخ) في كتابيهما المهمين عن تاريخ حلب لاسيما في الفِقَرات التي تحدثا فيها عن النواحي الاجتماعيّة في المدينة.

أقول إنّ أهميّة ما ذكراه في كتابيهما عن بدايات ظهور بيوت الفحش المرخصة في حلب لا يكمن في آرائهما الخاصة – قد نتفق معهما وقد لا نتفق – حول نشأتها، ولا في استنكارهما لانتشار البغاء العلني فحسب بل في المعلومات التي أورداها في سياق حديثهما عن تلك البيوت، وعلى الرغم من أنها تقتصر على بضع صفحات قليلة يغلب عليها سمتا الحرص والرصانة وإسلوب أقرب إلى الوعظ والتحذير منه إلى التحليل والدراسة فإنّ هذه المعلومات دون أدنى شك في غاية الأهميّة إذ لا توجد أيّة مصادر أخرى تتحدث عن ظاهرة الدّعارة حينما أصبحت أمراً واقعاً ترعاها الدولة من خلال مراسيم وقوانين سنّتها خصيصاً لتنظيم العمل في هذا القطاع وذلك في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

* * *

المعبر السادس

ما يثير اهتمام المتتبع للدراسات التاريخيّة في مجمل مواضيعها وفروعها أنّ التاريخ كائنٌ ذكوريٌ بامتياز إذ قلّ ما سمعنا أو شاهدنا كتاباً أو مخطوطاً يتحدث عن التاريخ ممهوراً بتوقيع سيدة لا سيما الإسلاميّ منه والعربيّ.

بالتالي فإنّ الكتب والمراجع التي تحدثت عن الغواني والجواري والسبايا وما لفّ لفهنّ من النسوة المهمّشات كانت وما تزال من صنيعة الرجال (وأنا واحدٌ منهم)، وهذا يعني أنّ الأخبار والمعلومات عن تلك الفئة من النساء دونتها أقلام ذكوريّة إذ يصور التاريخ المتوافر لدينا تفاني هؤلاء الفتيات في تقديم أشهى أنواع الملذات وأحلى ألوان اللهو للرجال بدءاً من عليّة القوم من طبقة الملوك والسلاطين والأمراء والتجار وحتى ذيل القائمة من عامة الناس، وما يبعث على الدهش والاستهجان ما تضيفه صفحات المؤرخين إذ وصفتهنّ بأنهنّ قادرات بالمهارة نفسها على تكرار تقديم وجبات المتعة الدسمة عينها في كل ليلة وإن تغيرت أحضان الرجال فقد كانت الجواري الحسان خير ما يجود به ذوو السلطة للشعراء والمحظيين من أفراد رعاياهم، وينسحب هذا السلوك على الناس العاديين حين يرغبون في إكرام ضيوفهم فضلاً عن أنهم اعتادو على تبادل الجواري بينهم كما يتبادلون الهدايا.

لا شكّ في أنّ المعادلة لم تتغير بين الطرفين منذ فجر التاريخ حتى يومنا هذا فالمتعة مقابل المنفعة الماديّة منها أو المعنويّة أو ربّما من أجل الحماية فقط والظفر بأقلّ مقومات الحياة.

إذا ضربنا صفحاً عن بعض المحاولات المتواضعة لكاتبات معاصرات تجرأنّ على اقتحام المحظورات الاجتماعيّة والتقاليد الموروثة نجد أنّ حظوظنا تكاد تكون شبه معدومة في الوقوف على حقيقة مشاعر شريحة كبيرة من النساء على مدى شطر طويل من الزمن.

* * *

قد يتساءل بعض الناس لِمَ وقع الاختيار على فتح بيوت الدّعارة في (محلّة بحسيتا)[5] دون سواها من الأحياء الحلبيّة الأخرى إذ لم يكن هذا الحيّ آنذاك واقعاً في أطراف المدينة وليس قريباً من منطقة (كرم الكسمة)[6] حيث كانت بيوت الفحش السريّة منتشرة قبل انتقالها إلى محلّة بَحْسيتا ولم تكن الملاهي والخمّارات (الميخانات) قد شرّعت أبوابها بعد في محيط منطقة باب الفرج المجاور لحي بَحْسيتا.

إذن ما هي العوامل والمعطيات التي دفعت بالسلطات المحليّة لاختيار حيّ عريق نابض بالحياة وآهل بالسكان ويقع داخل أسوار حلب القديمة ليكون مركزاً لتنظيم هذه المهنة؟

لا ريب في أنّ ذلك يعود إلى جملة من الأسباب أهمّها وجود غالبيّة من الطّائفة اليهوديّة في محلة بَحْسيتا وأعتقد أنّ ذلك كان له الدور البارز في هذا الاختيار، ونشير إلى أنّ وجود اليهود في تلك الفترة لا يقتصر على هذا الحيّ فقط بل إنّ معظم أهالي محلتي (القلّة)[7] و(البندرة)[8] المجاورتين له هم من الطّائفة اليهوديّة أيضاً.

ها هنا أجدني أتساءل: هل كانت السلطات المحليّة آنذاك ترى أنّ لا حظّ لأبناء الطائفة الإسرائيليّة في الاعتراض أو التذمر من هذا القرار؟ إذ يبدو أنها كانت تعدّهم من الفئات التي تنتمي إلى شرائح الدرجة الثانية من المجتمع! أو أنّ هذه الطائفة أصلاً لا تمانع مفاهيمها المجتمعيّة وتقاليدها من انتشار تلك الأماكن بين ظهرانيها؟ أو أنّ ذلك يعود إلى المهارة التي يتحلّى بها أفراد تلك الفئة وإجادتهم إدارة شبكات الدّعارة وإتقانهم لفنون تسهيلها وأساليب ترويجها؟ فقد كانوا يعدّونها تجارة مشروعة دون أدنى غضاضة أو شعور بالخجل، وهذه ليست خصلة يتميز بها أفراد تلك الطّائفة في المجتمع

الحلبيّ فحسب بل إنّ هذه السمة تنسحب على الجاليات اليهوديّة في مدن العالم كافة وليس بالضرورة أن تقتصر شبكات الدّعارة التي يديرونها على الفتيات اليهوديّات فقط إذ تشير المصادر المتوافرة والمراجع الشفويّة إلى أنّ العاملات والعاملين بتلك المهنة في بيوت الفحش بحلب سواء السريّة منها أو العلنيّة كانوا ينتمون إلى الطّوائف والمذاهب والأثنيّات جميعها فضلاً عن أنّ نسبة كبيرة من المومسات أتين من خارج المدينة.

إلى ذلك أنوّه إلى أنّ الطّائفة اليهوديّة في حلب كانت تتمتع بنصيب وافر من العدل والمساواة والمواطنة أسوة بالطوائف الدينيّة الأخرى الموجودة في المدينة وذلك طيلة مراحل انضواء حلب تحت تاج السلطنة العثمانيّة وفي أثناء فترة الانتداب الفرنسي وحتى بدايات مرحلة الاستقلال، وتشير معظم المراجع إلى أنّ المجلس البلدي في ولاية حلب وغرفة التجارة والزراعة والصناعة فيها وحتى مجلس الولاية كانوا يضمون في نهايات القرن التاسع عشر عضواً أساسيّاً على الأقل في كل منها ممثّلاً عن الطّائفة اليهوديّة في المدينة.

نجد على سبيل المثال وليس الحصر أنّ الباحث (علاء السيد)[9] ذكر في كتابه (تاريخ حلب المصور)[10] نقلاً عن (سالنامة حلب)[11] الصادرة عام (1312 هجري، 1894 ميلادي) أنّ مجلس حلب البلدي في عام (1894) كان يتألف من ثمانية أعضاء أحدهم يهوديّ وهو (موسى سياهو أفندي).

في حين ضمّت غرفة تجارة وزراعة وصناعة حلب في السنة نفسها عضوين يهوديين من أصل أحد عشر عضواً تتألف منهم الغرفة وهما (داوود أفندي ونسيم أفندي عدس).

كما تحدث في الكتاب نفسه عن مجلس إدارة ولاية حلب عام (1899) إذ كان يضم ستة أعضاء أحدهم يهودي وهو (ينطوب أفندي جدّاع) كان من تجار المانيفاتورة مكتبه في (خان الميسر)[12] تولى ابنه (جاك) عمل أبيه بعد وفاته، سكن في حيّ الجميليّة بالقرب من محطة الشام التي كانت مخصصة للقطارات المتجهة جنوباً وبالتحديد عند نهاية خطّ الترام الذي كان يربط محلة الجميليّة بمنطقة (تحت القلعة)[13] وما زالت بنايته قائمة بحال جيدة ولم تطلها يد الخراب حتى يومنا هذا.

هذه الإشارات والمعلومات تدحض على نحو قاطع فكرة أن يكون أفراد الطّائفة اليهوديّة في حلب خلال الفترة التي سُمح فيها بافتتاح بيوت الفحش المرخصة في حيّ بَحْسيتا من الفئات المهمّشة أو المظلومة في المدينة.

* * *

المعبر الثامن

إنّ أجواء قطاع الدّعارة وطقوسها وتقاليدها متشابهة إلى حدّ بعيد في أغلب البلاد الشاميّة والمصريّة وفي أغلب المدن التي كانت تنضوي تحت تاج السلطنة العثمانيَة وبمعنى آخر يسعنا القول إنّ معظم المعلومات والتفاصيل التي وردت في هذا الكتاب حول ظاهرة الدّعارة خلال القرن العشرين في مدينة حلب تنسحب بشكل أو بآخر على مدن المنطقة كافة.

ها هنا سأتطرق إلى أمرين وقعا في زمنين متباعدين نسبياً وفي منطقتين مختلفتين غير أنهما يصبان في السياق نفسه إذ يبدو لي أنّ

ترخيص العمل بمهنة الدّعارة كان أمراً مألوفاً في أواسط ونهايات القرن التاسع عشر في الدولة العثمانيّة والبلاد التابعة لها.

سأتناول في الموضوع الأول ظهور أولى بيوت الدّعارة في إستانبول، فقد سُمح بفتحها خلال حرب القرم بين عامي (1853-1956) ويبدو أنها افتتحت بهدف سد الحاجة الجنسيّة للمحاربين القادمين من الولايات العثمانية المختلفة إذ كان الجنود يتجمعون في إستانبول استعداداً لإرسالهم إلى مواقع المعارك التي كانت تخوضها الدولة العثمانيّة. ولم تذكر المراجع فيما إذا هذا الإجراء في تلك الفترة كان مؤقتاً أم أنه جاء اعتماداً على صدور فرمان سلطاني أو قانون خاص يسمح بفتح هذه البيوت.

والموضوع الثاني سنتعرف فيه على تفاصيل ترخيص عاهرة صادر عن الإدارة المحليّة في مصر، وهذه المعلومات منقولة من وثيقة رسمية متوافرة على الشبكة العنكبوتيّة.

من خلال الاطّلاع على هذا المستند نلاحظ أنه مقسوم إلى جزئين:

الأول عبارة عن جدول مصمم ليملأ بخط اليد من طالب الترخيص، ووجدنا فيه ما يلي:

(رخصة)

(من الإدارة المحليّة عن فتح محل عاهرات)

نمرة متسلسلة: (26)

تاريخ الرخصة: 9 يونيو سنة (1885)

اسم ولقب: نور العيون مهدي

جنسية: مصريّة

تبعية: الحكومة المحليّة

سن: 30

محل الميلاد: درب الأحمر
جهة السكن: باب الشعريّة
اسم ولقب صاحب المحل: سلمى الداية
أوصاف

أوسط الطول والجسم، ملفوفة القوام، سمراء اللون مفتوح هره قديمة، الحواجب سودة العيون والشعر، دقيقة الأنف والفم، بالجبهة هره مسجده، أثر جرح قديم.

القسم الثاني من الرخصة مطبوع، وهو على النحو التالي:

إنه بناء على التماس العاهرة المذكورة أعلاه فتح محل للعاهرات باسمها وعلى مقتضى المادة (16) من لائحة النسوة العاهرات الصادر عليها قرار نظارة الداخلية وتصديق مجلس النظار المؤرخة سنة (1302 هجريّة) موافق أول يونيه سنة (1885 ميلاديّة) القاضية بأن كل من يرغب من الأورباويين أو من أبناء العرب فتح محل العاهرات يجب عليه أولاً أخذ رخصة بذلك من الإدارة المحليّة وهذه الرخصة تكون دائماً قابلة للإبطال، ويعطى مدة ثلاثة شهور للأشخاص الذين لهم محلات الآن لأجل حصولهم على هذه الرخصة، قد تحررت هذه الرخصة بيدها.

بقي لنا أن ننوه إلى أنّ مصر في تلك المرحلة كانت تتمتع بحكم ذاتي شبه مستقل عن السلطنة العثمانيّة، وبالتالي فإن محيط سريان القوانين الصادرة عن الخديويّة المصريّة لا يتجاوز حدودها، وهنا تجدر الإشارة إلى أن السلطات المحليّة في مصر كان لها قصب السبق في إصدار قانون يسمح بفتح بيوت الدّعارة فقد صدر كما رأينا في القاهرة عام (1885) بينما احتاجت إستانبول لثلاثة عشر عاماً أخرى لإصداره عام (1898).

ها هنا نتساءل: هل كانت أسرة محمد علي التي كانت تحكم مصر في تلك الفترة أكثر وعياً وانفتاحاً من الخلافة العثمانيّة الموجودة في إستانبول؟ أم أنها كانت أكثر انحلالاً وتقليداً للغرب.

***

المعبر التاسع

قد يعتقد بعض القراء أنّ الغرض من هذا الكتاب هو إبراز مثالب مدينة حلب وإظهار الجوانب السلبيّة في تراثها وتاريخها من خلال تسليط الضوء على قطاع من المجتمع كثيراً ما كان المؤرخون والباحثون يتحاشون الاقتراب من أسواره وزواريبه دون أن يتبادر إلى أذهانهم أنّ هذه الظاهرة ليست متغلغلة في نسيج مجتمع مدينة حلب فحسب بل تحتضنها مجتمعات مدن المنطقة والعالم كافة لا سيما المزدهرة منها اقتصاديّاً وسياحيّاً.

ربّما يظن آخرون بأنني أروج لهذا القطاع وأحمل راية الدفاع عن سلوك أفراده وأفعالهم وأحاول تحصينهم بفضيلة زائفة.

ولكن في واقع الأمر فإنّ هذا الكتاب سيتعرض لهذه الشريحة بقلم وذهن محايدين دون التطرق إلى الأسباب الاجتماعيّة والنفسيّة التي أوصلت أبناء هذه المهنة للعمل فيها واتّخاذها مصدراً لكسب الرزق، مراعياً في الوقت نفسه ألّا أطلق أحكام القيمة السلبيّة منها أو الإيجابيّة على أيّ موضوع أو حادثة أو سلوك يرد في هذا الكتاب.

* * *

إنّ حبي الشديد لحلب، وولوعي بها كانا المحرضين الرئيسين اللذيْن جعلاني أتشبّث بهذه المغامرة، لعلي أحفظ جزءاً من تراثها المهمل من الضياع ساعياً إلى توثيقه آملاً ألّا يبقى هذا الجانب من المدينة مظلماً إلى ما لا نهاية، وأجد عشقي لها كعشق الطيور لأعشاشها إذ لم أشعر بالسلام الداخلي في حياتي يوماً قطّ إلّا حينما تستقر روحي في أحضانها.

ومن أهمّ الأسباب الأخرى التي دفعتني إلى الإبحار في أتون هذه العاصفة العاتية مشاعر الدهشة والحيرة التي أصابتني إزاء القرارين اللذين اتخذتهما السلطات المحليّة في حلب.

أولهما كان في عام (1900) حين سمح والي حلب بفتح بيوت الفحش، والآخر كان في عام (1974) لمّا أغلق محافظ حلب المحلّ العمومي الذي عُرف بأنه الأكبر والأشهر والأطول عمراً بين أقرانه المنتشرين في المدن السوريّة الأخرى.

إلى ذلك لا أعدّ التصدي لهذه الظاهرة جرأة دونها ركوب سفينة المتاعب وأمواج المخاطر بل أجدها مغامرة شائقة فيها كثير من التحدي والفضول، آمل أن تليق بجرأة سلطات حلب المحليّة المتعاقبة على المدينة منذ مطلع القرن العشرين وحتى يوم إغلاق المحل العمومي بصورة نهائيّة في منتصف السبعينيّات من القرن نفسه فقد سمحت بترخيص بيوت البغاء وشرعنت وجودها وأشرفت عليها أمنياً وصحياً واجتماعياً طوال تلك الحقبة.

أخيراً يمكنني القول إنّ بيوت الخفاء كانت منتشرة على نحو واسع وسري في الشهبا قبل فتح بيوت الدّعارة المرخصة في عام (1900)،

وعادت للانتشار مرّة أخرى على نحو واسع وسري في أغلب أحياء المدينة إثر إغلاق المحل العموميّ في عام (1974).

ذلك كله ليس له إلّا أن يفتح لنا أبواباً من الدهش والفضول، ويحملنا على التأمل والإعجاب بتلك الفترة من تاريخ المدينة.

* * *

*1. **الشيخ محمد راغب الطبّاخ:** أحد أهم أعلام حلب المعاصرين والبارزين في النصف الأول من القرن العشرين، والذين أسهموا بنصيب وافر في ثقافتنا الحديثة، وهو محدّث الديار الحلبيّة وخادم السنّة المحمديّة ومؤرّخ حلب ومترجمها وفقيهها الحنفي.*

ولد في أحد أحياء حلب القديمة - باب قنسرين - سنة (1293 هجريّة - 1876 ميلاديّة)، قال عنه والده في رسالة لأخيه عند مولده: إنه هبة من الله تعالى وكان كذلك.

عُرفت أسرته بالتجارة والعلم والتصوف. أجاد قراءة القرآن وحفظ معظمه وهو في سن الثامنة من عمره. نال الشهادة الابتدائيّة من المدرسة المنصوريّة.

مارس التجارة وطلب العلم وانقطع عن الأخير لوفاة والده. وبدعاء من والدته عند الكعبة عاد لطلب العلم. أهم الشيوخ الذين أثّروا في حياته:

1- الشيخ محمد كلزيّة، وهو ابن خاله، وقد تزوج من ابنته وعمره سبعة عشر سنة فصان جوارحه، وبعد وفاتها تزوج ثانية.

2- الشيخ محمد رضا الزعيم (والد الرئيس السوري حسني الزعيم) مفتي ألاي الجيش العثماني.

3- الشيخ محمد الزرقا الذي كان حجة في الفقه الحنفي.

4- الشيخ بشير الغَزّي المتمكن باللغة العربيّة وشعرها وأدبها.

بعد حفظه لمتون العلوم الدينيّة واللغة العربيّة، انقطع عن الدراسة وانصرف إلى مطالعة الكتب والمجلات والجرائد. ثم بدأ بالتأليف وكتابة المقالات في مجلات المجمع العربي بدمشق والفتح، والزهراء، والمقتبس، وأشهر مؤلفاته:

1- إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء في سبع مجلدات كبيرة، طبعة أولى (1341 هجريّة - 1923 ميلاديّة) المطبعة العلميّة بحلب، طبعة ثانية (1408 هجريّة - 1988 ميلاديّة) دار القلم في حلب.

2- الأنوار الحلبيّة في مختصر الأثبات الحلبيّة (أحاديث نبويّة)، طبعة أولى (1351 هجريّة - 1932 ميلاديّة) المطبعة العلميّة بحلب، طبعة ثانية (1432 هجريّة - 2011 ميلاديّة) دار البشائر الإسلاميّة في بيروت.

3- ذو القرنين وسد الصين طبعة أولى (1368 هجريّة - 1949 ميلاديّة) المطبعة العلميّة العصريّة بحلب، طبعة ثانية (1431 هجريّة - 2010 ميلاديّة) دار نمراس.

4- الثقافة الأسلاميّة (1369 هجريّة - 1950 ميلاديّة) مطبعة طبّاخ إخوان بحلب.

5- الروضيات في شعر أبي بكر الصنوبري (1351 هجريّة - 1932 ميلاديّة) المطبعة العلميّة بحلب.

بادر إلى بيع حصته من منزل والده في محلة قنسرين واستأجر بيتاً في حيّ العقبة عام (1921) وشارك المحامي عبد الغفور المسوتي في تأسيس المطبعة العلميّة عام (1922) بغية طبع كتابه إعلام النبلاء

بتاريخ حلب الشهباء ونشر التراث الإسلامي وتشجيع العلم والبحث وتسهيل طباعة الكتب.

دعا إلى الوسطيّة في الدين وإلى الوحدة الوطنيّة ونبذ الخلافات ومقاومة الاستعمار والتجديد.

توفي يوم الجمعة (25 رمضان 1370 هجرية - 1951 ميلادية) خلد حلب بكتابه عنها فخلدته بحبها.

قال:

إليكم يا بني الشهبا كتاباً حوى تاريخ أجداد عظام

وروحي في ثناياه تجلّت وذا رسمي إذا غابت عظامي

2. إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء: تأليف الشيخ محمد راغب الطبّاخ، طبع في حلب سنة (1923) في سبعة أجزاء، ثم نشرته دار القلم العربي بحلب سنة (1988) وقام بتصحيحه الأديب محمد كمال.

3. الشيخ كامل الغَزّي: هو كامل بن حسين بن محمد بن مصطفى البالي الحلبي الشهير بالغَزّي، ولد في حلب سنة (1270 هجريّة - 1853 ميلاديّة) وتوفي فيها سنة (1351 هجريّة - 1933 ميلاديّة).

نبت في بيت علم وشرف فقد كان أبوه (الحسين 1235 هجريّة - 1272 هجريّة)، من أشهر رجال الشام في الفقه والحديث والأدب. توطّن حلب قادماً من غزّة في منتصف القرن الثالث عشر للهجرة، ولبث فيها مدرساً بالمدرسة السيافية في محلة الفرافرة ثم وجهت إليه الخطابة في أيام الوالي العثماني (سليمان رأفت باشا).

حرص ذووه على تعليمه وتثقيفه منذ بلغ سن الطلب فدفعوه إلى الكتّاب حيث أتمّ تلاوة القرآن الكريم ثم سعى إلى الشيوخ في بلده فأخذ العلم عن (الشيخ محمد الكحيل)، (والشيخ مصطفى الكردي)، ولم يكتف بما تلقاه من علوم الدين إذ انكب على دراسة التاريخ واطّلع على مؤلفات من سبقه من فحول المؤرخين.

أخذ منذ شبابه الأول يكتب وينشر في كبريات الدوريات العربيّة والسوريّة مقالات وبحوثاً تناولت مختلف العلوم المعروفة من دينيّة ولغويّة وأدبيّة، يعدّها العارفون من خالص الأدب الرفيع، وما لبث أن عني بالأدب الشعبي والفنون في حلب حتى غدا العالم المرجع في موضوعاته.

كما تقلّد الغَزّي عدداً من المناصب الرسميّة في حلب فتولى رئاسة كتّاب المحكمة الشرعيّة مرتين، ورئاسة تحرير جريدة الفرات الرسميّة نحو عشرين سنة، وسميّ مديراً لمكتب الصنائع، ورئيساً لبنك الزراعة، وغرفة التجارة والزراعة والصناعة، وانتخب غير مرة عضواً في المجلس البلدي، كما انتخب عضواً في المجلس العلمي العربي بدمشق، كما عيّن رئيساً لجمعية الآثار القديمة وللجنة الإداريّة للمتحف الوطني بحلب ورئيساً لتحرير مجلتها.

عُرف عن الغَزّي أنه أولع باقتناء الكتب منذ صباه حتى اجتمعت له منها خزانة نفيسة عامرة، عدّها العلامة المرحوم (محمد كرد علي) في كتابه (خطط الشام) واحدة من أشهر خزائن حلب.

وأمّا آثاره المطبوعة فهي:

1- إتحاف الأخلاف في أحكام الأوقاف: عرّبه عن التركيّة ومؤلفه (عمر حلمي)، وطبعه بمطبعة البهاء سنة (1909).

2- انتقاد العادات السيئة، طبع في حلب سنة (1920).

3- الروزنامة الدهريّة، طبع في حلب سنة (1922).

4- نهر الذهب في تاريخ حلب: في ثلاثة مجلدات كبار، وقد طبعه بالمطبعة المارونيّة في حلب بين سنتي (1922- 1926).

ومن آثاره المخطوطة:

1- ديوان شعر.

2- الذيل على الروزنامة الدهريّة.

3- القول الصريح في الأدب الصحيح.

4- الصنوبري وأشعاره.

5- الروضة الغنّاء في حقوق النساء.

6- جلاء الظلمة في حقوق أهل الذمة.

4. نهر الذهب في تاريخ حلب: تأليف الشيخ كامل الغزّي، طبعه بالمطبعة المارونيّة في حلب بين سنتي (1922 – 1926 ميلاديّة) في ثلاث مجلدات كبار.

5. بَحْسيتا: حي داخل الأسوار يحدّه جنوباً الدباغة العتيقة والمصابن، وغرباً منطقة باب الفرج، وشرقاً البندرة، وشمالاً جادّة الخندق، وذكر مؤرخو حلب في معنى تسمية هذا الحي ستة مذاهب، وقد رجّح أغلبهم المذهب السادس، وهو أنّ اسم بحسيتا محرّف من (باح سيتا) أي باح بالسر، وهو رجل صالح مدفون بمسجد سيتا وكان معظم سكان هذا الحيّ من اليهود.

انظر موسوعة حلب (المقارنة)، تأليف خير الدين الأسدي، وتحقيق محمد كمال، المجلد الثاني، الصفحة (59).

غير أنّ صديقي الدكتور عبد الرحمن دركزّلي (وهو أستاذ جامعي وباحث وأديب)، يميل إلى رأي الأب (جرجس شلحت، 1920-1991) الذي ورد في كتابه (لغة حلب السريانيّة)، إذ يرى أنّ كلمة (بحسيتا) مركبة من كلمتين، أولاهما: (بيت) والثانية: (حسدا) ومعناها: رحمة أو

(حسيوتا) ومعناها الغفران أو الطهارة. وبناء على هذا فإنّ (بحسيتا) مكان مقدّس قديم كان الناس يقصدونه للتطهر والغفران (للاعتراف بخطاياهم).

ومن نوادر أهل حلب عن سوق بحسيتا:

سأل مسلم يهودياً: دلني على دوا يكبّر الشوارب.

قال اليهودي: مالك غير دهن الآحور.

قال المسلم: وين بينباع؟

قال اليهودي: ما بيبيعوه إلا عطّارين بحسيتا.

وراح المسكين وكل عطّار يزتو لعند غيرو.

و(الآحور) كلمة عبرّية ويستعملها اليهود فقط ويريدون بها: الاست والمؤخرة.

6. كرم الكسمة: كرم يقع بالقرب من حي الرمضانيّة، كانت أغلب بيوته تتعاطى فيها الفحشاء على نحو سري، وكلمة (كسمة) تركية بمعنى القطعة.

انظر كتاب أحياء حلب وأسواقها، تأليف خير الدين الأسدي، وتحقيق عبد الفتاح روّاس قلعةجي، الصفحة (328).

7. القلّة: سُميت هذه المحلة بالقلّة لأنها كانت بالنسبة إلى الخندق الذي يكتنفها قلّة ومرتفعاً. وهي حيّ يهوديّ كان لها ثلاثة أبواب تغلق ليلاً باب عند مدخل بَحْسيتا، وباب عند بوابة القصب، وباب أمام محل البغايا، وكان فيها أيضاً كنيسان لليهود: بيت ناسي، ومدراش ألبومين، من عائلاتها آل شقالو وهم حاخاميّة، وآل كندي وهم تجار، وآل يوسف برج، وقد هاجر أغلبهم إلى أمريكا، وأول عائلة إسلاميّة سكنت في القلّة عام (1946) هي عائلة الحاج محمد قصّاص، ثم تبعهم آل قناعة، وآل طحّان، ثم توافد إليها

أجناس مختلفة من أكراد، وماردينين، كما كثرت البغايا في بيوتها، وحين اندلعت الحرب العربيّة الإسرائيليّة عام (1948) هاجم الحلبيون القلّة، فقامت العائلات الإسلاميّة بحماية السكان اليهود. كانت القلّة محلّة نظيفة تغسل أزقتها عصراً ويجلس أفراد الأسر اليهوديّة كل مساء أمام أبواب الدور يحتسون القهوة. ولمّا بُدئ بتفيذ مشروع باب الفرج عام (1980) هدمت محلّة القلّة وأزيلت بيوتها تماماً.

انظر كتاب أحياء حلب وأسواقها، تأليف خير الدين الأسدي، وتحقيق عبد الفتاح روّاس قلعةجي، الصفحة (317).

8. البندرة: البَنْدَرة تقع بين سويقة علي، والدباغة العتيقة، وبَحْسيتا، وباب النصر، وهي قسمان: بندرة الإسلام، وبندرة اليهود، وكلمة بندرة من بندر الفارسيّة بمعنى الميناء التجاري، وتوسع في استعمالها حين نقلت إلى العاميّة فأطلقت على كل مدينة، وتقع محلّة البندرة داخل أسوار حلب القديمة، وفيها كنيسان لليهود: كنيس سلويرة، وكنيس غورة عدس.

انظر كتاب أحياء حلب وأسواقها، تأليف خير الدين الأسدي، وتحقيق عبد الفتاح روّاس قلعجي، الصفحة (137).

9. علاء نديم السيد: محامٍ وباحث في تاريخ حلب، صاحب كتاب تاريخ حلب المصور أيام العهد العثماني (1980- 1918) إصدار دار شعاع بحلب عام (2011).

10. تاريخ حلب المصور: أواخر العهد العثماني (1880 – 1918)، تأليف المحامي علاء نديم السيد، صدر عن دار شعاع للنشر والعلوم في حلب، عام (2011).

11. سالنامة حلب: الكتاب الرسمي لولاية حلب، كان يصدره مجلس الولاية سنوياً خلال مرحلة انضواء المدينة تحت تاج السلطنة العثمانيّة.

12. خان الميسّر: من أهم خانات حلب رغم أنه آخر الخانات القديمة إذ بني عام (1911)، وللخانات مهمّات كثيرة ووظائف متعدّدة فهي أولاً: أماكن تضم حوانيت للبيع والشراء، وثانياً: حصون تلجأ إليها القوافل للمبيت وتبادل البضائع، وثالثاً: فنادق، ورابعاً: أمكنة يتخذها القناصل ووكلاء الشركات لسكناهم ولعملهم السياسي والتجاري، فالقنصليّة البلجيكيّة كانت في خان النحاسين، والإنكليزيّة في خان البرغل، والهولنديّة في خان الحاكي، والفرنسيّة في خان الحبال، ويوجد في أغلب الخانات مساجد، وفي بعضها كنائس.

13. تحت القلعة: وهي المنطقة الممتدة أمام مدخل قلعة حلب، وتعدّ واحدة من الأحياء التي تشكل قلب المدينة القديمة وتزخر بالأوابد والآثار المنتمية إلى العصور والممالك والدول المتعاقبة على المدينة جميعها.

الفصل الثالث

لمحة تاريخيّة

يرى كثيرٌ من الباحثين والمؤرخين أنّ غنى مدينة حلب الثقافي والحضاري يعزى إلى تنوع فسيفساء مجتمعها على مرّ العصور والأزمان إذ يرسم جدرانَ أحيائها ودروبها مزيجٌ من ألوان الطيف المذهبيّة والطائفيّة والإثنيّة المختلفة، وعلى الرغم من ذلك فإنه غالباً ما يوصف مزاج مجتمعها بالمحافظ وميل أهلها إلى التمسّك بالموروث الديني والتشبثّ بالتقاليد الاجتماعيّة الرصينة. وهذا ما نراه جليّاً في معرض حديث الأخوين راسل عن النساء بشكل عام في حلب، وقد وجدت أنه من المفيد أن نقتبس جزءاً مما جاء في الفصل الخامس (عن الحريم في حلب) في القسم الثاني من كتاب تاريخ حلب الطبيعي في القرن الثامن عشر الصفحة (187)، لعله يعطينا فكرة عامة عن بواكير ظهور العلاقات غير الشرعيّة في المجتمع الحلبي وحجم تفشّي الدّعارة المتناهي في الصغر بالمدينة في تلك الحقبة.

"من الأمور التي ذكرناها يتبيّن أنّ السيدات المسلمات لسن مقيّدات بشدّة كما يسود التصور، ويمكن الإضافة إلى أنّ العادات وفكرة الاحتشام المرتبطة بتقييدهنّ لا تجعلهنّ يشعرن باستياء شديد، وإنّ عدم معرفتهنّ بالمزايا التي تتمتّع بها المرأة في بقاع عديدة من أوروبا تَحوْل دون عقد مقارنة بينهنّ، وعندما يسمعن بهذه المزايا لا يبدين رغبة في الحصول على مثل هذه الحريّة ويعدّونها في كثير من الأحيان لا تتماشى مع مفهومهنّ عن الشرف والحشمة.

بالإضافة إلى عدم وجود أماكن ملائمة لعقد لقاءات خاصة فقد يعدّ ذلك من الأمور التي تعوق القيام بمغامرات غير شرعيّة والتي يمكن كشفها بسهولة، وبما أنه نادراً ما يسمع عن هذه المغامرات، يمكن الاستنتاج بأنها لا تحدث على نحو متكرر، فقلما أذكر حادثة زنى جرت في حلب خلال سحابة عشرين سنة ومن بين الفضائح الخاصة التي سمعت بها كانت من بين الطبقات الدنيا ولم يتجاوز عددها اثنتي عشرة، أمّا بالنسبة إلى دخول الغرباء بصورة غير شرعيّة إلى حرملك العائلات الكبيرة فإنّ وجود العدد الكبير الذي يتعيّن الوثوق به من أجل كتمان السر يجعل الأمر ضرباً من المستحيل، ولعل حلب لا تختلف كثيراً في هذا المجال عن باقي مدن السلطنة العثمانيّة رغم أنه قد توجد في العاصمة أماكن ثالثة ملائمة لعقد لقاءات غراميّة غير شرعيّة أكثر ممّا عليه الحال في الأقاليم.

فيما يتعلق بالإفرنج فإنّ هذه العمليّة ليست محفوفة بالمخاطر بالنسبة للفرد فقط بل قد تؤثّر نتائجها على أفراد الجالية جميعهم لذلك ينبغي ألّا يتم ذلك على الإطلاق أو أن تتم بسريّة تامّة. ولديّ أسباب تجعلني أعتقد أنه كانت تُقدم في بعض الأحيان للرحالة الأوربيين مومس يونانيّة على أنها سلطانة وبعد أن يدبّ الذعر في

نفوسهم كانوا يرغمونهم على دفع مبلغ كبير لكتمان السر الذي كان يشاع إلى نصف الأخوات في المدينة.

إلّا أنه ليس من الإنصاف أن نعزو عفاف النساء إلى هذه العوائق الخارجيّة فقط إذ إنّ الاحتشام الفطري الذي تعزّزه تربية الأم منذ الصغر وفي سنوات الصبا يحميهن من كثير من الإغواءات الماكرة، كما يعدّ المناخ والقانون الطبيعي مواتياً لذلك إذ إنّ المهارة في فنون الإغواء أو التورط في علاقات غراميّة غير شرعيّة لا تعدّ من الأمور المهمة والضروريّة في تكوين الشاب المسلم وتعليمه.

إنّ صلة القربى التي تجمع بين الزوجات والسراري اللاتي يعشن معاً تمنعهنّ من إقامة اتصالات غير شرعيّة لأنها تعدّ عاراً مخزياً. وفي الواقع فإنّ العلاقات السريّة بين الصبية والجواري مهما كانت الأسباب هي أقل حدوثاً ممّا هو متوقع. كما أنه قلما يمكن إبقاء علاقة غراميّة بالخفاء لمدة طويلة في الحرملك، وتحرص الأمهات عادة على الإسراع في تزويج أبنائهنّ قبل أن تتأجج العاطفة فيهم ويصبح من الصعب على السلطة الأبويّة السيطرة عليها.

ذكرت لي بعض السيدات المسلمات إنّ سبب تفضيلهنّ الجواري على النساء الحرائر يعود إلى كونهنّ خادمات وضيعات مما يَحول دون إقامة علاقات جنسيّة في البيت، فعندما يتم إغواء فتاة حرة يستغل أهلها هذا الحادث لإرغام العائلة على دفع مبلغ من المال بالتهديد للجوء إلى القضاء العام، الأمر الذي لا يفضي فقط إلى دفع مبلغ ما بل يعرض شرف الحريم للخطر وهذا يثير حفيظة النساء أكثر وفي بعض الأحيان يتم تشجيع الفتيات سراً وبصورة ماكرة على القيام

بذلك ليس بأمل الحصول على تعويض مالي فقط بل كذلك بأمل الحصول على زوج.

لا تتاح للشابات من الطبقة الراقية خارج حدود الحرملك فرص التورط في متع غير مشروعة أو تكون الفرصة نادرة، لا لأنه لا يسمح لهنّ بالخروج بمفردهنّ فحسب بل لعدم توفر أماكن خاصة تمكن الجنسين من اللجوء إليها.

تنتمي المومسات (اللاتي يقمن علاقات مع الجنود) إلى أدنى الطبقات ويقمن في مناطق مظلمة من المدينة لا يمكن لأيّ شخص ذي اعتبار أن يقترب منها. وتُمنح المومسات رخصاً من التفنكجي باشي التابع للباشا ويدفعن له مبلغاً من المال لقاء توفير الحماية لهن وبعضهنّ من أهالي حلب إلاّ أنّ الكثيرات منهنّ يفدن من أماكن أخرى ويستعرضن أنفسهنّ في الشوارع والمناطق الواقعة خارج حدود المدينة ويرتدين ثياباً مبهرجة، ويتطاير حجابهنّ عن وجوههنّ. ويطلين خدودهنّ، ويضعن زهوراً على أصداغهنّ بطريقة تنمّ على ذوق فج، وتكون صدورهنّ مكشوفة، وتشبه طريقة مشيتهنّ مشية الرجال وهي مليئة بالتصنع. وهنّ في أحسن أحوالهنّ صفيقات خليعات.

قد يوجد عدد قليل من المومسات من طبقة أعلى نوعاً ما وهنّ اللاتي يستقبلن زبائنهنّ في بيوت أفضل إلّا أنّ أصحاب تلك البيوت يجازفون بالتعرض إلى عملية ابتزاز أو للسخرية العامة عند اكتشاف أمرهم مما يجعل هذا الأمر يقتصر على الفئة الدنيا من العسكريين أو الإنكشارية.

يتحدث (دارفيو) عن سيدات حلب فيقول: يفيد أولئك الذين يتمكنون من الدخول إليهنّ بأنهنّ ذكيات ومرحات للغاية ورغم احتجازهنّ والحرص الشديد الذي يبذله الأزواج فهنّ يحاولن عادة

إقامة علاقات غرامية غالباً بوساطة امرأة يهودية ولكن الويل للطرفين إذا ما اكتشف أمرهما (المذكرات، المجلد 6، ص 422).

تجدر الإشارة إلى أنّ (دو لوار، ودارفيو) يتفقان على جعل اليهوديات وسيطات في هذا الأمر الفاسد. ويقال إنّ حوانيت اليهود في الأستانة هي الأماكن المعتادة لعقد اللقاءات الغراميّة، والأمر ليس كذلك في حلب لأن جميع الحوانيت تقع في السوق العام ومساحتها صغيرة.

وفيما يلي الوصف الذي أوردته الليدي (ماري ورتلي مونتاج):

أمّا بالنسبة لأخلاقياتهنّ وسلوكهنّ فأستطيع القول كما قال (هارلكوين) إنّ الأمر يتفق تماماً معك والسيدات المسلمات لا يرتكبن إثماً واحداً ليس لأنهنّ لسن مسيحيات. وقد اطّلعت الآن على بعض أساليبهنّ، ولا يسعني إلّا أن أعبر عن إعجابي سواء للتحفظ الرائع أو الغباء البالغ لجميع المؤلفين الذين كتبوا عنهنّ. إذ تتمثل الطريقة المعتادة في إقامة علاقة غراميّة في إرسال موعد إلى العشيق للقاء السيدة في أحد حوانيت اليهود وهي ملائمة كثيراً لذلك كما هي بيوت الهنود عندنا. وقلما تَدَعُ السيدات من الطبقة الراقية عشاقهنّ من معرفتهنّ. وبوسعك تصور عدد الزوجات الوفيات بسهولة عندما لا يخشين من افتضاح أمرهنّ.

أمّا إلى أي مدى كانت معلومات السيدة (ماري) صحيحة فهذا أمر يصعب تحديده. إلّا أنه من المؤكد أنها مخطئة أو أنّ وصفها غير صحيح عن حجاب المرأة الذي يغطيها بالكامل فيجعلها حرّة لكي تفعل ما تشاء دون خطر اكتشاف أمرها.

إنّ وصف (دو لوار) للحجاب الذي ترتديه النسوة في الأستانة أكثر صحة إلّا أنه يؤكد (ص 185) أنه عندما يقابلن عشيقاً شاباً ينتهزن

الفرصة متظاهرات أنهنّ يسوين حجابهنّ ليظهرن وجوههنّ وفي بعض الأحيان ليكشفن عن أماكن أكثر فحشاً، وغالباً ما تضطّر النساء إلى تسوية حجابهنّ إلّا أنه في مثل هذه الظروف يقفن دائماً ووجوههنّ باتجاه الحائط. أمّا الأمور الفاحشة التي يشير إليها (دو لوار) فهي تصدر عن نساء ينتمين إلى أدنى فئات العاهرات".

يقودنا هذا إلى الإدراك واليقين أنّ العلاقات غير الشرعيّة لم تكن مألوفة في ثنايا المجتمع الحلبي المحافظ ولم تكن جزءاً من مفردات ثقافته السائدة وذلك في أواسط ونهايات القرن الثامن عشر.

بمعنى آخر بوسعنا الخلوص إلى أنّ ممارسة مهنة الدّعارة كانت تقتصر في العموم على الوافدات من خارج المدينة وتجري في أضيق الحدود.

* * *

على أنّ الفرمان السلطاني الذي صدر عن الباب العالي في عام (1898) والذي سمح بفتح بيوت الفحش على نحو مرخص ورسمي أصاب المجتمع الحلبي ومجتمعات المدن الأخرى على امتداد الولايات العثمانية بالصدمة والاستياء الشديدين، وهذا ما دفعني إلى البحث والتقصي في أصل نشأة ظاهرة الدّعارة وتاريخها في حلب لما يكتنف به هذا الموضوع من إثارة وفضول كبيرين، فضلاً عن أنّ مسيرة هذا القطاع على امتداد سنوات القرن العشرين مليئة بالخبايا والأسرار، كما أنها شهدت كثيراً من التقلّبات والتحوّلات، إلا أنّ الخوض في مثل تلك الأمور تحفّه كثير من المخاطر والمحظورات وقد يعدّه البعض ضرباً من الجنون والمجازفة الأخلاقيّة، ولا ريب في ذلك إذ وجدتني كما لو أنني أسير فوق حقل من الألغام.

لا يخفى على أحد أنّ أرفف المكتبات تعجّ بكتب التاريخ والتراث عن المدينة وتكاد حلب أن تكون من أكثر مدن العالم التي حظيت

بالاهتمام والدراسة وما زالت إذ لم يترك أدباؤها ومبدعوها وباحثوها صغيرة ولا كبيرة فيها إلّا وأشبعوها تحليلاً وتصنيفاً وتوثيقاً.

على الرغم من ذلك فإنّ الكتب والمراجع التي طبعت في بداية القرن العشرين جميعها لم تتطرق إلى هذه الظاهرة لا من قريب ولا من بعيد، فالأخبار والمعلومات عنها قليلة جداً إلى درجة الشح، حتى الشيخان (الغَزّي، والطبّاخ) اللذان كتبا تاريخهما العظيمين عن المدينة مرّا على هذا الموضوع مرور الكرام ولم يشذّ العلامة (خير الدين الأسدي)[1] عن نهجهما رغم أنّ شهرته العريضة نالها من خلال موسوعته التي غالباً ما كانت تلامس وتقترب من أشكال التابوهات الاجتماعيّة كافة فقد جعلها تبرز على نحو طريف وممتع بعد أن كانت مجرد حكايات مخفيّة في ثنايا المجتمع الحلبي.

هذا ما ضاعف عناء مهمتي وما انطوى عليها من صعوبة في استكمال البحث والتقصي ومتابعة الإبحار في تاريخ هذه الظاهرة وعوالمها للوقوف على الحقيقة واستخلاص الفائدة دون إغفال المصداقيّة والمهنيّة.

إثر تحليل المعلومات والمعطيات من المصادر المتوافرة وتقاطعها مع الحكايات الشفويّة المتواترة يمكنني القول: إنّ المحل العمومي في حلب لم يتخذ وضعه وشكله النهائيين ومقره الذي ينطبع في مخيلة كثير من معاصريه في سنواته العشرين أو الثلاثين الأخيرة إلّا بعد أنّ مر قطاع الدّعارة عبر حلقات من التغيير والتبديل المتعاقبة، ولديّ الأسباب الكافية التي تجعلني أعتقد أنه بوسعنا تقسيم تلك المسيرة الحافلة إلى ثلاث مراحل رئيسيّة، وهي على النحو التالي:

المرحلة الأولى:

مرحلة الحكم العثماني وما تلاها من فوضى نتيجة تفكك السلطنة إثر هزيمتها في الحرب العالمية الأولى أي من عام (1900) إلى عام (1920) فقد سُمح بإنشاء بيوت مخصوصة للفحش في أيام الدولة العثمانيّة، فبادر والي حلب (رائف باشا)[2] في العام (1900) إلى إصدار قانون جديد يتيح منح تراخيص افتتاح بيوت بغاء أسوة بمدن السلطنة العثمانيّة الأخرى.

إنّ هذا القرار هتك حجب تقاليد المجتمع الحلبي ومزّق ما توارثه من أعراف، ولعلّ هذا الشعور السلبي إزاء السماح بترخيص بيوت الفحش نراه واضحاً عند مؤرخ حلب الشيخ (محمد راغب الطبّاخ) إذ إنه ذكر هذه الواقعة في الجزء الثالث من كتابه (إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء) في معرض حديثه عن عزل والي حلب (رائف باشا) سنة (1318) هجريّة وأقتبس منه ما يلي:

"لهذا الوالي في الشهباء آثار حسنة إذ تقدّم في زمنه في العمران كثيراً وقد قاربت نحواً من ثمانين مبنىً وساحة وشارع، والجدول الذي سنذكره دليل على ما قلناه (الجدول يبين المشاريع المنفذة في حلب)، لأن تلك الأعمال التي قام بها المجلس البلدي في مدة ولاية (رائف باشا) وهي أربع سنين ونصف كان له فيها اليد الطولى والهمّة العليا.

كما أن له آثاراً حسنة فإن له أثراً قبيحاً وسنّة سيئة عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة وهو فتح بيوت مخصوصة للفحش في محلّة بَحْسيتا، ثم امتدت إلى محلّة المصابن وبعد أن كانت المومسات قلائل في الشهباء يعددّن بالأصابع أصبحن بفضل اتخاذ هذه الأمكنة الخبيثة يناهز عددهنّ خمسمائة.

وبعد أن كان لا ينغمس في هذه الحمأة ولا يتلطخ في هذه القاذورات إلّا أشخاص قلائل لما يعترض ذلك من الأخطار والمشقات التي ربما تفضي إلى القتل، ولا يقدم على ذلك إلّا من خبثت نفسه وكانت في أحطّ درجات الدناءة وليس فيه مثقال ذرة من المروءة والشهامة والشرف أصبح المختلفون إلى هذه الأماكن مئات من الناس بل ألوفاً.

وفشا أمر الزنى في أبناء الشهباء وما حولها بعد أن كانوا تمثال الفضيلة والعفّة والأخلاق الكريمة وتهافت الشبان في السنين الأخيرة على هذه المواخير لسهولة الوصول إليها غير مبالين بقوله تعالى: (ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً) (الإسراء،32).

وقد فشا فيهم فوق ما يكتسبونه من الإثم وغضب الله تعالى داء الزهري والإفرنكي (الإفرنجي) والتعقيبة، وقلّ منهم السالم منها وتراهم غادين رائحين إلى أبواب الأطباء للتخلص من هذه التهلكة، وهيهات هيهات فقد سبق السيف العزل.

كان الهدف الرئيس من إنشائها حصر عمل المومسات في هذا المجال وتنظيمه منعاً من تواجدهنّ في مختلف الأحياء وفرض رقابة صحية عليهنّ وانقسم الناس حينها بين مؤيد لفكرة حصر الدّعارة في أماكن محدودة ومعارض بشدة للترخيص الرسمي لها".

* * *

بحث في ميدان الصحافة[3]

من أهم الأسباب التي دفعت بالباب العالي في إستانبول إلى إصدار الفرمان السلطاني في عام (1898) والذي سمح بفتح بيوت الفحش على نحو مرخص ورسمي هو توفير الخدمة الجنسيّة المأجورة لأفراد حامياتها العسكريّة المنتشرة في عموم مدن السلطنة.

على الرغم من أنّ العاملات في بيوت الدّعارة المرخصة كنّ يخضعن للمراقبة الصحيّة الدوريّة إلّا أنّ ذلك لم يمنع من تفشي أمراض التعقيبة والزهري وما شابهها على نحو ملحوظ في أبناء الشهباء والمقيمين فيها الجنود منهم والغرباء.

من هنا سارع (الشيخ محمد راغب الطبّاخ) إلى التحذير من خطورة هذه الظاهرة والبحث في حلول واقتراحات تخفف من وطأتها ونتائجها المدمّرة، فقد نشرت جريدة الاتحاد العثماني التي تصدر في بيروت لصاحبها (أحمد حسن طبارة) في عددها رقم (80) المؤرخ في (1908/01/26) اقتراحاً جديداً للمراسل (الشيخ محمد راغب الطبّاخ) حول الخدمة العسكريّة.

وقد جاء على النحو التالي: يقدم المراسل (الشيخ محمد راغب الطبّاخ) باسمه الصريح اقتراحه الذي ينشره على صفحات الاتحاد الأغر ويؤمل أن يحيط علماً مبعوثونا الكرام ونوابنا الفخام ليطرحوه على بساط البحث والمذاكرة ويتخذوه قانوناً معمولاً بمقتضاه إذا رأوه موافقاً للمصلحة العامة والأمّة.

الاقتراح:

أن يعطى الجنود في أوقات السلم على طريق المناوبة عند انتهاء السنة الأولى إذناً بزيارة أهلهم مدة شهرين أسوة بإخوانهم من طلبة المدارس في دار السعادة إن كانت مدة الخدمة العسكرية سنتين وشهرين آخرين عند انتهاء السنة الثانية إن كانت المدة ثلاث سنين.

الفوائد:

أولاً - الاقتصاديّة:

1 – تخفيف وطأة المصاريف على الحكومة.

2- مساعدة الجندي لأهله بتعاطيه لمهنته وصنعته على أمور معاشهم لأنه راعيهم وهو المسؤول عنهم.

ثانياً - الاجتماعيّة:

1- إن الجندي يؤدي في هذه المدة الواجب عليه من صلة الرحم وتفقد شؤون أهله وأقاربه وأحبابه.

2- إذا كان ذا زوجة فبالضرورة أن يعاشر زوجته، وينجم عن ذلك إحصان نفسه وحفظها من الوقوع فيما لا يرضي الله تعالى ووقايتها من الأمراض، كما يساعد على زيادة النسل الموجب لنمو الرعيّة، ثم يروي قصة أمير المؤمنين (عمر بن الخطّاب) مع المرأة وصبرها على زوجها مدة أربعة أشهر.

وأخيراً فإنه يرجو من كل مَنْ له رأي في هذا الموضوع أن ينشره على صفحات الجرائد والله الموفق.

* * *

أشير هنا إلى أنه قبل فتح هذه الأماكن بصفة رسمية كانت الفحشاء والخمارات منتشرة بصورة كبيرة في منطقة كرم الكسمة المجاورة (لقشلة الترك - ثكنة هنانو حالياً)[4] وهذا ما جعلها ملجأً لرواد المتعة والماجنين من شباب المدينة يمارسون الجنس المأجور في البيوت السريّة المنتشرة بكثافة فيها على أنّ أغلب المترددين على تلك المواخير كانوا من أفراد الجنود العثمانيين المقيمين في الثكنة القريبة منها.

من ناحية أخرى أرى أنه جدير بالملاحظة أنّ المؤرخين الشيخ (محمد راغب الطّبّاخ)، والشيخ (كامل الغَزّي) لم يذكرا ولم يبحثا في كتابيهما عن حلب وتاريخها الأسباب والظروف التي دفعت بالسلطنة العثمانيّة إلى السماح بفتح دور بغاء عمومية في أرجاء البلاد المنضوية

تحت تاجها ولم يتطرقا في معرض حديثهما عن تلك الأماكن إلى الفتاوى الشرعية التي اعتمد عليها رجال الدين في (إستانبول) حين أصدروا هذا المرسوم الذي أقر في زمن السلطان (عبد الحميد) في العام (1898) إذ كما هو معروف تاريخياً كان سلاطين الدولة العثمانيّة ولا سيما السلطان (عبد الحميد الثاني) يحرصون عند إصدار القوانين والفرمانات الاستناد على الشريعة الإسلاميّة والاعتماد عليها في كل صغيرة وكبيرة فضلاً عن الحصول على موافقة شيخ الإسلام وعلى الفتاوى المستقاة من المذهب الحنفي تحديداً.

* * *

من جهته يرجع المحامي والباحث (علاء السيد) في مقالته القيمة التي كتبها عن (بحسيتا.. حكاية بيوت المتعة في حلب) في عام (2008) أن يكون هذا القانون قد أُقرّ بالاعتماد على الفتوى الشرعيّة التي صدرت عن الإمام (أبو حنيفة) والمعروفة (بدرء الحد عن واطئ المستأجرة) الذي وجدها في كتاب (بداية المجتهد ونهاية المقتصد) للإمام القاضي (ابن رشد القرطبي) في باب حدّ الزنى.

* * *

لا أدعي في هذا الكتاب الإحاطة المطلقة لبدايات تلك المرحلة إذ لم تتوافر لي المعلومات الموثقة عن تاريخ افتتاح أول بيت دعارة ومن هو صاحبه؟ وفي أي دار بالتحديد؟ ولكنني أستطيع التخمين والتقدير أنّ الأمور جرت على النحو التالي:

ما إن أصدر مجلس ولاية حلب قانون ترخيص بيوت الفحش حتى سارع أحد العاملين في هذه المهنة إلى استغلال المرسوم الجديد وافتتح محلاً مرخصاً لممارسة الدّعارة والجنس المأجور في محلّة بَحْسيتا. ولا أدري لِمَ تمّ اختيار هذا الحي بالذات فقد كان في تلك الفترة حيّاً معروفاً آهلاً بالسكان ويشتهر بسوقه العامر بالبضائع

والمأكولات، ومن ثم تتالى ترخيص وافتتاح بيوت البغاء في المحلّة نفسها حتى أصبح سوقاً للمتعة وذلك تماشياً مع ثقافة أهالي حلب وتقاليدهم إذ ما إن يؤسّس شخص ما محلًا ما ليمارس فيه صنعة ما ويصيب فيه شيئاً من النجاح حتى تراهم يتسابقون إلى فتح محلّات مماثلة في الشارع نفسه إلى أن تغدو المنطقة في زمن قصير سوقاً مختصّاً بهذه الصنعة وهذا غالباً ما حدث في محلّة بَحْسيتا، وهذه رؤية لا يسعني الجزم بها على نحو قاطع على أنني لا أرى في الأخذ بها من بأس.

***

المرحلة الثانية:

مرحلة الانتداب الفرنسي الذي استمر من عام (1920) إلى عام (1946).

يبدو أنّ السلطات الفرنسية لم تجد حرجاً من انتشار تلك الأماكن في المدينة حين سيطرت على مقاليد الحكم فيها بل أعتقد أنّ سياستها شجّعت وساعدت على ازدهار ونمو قطاع الدّعارة في المدينة فقد تكاثرت في العشرينيّات والثلاثينيّات من القرن الماضي بيوت الفحش والفجور على نحو ملحوظ في محلّة بَحْسيتا وحي المصابن وأطراف منطقة (باب الفرج)[5]، فقد تواتر لي أنه كان يوجد في الشارع الصغير المجاور (لدار الكتب الوطنيّة)[6] محل مرخص لممارسة الدّعارة، وحدثني شخص عاصر تلك المرحلة عن مكان آخر يقع في نهاية شارع بَحْسيتا الرئيس باتجاه منطقة البندرة تديره مدام (لوسي) وقد نالت منشأتها المرخّصة شهرة واسعة لما كانت تزخر به مخادعها بالفتيات ذوات الأعمار الصغيرة والأجساد الفاتنة.

والجدير بالذكر أنّ الرقابة الصحيّة كانت مفروضة على نحو صارم في تلك الأماكن إذ لا بدّ لمن يعملن في هذه المهنة أن يحصلن على ترخيص شخصي من السلطات المحليّة وبطاقة تُسجل فيها زياراتهنّ الدوريّة إلى المراكز الصحيّة الخاصة بهنّ، فضلاً عن أنه كان يتوجب على كل زبون الخضوع لفحص طبي سريع قبل الدخول إلى الفتاة المستأجرة.

على الرغم من بدائيّة الاختبار وبساطته فإنه كان ناجعاً إلى حدّ بعيد إذ كان من مهام الشخص المسؤول عن حراسة بيت البغاء المرخص ولا أعرف على وجه الدقة إن كان هذا الرجل عنصر أمن رسمياً أو أنه موظف مدني خاص فقد جرت العادة أن يبادر إلى الكشف على طالب المتعة بالضغط على عضوه بإصبعيه السبابة والوسطى فإذا نَزّ منه نتيجة العصر سائل قيحيّ فهذا دليل على إصابته بمرض معد كالسفلس أو الزهري أو التعقيبة التي كانت منتشرة على نطاق واسع في تلك الفترة بين جمهور المترددين على بيوت المتعة، وبتلك الطريقة البسيطة والسريعة إما أن يسمح للزبون بالعبور أو أن يردّه على عقبيه خائباً ساخطاً.

كما أنه ازداد في تلك الفترة عدد المرابع الليلية والملاهي والمراقص الراقية منها والمبتذل وقد حدثني معمر واكب تلك الحقبة عن كازينو النجمة الذي كان يقبع في الشارع الواصل بين (منطقة العبارة)[7] و(شارع القوتلي)[8] وكانت تديره (مدام لوسيك) باقتدار وحنكة مشهودتين إذ كان مرقصها مختصاً بتقديم البرامج الفنيّة والتابلوهات الجريئة والمتميّزة التي دأبت على عرضها الفرق الأجنبيّة المعروفة ممّا جعله مقصداً لعليّة القوم من السوريين والفرنسيين على حد سواء.

بديعة مصابني

إنّ حياة الفنانة المشهورة (بديعة مصابني) وسيرتها تنطويان على كثير من المنعطفات والمفاصل الغامضة فقد تحدثت بعض المصادر عن نشأتها في بلدة شتورة اللبنانيّة إذ تعرضت للاغتصاب من أحد أبناء بلدتها وهي في سنّ صغيرة فتوفي والدها على إثر تلك الواقعة الأليمة مما دفعها إلى الرحيل مع والدتها وأخوتها إلى أمريكا الجنوبيّة هرباً من الفضيحة التي لحقت بها وأقامت هناك مع أسرتها مدة تتراوح بين سبع إلى ثماني سنوات درست خلالها في مدرسة تديرها راهبات تعلمت فيها ضروب الرقص والغناء والتمثيل.

ثم تقول المصادر نفسها إنها عادت إلى بلدتها وقد امتلكت الخبرة والجمال مما جعل الناس ينسون حادثة الاغتصاب التي تعرّضت لها وقد ظهرت مواهبها الفنيّة المتنوعة في تلك الفترة على نحو جعلها تحترف العمل الفني إذ إنها مارست مهنة الرقص والغناء في أهم المسارح والكازينوهات المشهورة في أغلب مدن بلاد الشام إلى أن استقر بها المقام في حلب.

ونستكمل حكايتها من مصادر أخرى:

إنّ إحدى الفتيات نالت شهرة واسعة في نهاية العقد الأول من القرن العشرين اسمها (بديعة)، جاءت إلى حلب وهي في ريعان شبابها وكانت تتمتع بجمال لافت وقدرات فنيّة متعددة أتاحت لها الغناء والرقص على خشبة مسرح مقهى السلام المجاور للمنزول وفي ملاهي ومرابع ليليّة أخرى كانت تزخر بها المدينة في تلك الحقبة، وتشير تلك المصادر إلى أنّ بديعة مارست بالإضافة إلى الغناء مهنة الدّعارة على نحو متقطع في بيوت العهر المرخّصة في تلك المنطقة، وحملت لاحقاً

لقباً مشتقّاً من (حيّ المصابن)[9] القريب من محلّة بَحْسيتا وغدت معروفة باسم (بديعة مصابني) إذ يبدو أنها أقامت مدة من الزمن في أحد منازل هذه المنطقة وقد رافقها هذا اللقب على مدى سنوات مسيرتها الفنيّة الطويلة ولازمها أيضاً بعد اعتزالها.

نتابع قصتها وفق المصادر الأولى:

رحلت إلى مصر في عام (1912) وانطلقت في أجوائها الرّحبة كالحصان الجامح متسلّحة بخبرتها التي اكتسبتها من خلال عملها في بلاد الشام وبدأت رحلة المجد في أحضان نواديها الليليّة ومسارحها الشهيرة وأصبحت نجماً متألّقاً في سماء القاهرة الفنيّة، وأنشأت خلال فترة قصيرة كازينو خاصّاً بها عُرف باسم كازينو (بديعة مصابني)، تخرّج من عباءته العديد من الراقصات إضافة إلى المطربات والمطربين الذين كان لهم أثرٌ واضحٌ في الحياة الفنيّة والحركة السينمائيّة في مصر وقد تناول كثير من الأعمال الفنيّة قصة حياتها غير أنها لم تتعرض لمطلع شبابها إذ كانت ترصد مسيرتها بدءاً من لحظة وصولها إلى مصر، منها فيلم عربي يحمل اسمها (بديعة مصابني) أدّت دور البطولة فيه النجمة المعروفة (نادية لطفي) تحدث عن حياتها وأمجادها الفنيّة.

في أوائل الخمسينيّات من القرن العشرين عادت إلى بلدتها الوادعة شتورة حيث فتحت مخزناً صغيراً لبيع الأجبان والألبان ومشتقاتهما يقع بالقرب من مزرعة تملكها على الطريق العام المتجه نحو مدينة دمشق.

أخيراً لا يسعني أن أجزم على نحو قاطع أنّ (بديعة مصابني) مارست مهنة الدّعارة في أثناء وجودها في حلب ولكن دون أدنى ريب

يمكننا القول إنها مكثت في حلب لفترة من الزمن قبل رحيلها إلى مصر قدّمت خلالها ألوان الفنون فوق مسارح نواديها الليليّة جَنتْ على إثرها مالاً وفيراً وقد ذكرت بديعة هذه المعلومات في المقابلة التلفزيونيّة التي أجرتها في الستينيّات من القرن العشرين، والطريف أنّ بديعة بدت في قمة حيوتها في هذا الحوار إذ أنها غنّت ورقصت بخطوات رشيقة رغم عمرها المديد.

توفيت (بديعة مصابني) في عام (1974) عن عمر يناهز (82) عاماً بعد رحلة فنيّة طويلة حافلة بالنجاحات والأحداث الغامضة.

* * *

المرحلة الثالثة:

مرحلة الاستقلال ونشوء الدولة السورية وتحديداً من عام (1946) حين بادرت الحكومة الجديدة إلى إلغاء تراخيص بيوت الفحش الممنوحة في الحقب السابقة وحصر ممارسة تلك المهنة في مكان واحد وبات تابعاً إدارياً لبلدية المدينة أسوة بباقي الدوائر المحليّة والمؤسّسات الاجتماعيّة الأخرى. وهو المكان نفسه الذي انتهى إليه في عام (1974) إذ أُحيل في تلك السنة المحل العمومي إلى التقاعد وأزيلت أغلب مبانيه في نطاق مشروع تحسين منطقة باب الفرج، وعلى إثر ذلك تفرقت المومسات في مسالك مختلفة فمنهنّ من تُبن، وأخريات تابعن العمل في المهنة وفق أسس ومعايير جديدة كما سنرى لاحقاً. ومن المفيد أن نميّز ونقسم هذه المرحلة إلى فترتين:

1 - الفترة الأولى:

تعدّ من الفترات المهمة في تاريخه فقد جرت فيها عمليات شرعنة هذا القطاع حين بادرت الإدارة إلى تحصينه اجتماعيّاً وأخلاقيّاً

وصحيّاً وأمنيّاً من خلال إقرار سلسلة من القوانين المحليّة أطّرت العمل فيه وجعلت له تقاليد وأعرافاً خاصّة به، وتمتد هذه الفترة من عام (1946) إلى عام (1961).

2 – الفترة الثانية:

دخل المحل العمومي في شيخوخة مبكرة إثر صدور مرسوم إغلاق بيوت الدعارة المرخصة في الجمهورية العربيّة المتحدة، واستمرت تلك الفترة من عام (1961) إلى عام (1974) حين خيّم الظلام عليه وتناثرت أغلب العاهرات الهرمات في أحياء المدينة كافة وتحول أغلبهنّ إلى بترونات وأنشأن مؤسّساتهن السريّة الخاصة.

* * *

أخيراً سأكتفي بما قدمته عن المرحلتين الأولى والثانية من عمر المحل العمومي في هذا الفصل نظراً لعدم توافر معلومات مهمة مكتوبة كانت أو شفوية تثري الكلام عنهما في حين سوف أركز البحث والتدقيق على المرحلة الثالثة، ولعل هذا يكون وافياً ومفيداً في فهم وتحليل هذه الظاهرة عبر مراحلها الثلاث.

* * *

1. خير الدين الأسدي: ولد في أحد أحياء حلب العريقة -حي الجلوم- في عام (1900) وتوفي في حلب عام (1971).

انصرف منذ فتائه إلى العلم فتلقى تعليمه في مكتب شمس المعارف والمدرسة العثمانيّة على يد جلة من علماء حلب في ذلك العصر منهم الشيخ بشير الغَزْي والشيخ محمد الزرقا.

أدركته حرفة التعليم فعمل مدرّساً في المدرسة الشرقيّة والمدرسة الفاروقيّة وفي غيرهما وظلّ ملازماً لها حتى آخر حياته.

كان به ميل إلى المسرح والتمثيل ففي عام (1923) أخرج لطلابه مسرحيّة (الاستقلال) وفي ليلة العرض انفجرت كمية من البارود في يده اليسرى مما أدّى إلى بتر كفه كما كان شديد الولع بالآثار القديمة واقتناء التحف الفنيّة النادرة انتخب عام (1950) أميناً للسر في جمعية العاديات.

أما مؤلفاته فهي:

1- البيان والبديع، طبع عام (1936).

2- عروج أبي العلاء، طبع عام (1940).

3- قواعد الكتابة العربيّة، طبع عام (1941).

4- حلب الجانب اللغوي من الكلمة، طبع عام (1951).

5- أغاني القبة، طبع عام (1951).

6- يا ليل، طبع عام (1957).

7- موسوعة حلب المقارنة، طبع عام (1987).

8- أحياء حلب وأسواقها، طبع عام (1990).

أمّا المخطوطات فهي:

1- الله.

2- أيس وليس.

3- الألف.

4- الموسوعة في النحو.

5- تاريخ القلم العربي.

2. بحث في ميدان الصحافة: زودني بمخطوطة هذا المقال المؤرخ والباحث الأستاذ يحيى الطبّاخ ابن الشيخ محمد راغب الطبّاخ.

3. رائف باشا: جاء والياً على حلب سنة (1313 هجرية) وظلّ فيها حتى عام (1318 هجرية)، وفي أثناء ولايته تمّ افتتاح جادة

الخندق سنة (1315 هجرية) وبناء ساعة باب الفرج عام (1316 هجرية) كما تمّ أيضاً فتح جادات وساحات عامة عديدة في حلب وإنشاء متنزّهات ومرافق عامة ومدارس.

انظر كتاب إعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء، تأليف الشيخ محمد راغب الطبّاخ، الجزء الثالث، الصفحة (392).

4. ثكنة هنانو - قشلة الترك: تدعى سابقاً الرباط العسكري وحاليّاً ثكنة هنانو وتقع في منطقة الشيخ يبرق وهي هضبة في ظاهر حلب من الجهة الشماليّة الشرقيّة وقد ابتدأ في عمارتها إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا والي مصر حين ملك حلب (من 1248 هجريّة إلى 1257 هجريّة) وقد أمر بإكمال بنائها والي حلب جميل نامق باشا في العام (1297 هجرية) وقد اقتلع لهذه الغاية كثيراً من الأحجار المبلط بها جبل قلعة حلب.

انظر كتاب نهر الذهب في تاريخ حلب، تأليف الشيخ كامل الغَزّي، الجزء الثاني، الصفحة (316).

5. باب الفرج: هو باب غائب عن الوجود ولا يظهر إلّا للقديسين والخطاة وباب الفرج يشكل مع باب الأسدين الضاحك والباكي وباب الحيّات مثلث الأبواب المحيّرة في حلب حيث يقوم كل باب بفك طلاسم ما يليه من حواجز وأقفال وموبقات. وكان باب الفرج أكثر الأبواب حناناً على الغرباء والبدو واليائسين رغم اندثاره واختلاف رجال الآثار فيه. ففي طرفه القريب تقع المكتبة الوطنيّة وفي طرفه الآخر الغريب يتربع بيت الهوى والمتعة الكبير حيث توجد في هذا البيت ربات الحكمة والأجساد اللينة والسيقان المخلعة ممن يطلق عليهنّ لقب بائعات الهوى. وفي طرفه الثالث توجد الدكاكين وخطوات الرجال الحائرين. وكان الليل هو ضمانة سوق المتعة وموضع ريبته

وبريقه واضطراب الناس فيه لذلك يقصده الجائعون والمتحمسون أواخر الليل بعد أن ينفضّ عنه حذر الحذرين.

فقرة من رواية (بلغني أيها الملك الحزين) للأديب (محمد أبو معتوق). صدرت عن دار رياض الريس للكتب والنشر، بيروت عام (2009).

6. دار الكتب الوطنيّة: إحدى أعرق المكتبات العامّة في المشرق العربي، تقع في وسط المدينة، بدأ العمل في عمارتها سنة (1937) واكتمل إنشاؤها سنة (1939) تضم قاعات للمطالعة والمحاضرات ومسرحاً، زارها العديد من أعلام الأدب العربي وعلى رأسهم طه حسين، عباس محمود العقاد، الأخطل الصغير، أمين نخلة، بنت الشاطئ، وغيرهم كثيرون. تحتضن المكتبة أكثر من مائة ألف كتاب يعدّ بعضها من أندر الكتب القديمة وأهمها، وتستقبل المكتبة الباحثين وطلبة الجامعات ورواد الثقافة على مختلف اهتماماتهم وتوجهاتهم.

7. منطقة العبّارة: بُنيت عمارة العبارة بعد الاستقلال ثم أطلق اسمها على المنطقة المحيطة بها الممتدّة بين محلّة العزيزيّة وشارع بارون فيها جامع العبّارة وكانت المنطقة سابقاً مكاناً مخصصاً للمقابر المسيحيّة.

8. شارع القوتلي: وهو شارع يمتد من منطقة باب الفرج حتى حيّ الجميليّة مخترقاً ساحة سعد الله الجابري ويحمل اسم الرئيس السوري الأسبق (شكري القوتلي).

9. حيّ المصابن: سُميت بالمصابن لكثرة ما كان فيها من مصابن حتى إنه كثيراً ما يظهر في أزقتها آبار للزيت فيها عدّة خانات ومساجد ومدارس تابعة لها وفيها سبلان وقساطل وفي الخمسينيّات من القرن

الماضي هُدمت أغلب مباني المحلّة حين شُق الشارع العريض من باب الجنان إلى نزلة السجن ومن حمام التل إلى الجامع الكبير وأنشئت مستديرة السبع بحرات. وعلى إثر ذلك لم يبق من دورها وحوانيتها شيء يذكر.

انظر كتاب أحياء حلب وأسواقها، تأليف خير الدين الأسدي، وتحقيق عبد الفتاح روّاس قلعجي، الصفحة (353).

القسم الثاني

المحل العمومي

الفصل الأول: المحل العمومي

الفصل الثاني: الأركان الأربعة

الفصل الثالث: الجوانب الإنسانيّة

الفصل الرابع: الرقابة الحكوميّة

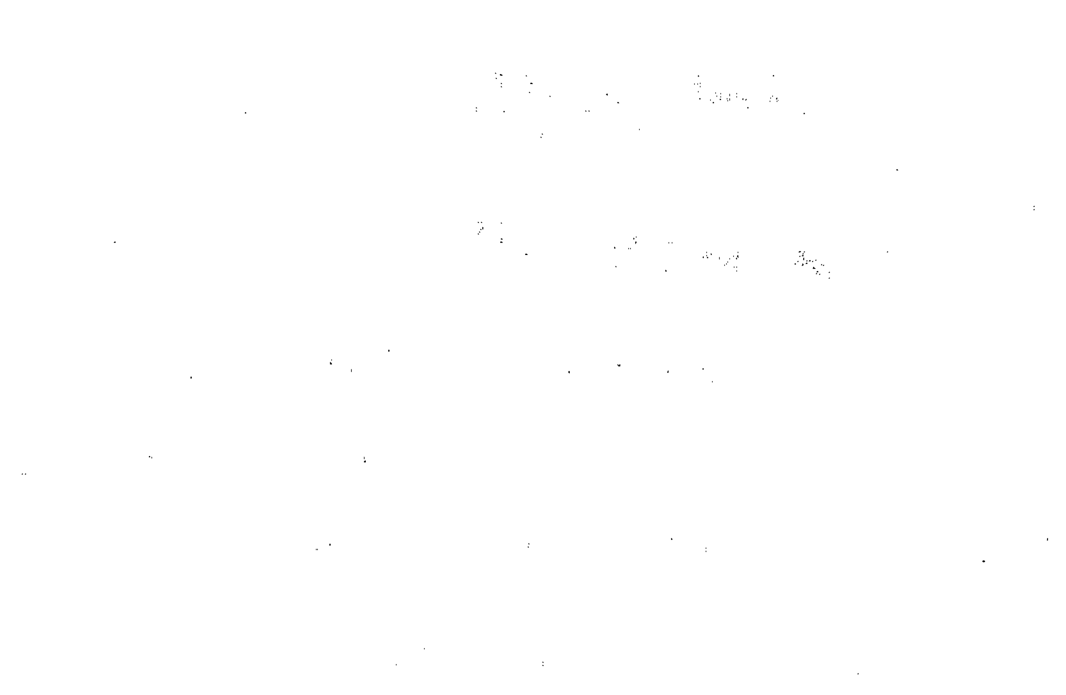
الفصل الخامس: أعجب العجب في طبائع أهل حلب

الفصل السادس: طرائف ومآسٍ من عالم جمهور المترددين على المحل العمومي

الفصل السابع: طرائف ومآسٍ من عالم نزيلات المحل العمومي

الفصل الثامن: نهايات

الفصل التاسع: بَحْسيتا



الفصل الأول



المحل العمومي

تنطوي ثقافة كثير من الناس على معتقدات وأحكام مسبقة تصف أولئك العاملين في المحل العمومي والقاطنين فيه بأنهم قوم غارقون في الملذات والمسرّات، وأنّ لا هدف لهم في الحياة سوى البحث عنها والركض وراء غرائزهم وتعاطي ضروب المنكر والفجور لتحقيق المتعة الخالصة، وأنّ هذا المكان ليس إلّا مرتعاً خصباً للرذيلة ومستنقعاً تتجسد فيه على نحو فظ ألوان المحرّمات والمجون جميعها، على أننا إذا صمتنا قليلاً ورغبنا في الإصغاء جيداً فإن آذاننا دون أدنى ريب لن تلتقط في عتمة الليل سوى هدير الأنّات المشروخة وصدى الآهات المكبوتة وهي تسفح على الوسائد الرطبة.

أطلق أهالي حلب على (المكان الرسمي الوحيد)[1] الذي حُصرت فيه مهنة الدّعارة المرخصة عدّة أسماء منها: دار البغاء، بيوت الدّعارة، المحل العمومي (المنزول)[2]، (الكرخانة)[3]، (شارع 142)[4].

بَحْسيتا، وذلك في نهايات العقد الخامس من القرن الفائت إبّان الاستقلال من الاستعمار الفرنسي الذي رحل نهائياً عن أرض الوطن في (1946/04/17) وتشكّل الدولة السوريّة الحديثة.

يعدّ الشارع الرئيس في حيّ بَحْسيتا آنذاك واحداً من الأسواق العامرة في المدينة إذ كانت تنتشر على جانبيه المحلات التجارية المتنوعة التي يمتلكها ويديرها أشخاص ينتمون إلى شرائح المجتمع الحلبي كله ويمارسون المهن وأنواع التجارة جميعها بما فيها تلك التي تتعلق بالخدمات التي يقدمها المحل العمومي، فضلاً عن أنهم كانوا يتعاملون مع نزيلاته بشكل طبيعي كما لو أنهنّ من الزبائن العاديين.

ظنّي أنّ الأقدار وحدها هي التي جعلت تلك الفئة من أهالي حلب تكسب أرزاقها من العمل في هذا السوق وأغلب الظن أنّ معظمهم ورث دكانه عن أبيه أو جده.

أشير هنا إلى أنّ ثمّة صداقة تربطني بأولاد أحد أولئك الأشخاص وهو رجل فاضل يعيش مع أسرته في أحد منازل (منطقة الجديدة)[5] ويدير محلًّا يقع بجوار بوابة المنزول يبيع فيه بعض المأكولات الشعبيّة لنزيلاته ولأهل السوق والعابرين على حدّ سواء.

كما أخبرني أحد الأصدقاء المقربين عن تاجر آخر يملك دكاناً يقع في الجهة المقابلة للمحل العمومي وهو رجل ملتحٍ تميل طباعه إلى التدين ويقطن في (محلة الجميليّة)[6] في حين كان محله أشبه بمتجر متنوع على أنّ معظم بضائعه كانت تقتنيها نزيلات المحل العمومي إضافة إلى رواده المقبلين عليه ومنها على سبيل المثال: الواقي الذكري والمراهم المتنوعة والمستلزمات النسائيّة وما شابهها.

في منتصف الشارع ثمّة بوابة قديمة لا يتجاوز عرضها المتر الواحد عُلق على ناصيتها لوحةٌ صغيرة كتب عليها الرقم (142) تنفذ منها إلى زقاق عريض نسبياً، تقبع على ضفتيه دور تقليديّة كل دار

مستقلة عن الأخرى كما هي الحال في البيوت العربيّة العتيقة في أحياء حلب القديمة الأخرى التي تقع داخل الأسوار، ولكل منها مدخل خاص وبوابة خشبيّة يتوسطها في جزئها العلوي كوّة صغيرة لا تتجاوز مساحتها (20 سم×30سم) كان أهل الدار يستخدمونها للتعرف على الطارق قبل أن يفتحوا له البوابة، وهذا سلوك متبع في أغلب دور تلك المنطقة لاسيما بيوت العائلات اليهوديّة منها.

كما يوجد في كل منزل باحة يطلق عليها أرض ديار يتوسطها حوض ماء ونافورة صغيرة وتتوزع على أطرافه غرف المومسات والبترونات ولبعض الدور غرف علويّة تسمى (مربّع)[7] تستخدم سكناً لهنّ أيضاً.

يتفرع من هذا الزقاق عدّة زواريب صغيرة تضم دوراً عربية مشابهة، وقد عمدت السلطات المحليّة إبان الاستقلال كما أشرنا سابقاً إلى إغلاق نهاياتها على نحو بات فيه المحل العمومي منطقة معزولة عن محيطه، وبعد البوابة الوحيدة مباشرة تستقبلك غرفة مستقلة خصصت لرجال الشرطة الذين تقع على عواتقهم مسؤولية الحفاظ على الأمن والانضباط داخل المحل العمومي.

* * *

شارع 142

حدثني أحد الأصدقاء عن ذكرياته عندما كان فتى.

كثيراً ما تدغدغ عواطفنا تلك الحكايات المختبئة في ثنايا الذاكرة حين تومض بغتة في صدورنا بين الفينة والأخرى.

لا ريب في أنّ أبهجها على الإطلاق كانت تلك المتعلقة بأيام العيد ولا سيما حينما تكون مقترنة بشيء من شغب المراهقة وطيشها اللذيذ، فمن منّا لم يقبل أيدي والديْه في صباح ذاك اليوم منتظراً العيديّة إذ تغدو سخيّة مع إفراطنا في منحهم الحنان

والإجلال في أثناء تقبيلهم ومعانقتهم، وما إن نحظى بها حتى ننطلق مع أترابنا للبحث عن المرح واللهو والبهجة في دور السينما والمقاهي وفي أماكن أخرى.

روى لي صاحبي تفاصيل إحدى غزواته التي قام بها برفقة أصدقائه إلى شارع رقم (142) في أحد أيام العيد.

على أنّ صديقي وأصحابه لم يكن هدفهم الأساس من زيارة هذا المكان قطف ألوان المتعة فقط بل تمضية الوقت باللهو والتسكع في زواريبه ودوره العربيّة العتيقة هي الغاية المرجوّة الأولى إذ كانوا يمكثون حيناً من الزمن في كل دارة يدلفون إليها ويعمدون فيه إلى مشاكسة المومسات ومداعبتهنّ وتبادل النكات الساخنة معهنّ، وقد أخبرني أنّ التجول بين غرفهنّ وملاطفتهنّ كان يبعث وافر المسرّة في صدورهم وهو خير ألف مرة من بلوغ المتعة القصوى في مخادعهنّ.

في يوم من أيام العيد ضاقت إحدى البترونات ذرعاً بهم بعد أن أمضوا نصف ساعة أو ما يزيد على ملاغاة ومداعبة فتياتها دون الإقدام على أي فعلٍ ذي فائدة فأقبلت عليهم بوجه لا يخلو من استنكار وتجهم قائلة:

"يا شباب.. الله يرضى عليكم.. لا تضيعوا أوقاتنا وأوقاتكم.. فالدنيا أعياد.. وأيام جبر.. ما بدنا...".

* * *

عالم قائم بذاته

كما رأينا فقد بات المحل العمومي أمراً واقعاً وأمست السلطات المتعاقبة تتعاطى معه ضمن هذا الإطار، طوراً تحاول الاستفادة من آثاره الإيجابيّة وتارة أخرى تسعى إلى تقليص آثاره السلبيّة، ورغم أنه مكان تتصارع فيه الأفكار والنقائض والغرائب ويتعارك الضد مع

ضد ويتنافس القرين مع صورته فإنّ ذلك لم يمنع أنّ ثمّة قوانين وأعرافاً باتت مع مرور الأيام والسنين تتحكم في سيرورة هذه المنشأة الاجتماعيّة الحيويّة.

من أهمها أنّ الفتيات لا يعملن في هذا المنزول قسراً فإمّا أن يفدن إليه طوعاً والإقامة في أحد منازله وغالباً ما يكون هذا السلوك نابعاً من رغبة شخصيّة كي يتسنى لهنّ ممارسة المهنة بحريّة، ومعظم أفراد هذه الفئة قدمن من خارج المدينة ومنهنّ جئن من خارج حدود الدولة.

أو في حال ضبطهنّ متلبسات بجرم الدّعارة وهنّ يمارسنه للمرة الثالثة إذ كان القانون يمنحهنّ فرصتين للتوبة وتقتصر الإجراءات في المرتين الأولى والثانية على تحرير محضر بحقهنّ فقط دون اتخاذ أي إجراء آخر فقد دأبت معظم الفتيات على الادّعاء بأنه قد غُرّر بهنّ وأجبرنّ على فعل الفاحشة دون معرفة ورضا منهنّ.

على أنه لا يعني إصرارهنّ على بيع أجسادهنّ مرّة بعد مرّة سوى أنهنّ بتن راغبات في احتراف مهنة البغاء والفجور حينئذ ينبغي لهنّ ممارستها في المكان المخصص لها وجرت العادة ألّا تودع الفتاة إثر إدانتها لثالث مرّة بجرم الدّعارة في المحل العمومي الموجود في مدينتها بل تُرحّل للإقامة والعمل في واحد آخر عادة ما يقع في بلدة بعيدة عن مسقط رأسها تفادياً لردات فعل أهلها التي غالباً ما تكون قاسية وشرسة وتؤدي في معظم الحالات إلى قتل الفتاة وإن كان بعد حين، على أنّ هذه الجرائم أمست تدرج كما تنص القوانين المعمول بها آنذاك ضمن ما يعرف بجرائم الشرف التي كثيراً ما تصدر أحكامها مخففة، وتختلط حينذاك المشاعر والأفكار إذ لا

يمكن تحديد من هو الجاني ومن يكون الضحيّة على وجه الدقة دون الإحساس بالإجحاف أو الندم.

يضم المنزول عشرات الدّاعرات من مختلف الأعمار والجنسيّات وأغلبهنّ قدمن من خارج المدينة وحين تمسي البغيُ نزيلةً في المحل العمومي تمنح رخصة رسمية لمزاولة المهنة وتخصص لها غرفة مستقلة في إحدى الدور تمارس عملها بين جدرانها بأريحيّة وحرفيّة تامتين، وتحت نظر ونصائح المشرفة على هذه الدارة وهي الأمّاية (البترونة) وعادة ما تكون بغيّاً سابقاً انفض عنها المريدون بعد أن بارت بضاعتها وذبلت.

يوجد حمام سوق بجوار المنزول اسمه (حمام الهنا) خصصَ صاحبه أوقات محددة لاستقبال نزيلات المحل العمومي، وهذا الإجراء يؤكد لنا أنّ هذا المكان بات جزءاً من النسيج الاجتماعي للمنطقة إذ لا يجد أهالي السوق على مختلف مشاربهم وفئاتهم أدنى غضاضة في التعامل مع نزيلاته على نحو طبيعي أسوة بالزبائن العاديين الذين يؤمون هذه المحلّة لأسباب وحاجات شتّى.

كما أنه يوجد في الجهة المقابلة لمدخل الكرخانة مسرح كبير نُقش على لوحة حجرية موجودة في واجهته عبارة (مقهى السلام)، وقد درجت العادة أن يسمح لمن تمتلك موهبة فنية من المومسات المقيمات في المحل العمومي أن تقدم نمرة على خشبته الشهيرة ويطلق عليها آنئذ لقب (خوجة). على أنه ليس بالضرورة أن تكون الخوجات اللواتي يقدمن عروضاً فنيّة على خشبة هذا المسرح أو فوق أي مسرح آخر يمارسن الدّعارة.

على إثر وصول التيار الكهربائي إلى منطقة بحسيتا وُضع في أرض ديار بعض بيوت المحل العمومي آلة كهربائية كانت شديدة الانتشار في ذاك العصر تسمى (بيك آب) لإذاعة الأغاني والتسجيلات المشهورة

آنذاك فيضع من يرغب من الزبائن ربع ليرة سوريّة في حصالة ملحقة بتلك الآلة ثم يختار (الأسطوانة) التي تحمل إحدى الأغنيات المفضلة لديه أو المحبّبة للمومسات اللاتي يتردّد عليهن وذلك يعدّ ضرباً من المفاخرة ونوعاً من فنون التقرب إليهنّ.

تلتزم نزيلات المحل العمومي جميعهنّ بقوانينه الصارمة إذ تمنح المومس يوم إجازة واحداً في الأسبوع، والطريف أنهنّ كنّ يرتدين حين يخرجن من المحل العمومي لباساً محتشماً ويمتنعن عن التزين بالأحمر والأخضر بصورة فاضحة فتراهنّ يتوارين في الأسواق بين العامة ويبدين كما لو أنهنّ سيدات من عامة الشعب.

فيما عدا ذلك لم يكن يسمح لهنّ بالخروج منه إلّا في حالات خاصة جداً على أنّ أغلبهنّ يتحررّن منه بصورة نهائية في مناسبتين فقط لا ثالثة لهما: الأولى حين تنتقل إحداهنّ إلى العالم الآخر، والثانية عندما تنتقل إلى منزل زوجها، نعم إلى منزل زوجها!!.

لا عجب في ذلك فهناك كثير من الروايات تتحدث عن أشخاص وقعوا في غرام إحداهنّ فتزوج منها بعد إعلان توبتها، وتزف من المنزول على زغاريد زميلاتها السابقات، وكثيرات منهنّ تابعن حياتهنّ باستقامة وشرف وأنجبن أولاداً وتوفين مزنرات بأكفان طاهرة.

على أنه ينبغي على زوج المومس المعتزلة أن يوقع إقراراً يتعهد فيه بعدم ردّها إلى المنزول تحت أيّ ظرف من الظروف إذ لا يمكن أن يغدو الزواج بمومس نوعاً من التحايل على القانون والالتفاف على فحواه، لئلّا يقدم الناس على إخراج المومسات من المحل العمومي ويعيدونهنّ إليه حين يسأمون من معاشرتهنّ.

يحدث أحياناً أن يتمكن أحد الزبائن من إغواء إحدى المومسات ويقنعها بالهرب معه، فتقيم عنده بالسر أو بالعلن ولكن سرعان ما تكتشف شرطة الأخلاقيّة مكان إقامتها فتعيدها إلى المحل العمومي.

الصاحب

في البداية كان لكل مومس تعمل في المحل العمومي ما يعرف بالصاحب، وهو الشخص الذي يهيمن عليها ويتولى حمايتها، عادة ما يأتي آخر الليل حين ينقطع سيل الزبائن لاستلام الغلّة، وإذا شعر بأنها تكذب عليه أو شكّ بكلامها يلجأ إلى (الشمّاطة) وهي المنشفة التي تستعملها المومس بعد كل اتصال جنسي، وغالباً ما يبيت عندها إذا لم يكن ثمّة اتفاق مع زبون على النوم عندها حتى الصباح، ومن العجيب نرى أنّ صاحب المومس لا يرضى بهذا الاتفاق فحسب بل تجده مسروراً إزاء هذا النوع من الصفقات إذ لا شكّ في أنّ مردودها سيكون مرتفعاً في هذه الحال، وفي معظم الأحيان يحضر الصاحب بعد منتصف الليل من (البريّة)[8] وقد نال الخدر من رأسه إثر تناوله شتى أنواع المسكرات، فهو عادة ما يقضي فترة المساء متسكعاً بين حانات منطقة باب الفرج القريبة من حي بَحْسيتا حيث تنتشر الملاهي والمراقص وأسباب اللهو والمجون بأنواعها.

السيفونجي

مع مرور الزمن تراجعت سطوة الصاحب على المومس ولم يعد مسيطراً عليها إذ يبدو أنّ ثمّة تنظيماً داخلياً ساد في المحل العمومي، فالبترونة باتت مشرفة على عمل المومسات وتوجيههن وإدارة شؤون المنزل المسؤولة عنه، وظهر آنذاك ما يسمى بالقوّاد وهو الشخص الذي يقوم على خدمتهنّ وحمايتهنّ داخل البيوت.

على أنّ ذلك لم يحل دون أن تقع إحدى الموسات في هوى أحد الزبائن فتصاحبه فيتردد عليها مجاناً وعلى الأغلب بعد منتصف الليل وتنفق عليه إذا شاء وهو بمنزلة الخليل والحبيب وليس السيد المهيمن عليها وعلى مقدّراتها.

غالباً ما يتحول هذا الرجل إلى شخص منبوذ من أهله ومحتقر من قبل مجتمعه، وتبادر المومس آنئذ إلى تعويض القوّادة من مالها الخاص عن الوقت الذي تمضيه بصحبته.

الطريف في الأمر أنّ لهذه العلاقة خصائص وتقاليد تنطوي على كثير من الغرابة إذ تقيم المومس حفلاً يسمى (البالو) تدعو إليه صديقاتها من المومسات ويدعو هو أيضاً بعضاً من أصحابه لحضور هذه المناسبة كما لو أنهما يسعيان إلى إشهار هذه العلاقة. حينئذ يُحرّم على أصدقائه الاقتراب منها وفي الوقت نفسه يُحرّم عليه الدخول إلى زميلاتها ويطلق عليه آنذاك لقب (السيفونجي).

الحبيب

غير أنّ عدداً لا بأس به من الذين يقدمون على مصاحبة إحدى نزيلات المحل العمومي يتعففون عن الاقتراب من مالهنّ بل تجدهم يغدقون عليهنّ بالهدايا ولا يزورونهنّ إلّا محمّلين بألوان الطعام والشراب إذ كانوا يعدّون أنفهسم من المحظيين المحظوظين فقد وقع اختيار المومسات عليهم دون سواهم من بين مئات بل قل من آلاف المترددين على المنزول.

في هذا السياق حدثني أحد الأصدقاء عن واحد من شباب حيّه القديم ينتمي إلى أسرة أرمنيّة معروفة ويتمتع بسعة في الجسم وبفيض من الرجولة والجاذبيّة ما انفكّ يتباهى بعلاقته بإحدى

فتيات المحل العمومي ويتغنى بها، وكثيراً ما كان يصرّح علانية بالتردد عليها وأنه أصبح يطارحها الغرام دون أن ينقدها قرشاً واحداً فضلاً عن أنها باتت تعزف عن استقبال الزبائن بمجرد ظهوره في مخدعها.

الأسعار

يفتح المنزول أبوابه للزائرين في الساعة الثامنة صباحاً ويغلقها في الساعة الثانية عشرة ليلاً، ويسمح لرواده - وهم من الذكور غير المتزوجين - بالدخول إليه والفرجة مجاناً.

هناك أسعار محدّدة لا تقبل المساومة مقابل تقديم الخدمة الجنسية للزبائن إذ تتراوح الأجور في الأربعينيّات من القرن الفائت بين ليرة ونصف وخمس ليرات ونصف (الليرة الذهبيّة آنذاك كانت تساوي هذا المبلغ) ويحدد الأجر تبعاً لعوامل عدّة منها: الشكل والعمر والخبرة.

ازدادت التسعيرة مع مرور الزمن فقد أصبحت في الخمسينيّات تتأرجح ما بين ليرتين ونصف وسبع ليرات ونصف.

أمّا في أواخر عهده أي في ستينيّات وسبعينيّات القرن العشرين فقد ارتفعت أسعار الخدمة الجنسيّة أسوة بارتفاع أسعار وأجور المهن الأخرى إذ باتت تتراوح بين ثلاث ليرات ونصف وإحدى عشرة ليرة ونصف، فالبضاعة الطازجة التي تودع حين وصولها في أوّل دار على اليمين بعد مفرزة الأمن مباشرة تكون معروضة بإحدى عشرة ليرة ونصف وينخفض هذا السعر كلما أوغلنا في السير بالأزقة المتشعبة الداخليّة إلى تسع ليرات ونصف ثم إلى سبع ليرات ونصف إلى أن يصبح ثلاث ليرات ونصف فقط إذ يبدو أنّ الأجر يتراجع طرداً مع تقدم عمر البغي.

قد يصاب المتابع بالحيرة فلِمَ أسعار الخدمة دائماً تكون مبلغاً صحيحاً مضافاً إليه نصف ليرة، على أنّ الدهش سرعان ما يتبدد

حين تتوضح الرؤية إذ تذهب نصف الليرة إلى القوّاد وهو الشخص المسؤول عن خدمة البغايا وحمايتهنّ ويوجد واحد أو أكثر في كل دار، وغالباً ما ينتمي أولئك الرجال إلى فئة المنبوذين من المجتمع وبعضهم يحمل لقب أصحاب السوابق.

طرزانة

لا يخلو هذا المكان من الشخصيات الطريفة فثمّة داعرة عتيقة تستقبلك في نهاية أحد الدروب وتباغتك بالسعر البخس الذي تطلبه مقابل بضاعتها - وهو ليرة سوريّة ونصف فقط - ونالت شهرة من طراز فريد إذ يحق للمقبل عليها استخدامها من الوجهين، إلى ذلك كانت هذه العاهرة تجاهر بذلك علناً أمام الزبائن من خلال أهزوجة ظريفة...، وتعدّ هذه المومس من أقدم وأشهر نزيلات المحل العمومي وتدعى (طرزانة)، وهي تعمل على حسابها إذ لم تعد بحاجة إلى خدمات (القواد) بعد تاريخها المتخم بالإنجازات المهنيّة.

الجديدة

حين يذاع في المدينة خبر مفاده أنّ واحدة جديدة قد جاءت إلى المنزول يتقاطر طالبو المتعة على أوّل دارة بعد مفرزة الأمن التي باتت مقصداً لأصحاب الجيوب العامرة فهي تحتضن دائماً أجمل وأصغر الفتيات إذ تراهم يصطفون على الدرج المؤدي إلى غرفة (الجديدة) مسلحين بأوهام المتعة، ولا يعدم الأمر من فائدة فهذا الانتظار الهادئ والمنظم لا شكّ في أنه يزرع في صدورهم قدراً من الصبر والأناة ففي بعض الأحيان يستغرق انتظارهم عدة ساعات دون أن تلمح في وجوههم أدنى إشارة تذمر أو تململ.

* * *

1. المكان الرسمي الوحيد: الحي الذي تقطنه بائعات الهوى مثل متاهة. النسوة فيها مثل أحجيات تعلن أسرارها والدروب ضيّقة ومتقاطعة والرجال في المتاهة جائعون ومسرعون والعيون شكاكة ومتقلبة. بعض الأبواب عليها ازدحام شديد ربما بسبب وصول نماذج جديدة وفتيات ناهدات وبعض الأبواب خاوية رغم وجود النسوة المترقبات.

فقرة من رواية (بلغني أيها الملك الحزين)، للأديب (محمد أبو معتوق). صدرت عن دار رياض الريس للكتب والنشر، بيروت عام (2009).

2. المنزول: كان يوجد في بداية الزقاق الذي أقيم فيه المحل العمومي مضافة للعموم وكان يطلق عليها الأهالي اسم المنزول وبعد أن تحول هذا الزقاق إلى دار للبغاء ارتبط اسم المنزول عند الحلبيين ببيوت الدّعارة.

انظر موسوعة حلب (المقارنة)، تأليف خير الدين الأسدي، وتحقيق محمد كمال، الجزء السابع، الصفحة (212).

3. الكرخانة: بالتركيّة بيت العمل وقد درجت هذه التسمية على دور الفحش العموميّة في حلب لمّا سمحت الحكومة العثمانيّة بفتحها درءاً للأمراض وحفظاً للأهالي من التعدّيات وجمعوها عل الكرخانات. والنسبة إليه عندهم: الكَرْخنجي، والكرخانه جي أو الكرخانجي. وبنوا منها الفعل: كرخن والمكرخن والكرخنة. وبنوا منها: الأكرخن لاسم التفضيل. وبنوا منها: تكرخن للمطاوعة.

انظر المصدر السابق، المجلد السادس، الصفحة (336).

4. شارع 142: هذا الرقم مكتوب على لوحة صغيرة معلّقة على مدخل المحل العمومي فارتبط هذا الرقم بين الحلبين كرمز آخر لهذا المكان.

5. محلة الجديدة: إحدى أحياء حلب القديمة تأسست في مطلع القرن الخامس عشر الميلادي خارج الأسوار.

انظر كتاب أحياء حلب وأسواقها، تأليف خير الدين الأسدي، وتحقيق عبد الفتاح روّاس قلعه جي، الصفحة (158).

6. حيّ الجميليّة: من أحياء حلب الحديثة غرب المدينة اسمه في سجلات الحكومة (سليميّة) نسبة إلى سليم أفندي بن السلطان عبد الحميد خان الثاني وأوّل بناء أُسّس في هذه المحلّة المكتب السلطاني ثم بنت البلديّة قصراً للوالي جميل باشا ومنه استمد الحيّ اسمه وكان بناء القصر في سنة (1300 هجريّة). يقع الحيّ حالياً في مركز المدينة تقريباً كان يعدّ من أرقى أحياء المدينة حتى السبعينيّات من القرن الماضي أصبح الآن حيّاً تجاريّاً.

انظر المصدر السابق الصفحة (173).

7. المربّع: وهي الغرفة العالية الكبيرة أخذت من الربعة عند البدو ومن تهكمات أهل حلب (أم القنباز المرقّع صارلا قاعة ومربّع).

8. البريّة: البرّي: عربية: المنسوب إلى البرّ.

البرّية: من العربيّة: البرّية: الصحراء. والجمع: البراري والبرّيات.

ويقول أهالي حلب: منّا نسهر في البريّة كنوع من التورية ويريدون: ساحة باب الفرج وما يحيط بها من شوارع فرعيّة حيث الملاهي والخمارات والمراقص وما إليها وكان الشباب كل مسا يلبسون أجمل ما عندهم من قنابيز وكبابيد وشالات وصرمايات ويبرمون شواربهم وإذا لهم خال فتلوه وما ينسوا يتسلحوا بخنجر أو بموس أو بشبريّة،

ووين؟ عالبرّية منأ نسمع لسرينا ومنّا نسكر ومنّا نرو عالسيمنا (كما كانوا يسمونها) ومنّا ومنّا.. والذي وجّه باب الفرج لهذا هو آل الجابري لأن معظم الحوانيت هناك لهم من النافعيّة وما جاورها وفي هذا ربح لهم صار ذلك بعد أن فتحت جادة الخندق.

والنسبة إلى البرّية: البرّاوي.

من أمثال أهل حلب:

- صفي النيّة ونام بالبرّية.
- عطي الصبي للصبية ورميهم بالبرّية.
- نام بالبرّية ولا تنام جنب طاقة مهْويّة.

من استعارات أهل حلب:

- سمّوا الغائط شمعدان البرّية.

انظر موسوعة حلب (المقارنة)، تأليف خير الدين الأسدي، وتحقيق محمد كمال، المجلد الثاني، الصفحة (105).

الفصل الثاني

الأركان الأربعة

المقاعد تحتاج إلى أربعة أرجل كي تتوازن، المباني تحتاج إلى أربعة أعمدة لتغدو مستقرّة. السيارات تحتاج إلى أربع عجلات لتنطلق على الطرقات، البشر يحتاجون إلى أربعة أطراف ليعيشوا على نحو طبيعي، الأوراق، الكتب، الملاعب، المسابح، تحتاج إلى أربعة أضلاع وأربع زوايا، ولولا أركانها الأربعة لما غدت ذات فائدة، وكذلك لا يستقيم الأمر في قطاع الدّعارة إلّا بتضافر جهود الدعائم الأربع وتعاونها إذ لا غنى عن دور البترونة في الإدارة والإشراف، ولا يسعنا استبعاد خدمات القوّاد في الحماية والدعم اللوجستي، ولا شكّ في أنّ تنفيذ العملية يحتاج إلى مكان يحتضن تفاصيلها بشكل آمن ومريح، وأخيراً لا تكتمل الصورة إلّا بجهود المومس التي هي مربط الفرس.

وتتفاوت أهميّة كل من تلك العناصر مع تغير الأزمنة والظروف إذ ترتفع مكانة أحدهم على حساب مكانة الآخرين، ثم لا تلبث أن تتراجع فتتقدم أهميّة عنصر آخر إلّا أنه في نهاية المطاف لا مناص من

استجابة المكونات الأربعة وتناغمها وتفاعلها لاستمرار ضخ الروح في جسد قطاع الدّعارة.

إلى ذلك سنتناول في البحث والدراسة والتحليل دور كلٍ من الدعائم الأربع وتطوره سلباً أو إيجاباً من خلال تقفي الظروف المحيطة بالمراحل التي مرّ فيها هذا القطاع في القرن العشرين، وسأتحدث أولاً عن أحوالها وخصائصها خلال مسيرة المحل العمومي العامرة.

* * *

الركن الأول: القوّادة

تلفظ في حلب (الكوّادة) وهي مؤنث (الكوّاد) وقد تم تحريفها عن العربيّة (القوّاد) وجمع كوّادة هو كوّادات.

وأطلقوها على التي تسهل الصلة بين الراغب والراغبة بشكل عام، وأسبغ أهالي حلب على هذه السيدة ألقاباً أخرى مثل: (البترونة)[1] (الآمّايّة)[2].

وهي تتربع على رأس هرم شبكات قطاع الدّعارة وتمثل الركن السلطوي والمهيمن على البنية الداخليّة لمكونات هذا القطاع وغالباً ما تكون مومساً سابقة انفض عنها زبائنها بعد أن بارت بضاعتها وأفل وهجها فغدت مشرفة على مجموعة من بائعات الهوى تقودهنّ وتأكل من خيراتهنّ وعرق أجسادهن فتتحول آنذاك إلى واحدة من أولئك اللواتي يلقبن بالقوّادات، إلى ذلك فهن يسلكن هذا الطريق وقد تسلّحن بخبرة واسعة تعينهنّ على إدارة اللعبة وترويج تجارتهنّ واستثمارها على نحو يضمن لهنّ حياة لا سقم فيها ولا كدر.

تتوزع البترونات على دور المحل العمومي كافة ويخصص لهنّ غرف مستقلة أسوة بالمومسات وربما نجد واحدة منهنّ أو أكثر في الدارة الواحدة ويعزى ذلك لعدد المومسات العاملات في كل بيت من البيوت الموجودة في المحل العمومي، ولا شك في أنّ من أهم المواصفات التي تتحلى بها القوّادات اللاتي أصبن نجاحاً في هذه المهنة هي الشدّة والحكمة.

قد يتبادر إلى أذهان البعض أنّ لا عمل للقوّادات سوى إصدار الأوامر والتمتع بمباهج الحياة على أنّ هذه النظرة العابرة ليس لها نصيب من الحقيقة في شيء إذ يقع على عواتقهنّ إدارة دفة القيادة وتوظيف خبراتهنّ في احتضان ورعاية الفتيات الوافدات حديثاً إلى المحل العمومي لا سيما الصغيرات منهنّ وتدريبهنّ على ممارسة الصنعة إذ إنّ شروط اللعبة تختلف إلى حدّ بعيد في الضفة الخارجيّة لأسوار المنزول عن داخلها، إضافة إلى تلقينهنّ النصائح الطبيّة والمهنيّة كيلا يقعن في مطبات لا طائل منها، فضلاً عن مسؤوليتهنّ المباشرة على مقدرات وجزئيات الحياة اليوميّة في البيوت التي يشرفن عليها وفض النزاعات والسيطرة عليها خشية تفاقمها وهنا تبرز مهارتهنّ وحنكتهنّ في حصر المشاكل الطارئة ضمن أضيق الحدود بغية تقليص الخسائر المعنويّة منها والماديّة التي قد تنجم عنها.

إنّ منشأ الخلافات عادة ما يقتصر على أمرين فإمّا أن تكون أسباب الاختلافات خارجيّة أو أنّ أسبابها داخلية، على أنه غالباً ما يكون مصدر المشاكل الخارجيّة هو ما يبدر عن الزبائن قبل تقديم الخدمة أو في أثنائها وربما بعدها فهنّ يتدخلن على نحو حاسم حين يشعرن بأنّ ثمّة خللاً ما قد يتأتّى من سلوك ذاك الزبون أو سواه

وذلك بغية حماية المومس ومنع استغلالها وعدم السماح بهدر الوقت الذي يغدو ثميناً في حالات كثيرة لا سيما في الأعياد والمناسبات والإجازات.

أمّا منشأ الخلافات الداخليّة فهو عادة ما ينجم عن تفاصيل الحياة اليوميّة والعلاقات الطبيعيّة التي تسود بين أطراف العمليّة الثلاثة (القوّادة، القوّاد، المومس) لا سيما تلك التي تسفر عن الحسد والغيرة بين المومسات، وعلى الرغم من أنهنّ يبحرن في قارب واحد فإنّ مجتمعهنّ لا يختلف عن أيّ مجتمع نسائيّ آخر إذ غالباً ما تتحكم في سلوك الأنثى وطباعها رهافة عواطفها وأحاسيسها، على أنّ أكثر ما يثير المشاحنات والمشاكسات اليوميّة في أزقة المحل العمومي هو ما يخص المرأة على نحو مباشر، ومن أهمها العمر والجمال إذ لا يخفى على أحد أنّ هذين العاملين دون سواهما يؤثران بشكل كبير في جذب الزبائن وإغواء رواد المتعة وبالتالي حجم المكسب المالي الذي يجنى من وراء ذلك وهو بيت القصيد.

المثير للاهتمام هذا النظام شبه العائلي الذي يخيم على عموم بيوتات المحل العمومي إذ إنّ رعاية البترونة لفتياتها لا تقتصر على أمور العمل فقط فهي مسؤولة عن إدارة البيت وتسيير شؤونه على نحو منظم ومستقر ويسوده إلى حد ملحوظ نوع من العدل والمساواة، فهي تفرض عليهنّ جميعاً دفع مبلغ من المال وغالباً ما يكون متناسباً مع دخلهنّ إذ إنه يتفاوت بين واحدة وأخرى وذلك لتغطية المصاريف المتنوعة مثل شراء المواد التموينيّة والمحروقات والمواد المنزليّة الأخرى المتنوعة إضافة إلى تسديد فواتير الماء والكهرباء الخاصة بكل بيت، في حين كانت البلديّة تتكفل بدفع فواتير إنارة أزقة المحل العمومي إضافة إلى المصاريف العموميّة الأخرى كالنظافة والصيانة الخارجية والحراسة وما شابه ذلك.

حين يتقدم بهنّ العمر ينقلن إلى منزل قريب يدعى المنزول العتيق حيث يمضين فيه ما تبقى من حياتهنّ في عوز وفاقة شديدين إلّا بما يجود به المحسنون من أهل السوق، ودرجت العادة على أن توهب جثامينهنّ بعد وفاتهنّ إلى مشرحة كليّة الطب إثر استحداث هذا الفرع بجامعة حلب في منتصف الستينيّات من القرن الماضي ليصبحن مادّة حيّة تساعد طلاب الطب في دراساتهم العمليّة، فإن أغلبهنّ لم يكن يعرف لهنّ أهل أو أقارب أو ربما لم يعد أحد من أسرهنّ يعترف بهنّ منذ احترافهنّ تلك المهنة التي ينفر منها جُلّ طبقات المجتمع.

* * *

1. البترونة: وهي القوّادة، أخذت من الإيطالية (padrona) وتعني صاحب بيت أو دكان وتستخدم مؤنثة ويراد بها صاحبة ماخور. انظر موسوعة حلب (المقارنة)، تأليف خير الدين الأسدي، وتحقيق محمد كمال، الجزء الثاني، الصفحة (53).

2. الأمّاية: وهي صفة مشتقة من اسم الأم.

الركن الثاني: المومس

لا يحتاج الأمر إلى كثير من الشرح والتدليل على أنّ البغي هي من أهم الأركان الأربعة في عالم قطاع الدّعارة بل هي أهم الأطراف على الإطلاق إذ لا يمكن أن تكتمل اللعبة إلّا بوجودها على عكس الأركان الثلاثة الأخرى فإنّ غياب أحدها قد يولد خللاً أو نقصاً ما إلّا أنّ ذلك لا يحول دون إتمام عملية الجنس المأجور.

لن أتطرق في هذه الفقرة ولا في أيّ قسم آخر من أقسام هذا الكتاب إلى الأسباب التي دفعت بالمومسات إلى العمل في هذه المهنة وما هي الظروف التي جعلتهنّ يصبحن وقوداً متجدداً في قطار الدّعارة، وعلى الرغم من أنّ هذا الجانب بالغ الأهمية فإنّ الحديث عنه يحتاج إلى دراسات اجتماعيّة مطوّلة وأبحاث نفسيّة وأخلاقيّة معمّقة، وظني أنّ العديد من الخبراء المختصين والعلماء الأكاديميين قد تناولوا هذه الظاهرة الاجتماعيّة المتجددة على نحو موسع ومستفيض.

منذ أن سُمح بفتح بيوت الفحش المرخصة في حلب فإنّ أغلب العاملات فيها وفدن من خارج المدينة ولا يشذّ المحل العمومي عن هذه القاعدة إذ كان يضم عشرات الدّاعرات من مختلف الأعمار والجنسيات وتجد أحياناً بينهنّ زنجيات وأغلب العاملات فيه قدمن أيضاً من خارج المدينة وهذه سنّة اتبعتها السلطات المحليّة كما رأينا سابقاً بغية حماية المومسات من نقمة أقاربهنّ وثأرهم.

إذا انعطفنا نحو أمورهنّ المعيشيّة اليوميّة نجد أنّ العلاقات الاجتماعيّة من وصال وود ونفور داخل المحل العمومي لا تختلف عن مثيلاتها خارجه حيث تنتشر بين جنباته آفات المجتمعات الأنثويّة الأخرى من شلليّة ومناطقيّة وغيرة وحسد وحقد إلخ، على أنّ ذلك لا يمنعنا من الإشارة إلى أنهنّ يعرن الواجبات الاجتماعيّة والعلاقات الإنسانيّة اهتماماً ملحوظاً إذ يتبادلن الزيارات في المناسبات العامة ويبادرن إلى تقديم التهنئة والتبريكات إلى بعضهنّ بعضاً في الأعياد والمناسبات الخاصة. فضلاً عن حرصهنّ على أداء واجب العزاء ولا يتأخرن في إظهار التعاطف وتقديم المساعدة حين وقوع المصائب والملمات، كما يبادرن إلى عيادة المريضات منهنّ.

من المثير أنهنّ يتجهزن لتلك الزيارات كما لو أنهنّ لم يرين بعضهنّ بعضاً منذ فترة طويلة، وتزداد أهمية تلك التحضيرات تبعاً لنوع المناسبة وخصوصيّة العلاقة بين الطرفين إذ تنطوي الاستعدادات في بعض الأحيان على إجراءات استثنائيّة كأن تضع المستضيفة غطاءً غالي الثمن على سريرها أو أن ترتدي ثياباً جديدة وما إلى ذلك من رتوش ولمسات تزيينيّة أنثويّة.

من الأمور الطريفة التي تحدث بين المومسات حين ينشب خلاف ما بين اثنتين منهما هو ما تبوح به إحدى المتخاصمتين بعد انتهاء المشادات والمشاحنات الملتهبة وجنوح النفوس إلى الهدوء، فهي تبادر إلى شرح موقفها من هذا الصراع لصديقاتها المقربات بعد أن ينجحن في فصل طرفيّ النزاع.

وحين تشعر بالتحرّر من توترها وانفعالها تختتم حديثها بنبرة لا تخلو من حسرة وتنهد وانفراج:

- إيش بودنا نقول.. شرموطة وبس!!

أسماء مستعارة

تلجأ معظم العاملات في هذه المهنة إلى حمل أسماء مستعارة وذلك من باب التمويه والحرص إذ جرت العادة أن تتخذ المومسات ألقاباً مستوحاة من وحي المهنة، كما أنّ بعض الفتيات العربيات يجنحن إلى اختيار أسماء أجنبيّة. فلا عجب أن نكتشف بأنّ اسم لورا الحقيقي هو بديعة واسم سعاد الأصلي هو مارلين وهكذا. وتتحاشى أغلبهنّ التحدث بلهجتهنّ المحليّة إذ يعمدن إلى تغييرها واستخدام لهجات محافظات أخرى، ولا يجنين من ليّ ألسنتهنّ سوى تلقي عبارات السخرية من بعضهنّ بعضاً إزاء تحدثهنّ بلهجات هجينة ما أنزل الله بها من سلطان.

إلى ذلك فهنّ لا يصرحن على الإطلاق بجذورهن ومن أيّة مدينة أو بلدة جئن بل على النقيض تماماً، فهنّ يحاولن دائماً التلميح بأنهنّ ينتمين إلى مدينة تبعد كل البعد عن بلدتهنّ الأصليّة، فربما تدعي إحداهنّ بأنها قادمة من مدينة تابعة إلى واحدة من محافظات الجنوب السوري بينما تكون في حقيقة الأمر منحدرة من إحدى المحافظات الساحليّة أو إحدى محافظات الجزيرة السوريّة وقد يكون العكس تماماً وهكذا، وفي بعض الأحايين يروجن بأنهنّ أتين من دولة أخرى وغالباً ما يدّعين أنّ أصولهنّ من لبنان، وإذا استثنينا القادمات من خارج سورية للعمل في المنزول برغبتهنّ وهؤلاء يشكلن نسبة لا بأس بها في مراحل عدّة من عمر المحل العمومي أقول إذا استثنيناهنّ فنرى أنه قلّما نجد واحدة من نزيلاته تصرح علناً باسمها أو أصلها أو نسبها وإلى أيّة منطقة تنتمي دون الشعور بالخوف أو الحرج.

إلى ذلك تميل بعضهنّ إلى استخدام ألقاب الدلع مثل فطوم أو أسوم أو ما شابه. وقد يخترّن صفات مثل السمرة أو البدويّة إلخ كنوع من أنواع التمويه.

لا شكّ في أنّ هذه الإجراءات كلها تصب في خانة الحذر والحرص الشديدين اللذين يعتريان نزيلات المحل العمومي إذ لا بدّ لهنّ في النهاية أن يدخلن هذه المرحلة من جنون الخوف إذا صحّ التعبير كنتيجة طبيعيّة لما يحملن من أعباء نفسيّة تفوق طاقة البشر وأغلبهنّ يعانين من عقدة الاضطهاد ويسعين من خلال تغولهنّ في مهنتهنّ إلى الانتقام ممن اضطهدهنّ.

بهيّة الشقراء

في هذا السياق حدثني أحد الأصدقاء عن قصة طريفة لها علاقة بأسماء المومسات المستعارة فقد دأب على التردّد برفقة صاحبه إلى

المحل العمومي الذي كان في ما يبدو مهووساً بإحدى نزيلاته المعروفة بلقب (بهيّة الشقرا)، وقد اقتصر دور صديقي على الانزواء في إحدى زوايا المحل العمومي المظلمة منتظراً على استحياء عودة صاحبه من مخدع بهيّة التي أدمن التغني بجمالها ودلعها إلى درجة جعلت صديقي يحسد فيها صاحبه على ما رُزق من نِعم على أنه تلقى صفعة خاطفة فجّرت في صدره مزيجاً من الاستنكار والسخط حين وقعت عيناه أول مرّة عليها فقد تبيّن له أنّ بهيّة الشقرا ليس لها من اسمها أدنى نصيب وأنّ لون بشرتها أقرب إلى السمار منه إلى الشقار فضلاً عن أنّ الحسن وشكلها المتواضع يقفان على طرفيّ نقيض، ولكن صدق من قال عين العاشق عمياء.

* * *

الركن الثالث: القوّاد

قلّما نرى شخصاً سويّاً يسعى إلى مزاولة هذه المهنة إذ لا بدّ من أن يكون قد عصفت به ظروف قاهرة دفعته إلى الانخراط في أتون هذا القطاع، وأسوة بالمومسات فإننا لن نتطرق إلى الأسباب التي جعلت القوّاد قواداً بل سنركز على صفاته ودوره والمهام الملقاة على عاتقه.

إذا استثنينا رجال الشرطة وموظفيّ مشفى الزهري الملحق بالمحل العمومي فسوف نرى أن القوّادين هم الفئة الذكوريّة الوحيدة العاملة داخل المحل العمومي على نحو شرعيّ، ويعدّ أفرادها من الأشخاص المنبوذين في المدينة ولا نحتاج إلى كثير من الجهد حتى نلاحظ بأنّ جذورهم موغلة في الطبقات الاجتماعيّة المهمشة التي تعدّ الأوفر جهلاً وفقراً، وغالباً ما يكونون من أصحاب السوابق ومن أولئك

الذين يتعاطون المخدرات وتناول المشروبات الكحوليّة ولعب الميسر، ومن حسن الحظ أنّ عددهم لم يكن كبيراً إذ كان يُكتفى بواحد أو اثنين منهم في كل دار من دور المحل العمومي.

وعلى عكس الاعتقاد السائد بأنّ القوادين يتمتعون بالسلطة والهيمنة على العاملات في المحل العمومي وعلى جمهور المترددين عليه فإنّ مهامهم تقتصر في تلك الفترة على لعب دور رجل المنزل وإن كان ظاهرياً إذ لا تتعدى صلاحياتهم عن تقديم الحماية الأوليّة للعاملات في داره حين يثير أحد الزبائن الشغب والقلاقل والمبادرة إلى تهدئة المشاحنات التي قد تبرز بين المومسات وطالبي المتعة وإبلاغ عناصر الأمن عند تفاقمها، فضلاً عن القيام بالأعمال الخدميّة المتنوعة كشراء المستلزمات اليوميّة للبترونات والمومسات أو تلبية حاجاتهنّ وإنجازها خارج المحل العمومي أو إحضار العمال الفنيين لإصلاح الأعطال المنزليّة الطارئة وما شابه ذلك.

باختصار شديد لا أجد أدنى حرج إن أصبغت عليهم صفة (الخذمتجيّة، وهي جمع خذمتجي)[1] وتطلق هذه الكلمة في لهجة أهل حلب الدارجة على الخادم الذي ليس له عمل سوى تنفيذ الأوامر بمعنى (روح وتعا خود وجيب). والطريف في الأمر أنّ ليس لهم أجر محدد إذ إنّ دخلهم يتأرجح تبعاً لنشاط المومسات فهم يتقاضون جزءاً معلوماً من المبلغ الذي يدفعه الزبون عند إتمام الصفقة كما رأينا سابقاً.

إضافة إلى أنّ العامة من الناس يدعونهم بالعرصات ويبدو أنهم يطلقونها عمداً على هذه الفئة من المجتمع، وهي صفة مذمومة وفيها كثير من الإذلال والإهانة. وهي مستمدّة من الكلمة التركيّة (عارسز) وهذه الأخيرة مشتقة أصلاً من العربيّة:

وتتكون من مقطعين:

الأول: (عار) من العربيّة المتقدمة، والثاني (سز) أداة السلب والنفي باللغة التركيّة أي الشخص الذي لا عار عنده ولا يخجل.

وظني أنّ القواد منها وبنَتْ التركيّة منها (عار سزلك) بمعنى الفَجَارة وعدم الحياء.

من تهكمات أهل حلب: بزقوا في وجه العرسوز.

قالن: هي مطرة تموز.

* * *

1. الخذمتجي: أو الخدمتجي من التركيّة استمدوا من العربيّة خذمت وحرّفوها إلى خذمت دون مسوّغ وألحقوا بها (جي): أداة النسبة التركيّة وأطلقها أهالي حلب على الخادم على أنّ عوامهم يقولون خدمتجي أمّا الخواص منهم فلا يقولونها إلّا بالذال المعجّمة وجمعوها على: الخذمتجيّة.

انظر موسوعة حلب المقارنة، تأليف خير الدين الأسدي، وتحقيق محمد كمال، المجلد الثالث، الصفحة (312).

الركن الرابع: المكان

لقد استعرضنا آنفاً وصفاً شاملاً للمحل العمومي، وتقاليده، وأعرافه، والتفاصيل المتنوعة لطريقة الحياة داخل أزقته، والآن سوف نتطرق إلى المكان الذي تعيش فيه المومس الشطر الأكبر من وقتها، وهو غرفتها الخاصة.

مكان متعدد الأغراض

لمّا كان معظم نزيلات المحل العمومي يدخلّن إليه دون أن يتاح لهنّ الخروج منه إلّا في حالات خاصة جداً فقد اقتضى واقعهنّ أن تكون غرفهنّ ذات استخدام متعدد الأغراض إذ إنهنّ يَحيَيْن فيها تفاصيل معيشتهنّ اليوميّة، فضلاً عن أنّهن يزاولن مهنتهنّ تحت أسقفها التي تبدو واطئة رغم جدرانها العالية فهي لهنّ بمثابة المأوى وميدان العمل في الوقت نفسه.

ها هنا نرى أنّ الأثاث المنزلي يتشابه في أغلب غرف المحل العمومي، ومن الأغراض الرئيسة التي لا مناص من وجودها في الحجر جميعها ألا وهي الأَسرّة وغالباً ما تكون من النوع العريض الذي يتسع لشخصين وهي ثنائيّة الغرض إذ تحتضن أجسادهنّ سواء حين يخلدن إلى النوم بمفردهنّ في ساعات الليل المتأخرة أو عندما يُقدّمن الخدمة المأجورة لزبائنهنّ في أثناء النهار وساعات الليل الأولى، وترى في معظم الغرف أريكة من النوع الخشبي القديم (كرويتة)[1]، وخزانة لحفظ ملابسهنّ ومقتنياتهنّ الخاصة (سَكْرتوْن)[2] وثمّة نوعان منها فإما أن تكون جداريّة أي يكون قد أعدّ لها تجويفٌ في أصل البناء أو من النوع العادي التي يمكن وضعها في أيّ ركن من أركان الحجرة، وقد تحتوي الغرفة على عدد من كراسي الخيزران، وربما تجد طاولة صغيرة بجوار أسرتهنّ (كومودينة)[3]، وحصيرة أو سجادة قديمة تستر عورة أرضيات غرفهنّ الباردة.

كما أنّ بعضهنّ يقتنين شعريّة (نمليّة)[4] لحفظ المأكولات الخاصة بهنّ، في حين يتشاركْن وجباتهنّ الرئيسة مع أترابهنّ المقيمات معهنّ في الدار الواحدة، وإلى ذلك تُنصب المدافئ في الغرف جميعها اتقاء برد الشتاء إذ يغدو قارساً في ليالي حلب الطويلة.

إضافة إلى أنّ بعض الغرف يتم تزويدها بمغاسل صغيرة وحنفيات مياه وغالباً ما تثبت بجوار أبواب الغرف عند العتبة لسهولة تمديد الماء إليها وتصريفه منها.

* * *

1. كرويتة: الكَراويت: أو الكَرويت: من التركيّة: كَرَوَت وكَرَهْوِيت وكَرويت عن اليونانيّة: KRAVVATOS: الفراش السرير وهم استعملوها للمقعد الطويل. وجمعوها على: الكَراويتات أو الكَرويتات. والواحدة عندهم: الكَراويتة. ومن تشبيهاتهم: فلان مصمود ومقنزع عالكَرويتة مثل الخفّ بدكان الإسكافِ.

انظر موسوعة حلب المقارنة، تأليف خير الدين الأسدي، وتحقيق محمد كمال، المجلد السادس، الصفحة (34).

2. سَكُرتوْن: يلفظ أهالي حلب تاءَها طاء ولم نجد لها أصلاً ولعلها مما يلي:

أ- من السُكردان العربيّة: من مفردات العصر العباسي الأخير أصلها: خزانة الشراب من (السُكر) العربيّة بعدها (دان): أداة المكان عُرّبت عن الفارسيّة بهذا اللفظ ثم استعملوها خزانة الثياب وأقرها مجمع دار العلوم بمصر على خزانة الشراب.

ب- السَكْرتون: تحريف صاقلادان التركيّة: بمعنى خزانة الثياب. والسكرتون تستعمل في إستنبول والأناضول ولم أجدها في المعاجم التركيّة ولعلها عاميّة.

ت- تحريف الكلمة الإيطاليّة: SECRETARIO التي تسمى بالفرنسيّة: SECRETAIRE: الموبيليا التي يكتب عليها وتغطى ثم

أطلقت على خزانة الثياب بجامع أن كليهما موبيليا وموبيليا لحفظ شيء. وجمعوا السكرتون على: السكرتونات.

انظر المصدر السابق، المجلد الرابع، الصفحة (368).

3. كومودينة: خزانة صغيرة تُوضع بجوار السرير لحفظ الأشياء الخاصة وعادة ما يوضع فوقها جهاز إضاءة ذو إنارة خافتة.

4. نَمْلِيّة: أطلقوها على الصندوق ذي السطوح المنخلية يحفظ فيه الطعام من النمل والذباب ويغلب أن يسموها: شَعْرِيّة. ووافق مجمع مصر على هذه التسمية التي عدّها عرفاً شائعاً. واسمها الفرنسي GARDE-MANGER.

انظر المصدر السابق، المجلد السابع، الصفحة (324).

* * *

الركن الخامس: الزبون

قد يتساءل المتابع عن الركن الخامس وهو الزبون، ونحن لا نوليه أهميّة خاصة نظراً لأن مواصفاته ورغباته لم ولن تتغير منذ بداية الخليقة وحتى آخر يوم مشهود على هذه الأرض فهو يعد مركز العمليّة بأسرها والهدف والغاية، فجهود الأركان الأربعة تتضافر وتتفاعل وتتناغم للنهوض بهذا القطاع تلبية لرغبات طلاب المتعة المأجورة وشهواتهم وذلك على مدى الأزمان والعصور جميعها، لذا لن نتناول الركن الخامس بالدراسة والتحليل إلّا في حدود تماسه مع الأركان الأربعة الأخرى، في حين سنرى لاحقاً التحولات الكبيرة التي طرأت على مهام وأدوار كلٍ من البترونة والمومس والقواد والمكان الحاضن لتنفيذ عمليّة الجنس المأجور إثر إغلاق المحل

العمومي عام (1974) وانتقال المهنة من القطاع العام إلى القطاع الخاص إذ سنتعرض بالدراسة والبحث لتلك المرحلة في القسم الثالث من هذا الكتاب.

* * *

الصفقة المباشرة

الآن بعد أن استعرضنا مهام أطراف المهنة وصفاتهم كافة سنرى كيف تتم طقوس الصفقة وجزئياتها داخل أزقة المحل العمومي إذ ما إن يتوافر قليل من المال وكثير من الرغبة حتى ترى نفراً غير قليل من أهالي حلب الذكور يتوجهون إلى المحل العمومي.

وأكثر يسراً من الوصول إليه هو سهولة تخطي بوابته المشرعة بالمجان لجميع الذكور الحلبيين منهم ولزائري المدينة من مختلف المناطق السوريّة الأخرى إذ إنّ الشرطين الوحيدين اللذين ينبغي أن يتوافرا بالضيف كي يتاح له العبور دون أيّة عوائق هما ألّا يكون قاصراً و لا واحداً من فئة المتزوجين.

في الأحوال جميعها ما إن تطأ قدما المرء أرض المحل العمومي حتى يغدو كائناً معرضاً للمضي إلى ما هو أبعد من الفرجة فتراه يتجول في أزقته بحريّة وأمان ويتسكع بين أجساد البغايا شبه العاريات فقد جرت العادة أن تجتمع المومسات والبترونات في غرفة موجودة عند مدخل الدارة التي يعيشون فيها أو في باحة أرض الديار، وتُقدم الغانيات اللعوب على إبراز مفاتنهنّ وإتيان بعض الحركات المثيرة لإغراء الزبائن حين يمرون بأماكن تجمعهنّ، ومن لا ترغب منهنّ بالعمل لأيّ سبب من الأسباب تخلد إلى حجرتها وما دلالة بابها المغلق

سوى أنها غير مستعدة في تلك الساعة لممارسة مهنتها، وفي بعض الأحيان تجلس المومس في غرفتها وبابها مفتوح وهذه إشارة إلى أنها جاهزة لاستقبال طالبيّ المتعة.

غالباً ما تبادر البترونة باستقبال الزبائن والاتفاق معهم على المومس التي يرغبون في معاشرتها فتقوم بمناداتها أو تنادي عليهنّ دون تعيين إذ إنّ أغلب المومسات إن لم يكن جميعهنّ يحملن أسماء مستعارة.

وترى العجب العجاب إزاء أمزجة المترددين على نزيلات المحل العمومي فإنّ مقاييس الجمال والرغبة عند البشر لا ميزان لها وهي متفاوتة بين شخص وآخر فمنهم من يهوى التقلب بين مخادع المومسات في كل مرة يزور فيها المحل العمومي وآخرون يطيب لهم الركون إلى واحدة بعينها متسلحين بهواجس وخيالات صنعوها بأوهام منسوجة من خيوط غفلتهم وسذاجتهم فهم يقنعون أنفسهم بأنهم مفضَلون عند هذه المومس أو تلك ولا ريب في أنها تحيطهم بمعزّة وشغف خاصّين دون سواهم من الزبائن، وفي حقيقة الأمر جميعهم عند المومسات سواء إذ إنهنّ متخرجات من مدرسة واحدة تدربّن فيها على فنون منح الشعور بالمتعة لضيوفهنّ كافة عبر قيامهنّ بسلسلة من الحركات المفتعلة والتأوهات المصطنعة.

تبدأ الصفقة حين يستقر مزاج الزبون على إحداهنّ ولا تستغرق المداولات وقتاً طويلاً فأسعار معاشرة المومسات باتت محدّدة ومعروفة ولا تقبل مزيداً من الجدل والنقاشات وقد تتدخل في بعض الأحيان البترونة أو القوادة إذا شعرا بأنّ الزبون يسعى إلى التسلية ولا يتحلى بالجديّة الكافية، أمّا إذا حزم الضيف أمره في المضي فيما يسرّهما فيبادران إلى الترحيب به، وما إن يشوم الزبون بتسديد ثمن

العبور حتى تسارع المومس إلى اصطحابه إلى غرفتها ثم تغلق الباب خلفها بإحكام بغية منح ضيفها الإحساس بالراحة والخصوصيّة.

وبمجرد أن تنفرد به تصفعه بجرعة إثارة مباغتة حين تبادر إلى خلع ملابسها دفعة واحدة كما لو أنها تصب زيت الشهوة على جمر غرائزه المتقدة بيد أنها لا تسمح له بالاقتراب منها ومعاشرتها إلّا بعد أن يقوم بإجراءات الوقاية الأوليّة إذ تحضّه على تنظيف قضيبه باستخدام طاسة نحاسيّة صغيرة ووعاءين كبيرين أحدهما فارغ والآخر مليء بالماء الممزوج بالمطهرات، وجرت العادة أن يوضع الماء فوق المدفأة في الشتاء لئلّا ينفر الزبائن من برودته، ويوضع على البلاط في إحدى زوايا الغرفة في أيام الصيف إذ لم تكن الحمامات متوافرة آنذاك داخل حجر البيوت العربيّة التقليديّة.

تعمد معظم المومسات إلى استخدام دهن القطن على نحو خفيّ لتسهيل عمليّة المباشرة وتسريع بلوغ الذروة إذ يقمن بهذه الحيلة بطريقة يحفّها كثير من المهارة والخبرة خشية إفساد أمزجة ضيوفهنّ التي غالباً ما تكون متقلبة.

على هذه الصورة تنتهي الصفقة على نحو سريع ومفيد للطرفين إذ لا تتجاوز مدة تنفيذ العمليّة منذ دخول الزبون إلى مخدع المومس حتى خروجه أكثر من عشر دقائق، أمّا إذا رغب الضيف في المكوث عندها فترة أطول فيتوجب عليه طلب فنجان قهوة يدفع ثمنه ليرة سوريّة واحدة، وتعدّ هذا القيمة مرتفعة نوعاً ما فهي لم تكن تبلغ في أرقى مقاهي المدينة آنذاك أكثر من نصف ليرة سوريّة.

تلتزم معظم المومسات بالتعليمات والنصائح الطبيّة إذ يبادرن إلى استخدام المطهرات والغسول إثر فراغهنّ من أداء واجبهنّ ولا ينسين الطلب من زبائنهنّ اتباع السلوك نفسه قبل ارتداء ملابسهم.

أشير أخيراً إلى أنّ القوّاد يحصل على حصته من الصفقة وهي مبلغ نصف ليرة سوريّة كما وضحنا سابقاً، على حين تتقاسم البغيّ مع البترونة باقي المبلغ وتتأرجح حصة كل منهما تبعاً لأعراف وتقاليد لم أعثر على معلومات توثقها وإن كانت روايات شفويّة.

* * *

الفصل الثالث

الجوانب الإنسانيّة

على غير ما يظن الكثيرون فإن زوايا المحل العمومي وجنباته تزخر بالمواقف الإنسانيّة وتحفل بالمشاعر الرقيقة وتجنح في مناسبات عدّة إلى مخافة الله وتلجأ في أغلب الأحيان إلى الروحانيّات والغيبيّات رغم الأفعال والممارسات الموصوفة باللّاأخلاقية التي تطغى على كواليس المحل العمومي والطابع الإباحي الذي يوصم به قطاع ترويج الدّعارة وتسهيلها على وجه العموم.

كثيراً ما تحدثت الأخبار عن هؤلاء النسوة وعن حكاياتهنّ التي تناولت سلوكهنّ الذي ارتقى في بعض الأحايين إلى مراتب الفضيلة والإحسان على نحو قد لا نجد له نظيراً عند نفر لا بأس به من النساء اللاتي يدّعين التقى والشرف والعفّة.

على أنّ عدداً منهنّ وقع في مطبات حرجة ومواقف صعبة وتعرض للنصب والاحتيال إذ غالباً ما كان يوجد في حياتهنّ بعض الأشرار

الذين دأبوا على استغلال طيبتهنّ والتلاعب بعواطفهنّ المهمّشة وعلى اقتناص ما كانت تجود به نوازعهنّ الإنسانيّة المتجذّرة في نفوسهنّ.

لعل الروايات التي سنتعرف عليها في هذا الفصل تكشف الرغبات الكامنة لدى بعض العاملات في هذا القطاع في مواجهة الإساءة بالإحسان على نحو عفويّ ودون دراية أو تخطيط منهنّ إذ يبدو أنّ هذا السلوك الفطري يجعلهنّ أكثر توازناً وراحة على المستويين النفسيّ والعاطفيّ.

* * *

كلمة شرف

من تلك الحكايات العجيبة قصة السيدة التي أعطت كلمة شرف ولم تتراجع عنها رغم أنها لم تكن لتلام لو أنها نقضت ما اتفقت عليه من عهود.

روى لي أحد الأصدقاء هذه الحكاية التي جرت أحداثها في ثلاثينيّات أو ربما في أربعينيّات القرن الفائت نقلاً عن أحد أبطالها، ولئن صحتْ مجريات روايته العجيبة فإنّ كثيراً من المفاهيم السائدة ينبغي لنا تأمّلها قبل أن نضعها في خانة المسلّمات، ولولا ثقتي الكبيرة بمحدثي لما تجرأت على تدوينها إذ يغلف تفاصيلها كثير من الغرابة والدهشة وتبدو كما لو أنها حكاية مفبركة ومن صنع شخص يتمتع بخيال خصب لا يُنتج سوى الخرافات.

تقول الحكاية: إنّ رجلاً ينتمي إلى أسرة حلبيّة عريقة غدا في ذاك العصر شخصاً معروفاً ومحط ثقة مشهودة لما نال من شهرة واسعة في عالم بيع وشراء العقارات، وهذا ما دفع واحدة من العاملات في قطاع الجنس المأجور إلى الاستعانة به لمساعدتها في شراء منزل خاص بها تتخذه مأوىً لجسدها ومستقراً له بعد أن يخبو وهجُه وتبور بضاعتُه إذ إنها حققت من خلال عملها في هذه المهنة ثروة لا بأس بها

في حين كانت مؤمنة في الوقت نفسه بأنّ القدر وحده هو الذي دفعها إلى ممارسة هذه الصنعة. ولا تعدو حرفتها تلك عن كونها مصدراً لكسب الرزق ليس إلّا، مثل أيّة حرفة أخرى.

وفعلاً سرعان ما وجد لها سكناً مناسباً وعلى الفور بادرت إلى دفع عددٍ من الليرات الذهبيّة كعربون إثر توقيع عقد الشراء الذي نصّ على أن تكون قيمة المنزل كاملة بالنقد البراق.

على أنه قبل حلول موعد استلام المنزل وتسديد المبلغ المتبقي من قيمته صدر عن السلطات الفرنسيّة الحاكمة في سوريّة آنذاك مرسوم جديد حُصِرتْ بموجبه عملية بيع وشراء العقارات بالعملة الورقيّة فقط.

ومن باب حرصه عليها بادر الوسيط إلى عرض رأيه إزاء المتغيّرات الطارئة فقد أخبرها بأنّ القانون الجديد يتيح لها توفير مبلغ جيد من المال إذ لم تعد مضطرة إلى تسديد ما تبقى من ثمن المنزل إلى البائع ذهباً.

وغالباً ما تثير مثل تلك المفاجآت السرور والطمع في نفوس البشر، ولعل ذلك يبدو جليّاً عند الأشرار أكثر منه عند الأخيار.

إلّا أنّ هذه السيدة وعلى الرغم من طبيعة نشاطها المهني فإنها رفضت الفكرة رفضاً قاطعاً وعدّت ذلك غشّاً بواحاً وتحايلاً على الشخص الذي اشترت منه المنزل وأخبرته بأنها ملتزمة بما جاء في العقد معتبرة توقيعها عليه بمنزلة كلمة شرف لا تقوى على التنصل منها ولا تجرؤ على تغييرها.

لم تنفع محاولات الرجل كلها في ثنيها عن قرارها إذ ختمت حوارها معه قائلة:

- هل بوسعك أنت، والمندوب السامي الفرنسي أن تُخرجا قدميّ من النار حين أنزل في قبري؟

المثير للاهتمام ما أضافه صاحبي عن هذا الشخص إذ إنّ الرجل بات لاحقاً واحداً من كبار رجال الأعمال في المدينة غير أنّ بعض العبرات كادت تغلب سنواته السبعين حين روى لصديقي حكاية تلك السيدة، فقد كان يذكرها بولع وشغف شديدين رغم مضي أكثر من أربعين عاماً على مجريات تلك الحادثة.

* * *

حلف اليمين

روى أحد المحامين المتقاعدين قصة غريبة عن مومس كانت تُعرف بخوفها الشديد من حلف اليمين – سواء كان يميناً صادقاً أو يميناً كاذباً – فهي لا تجرؤ على حلف اليمين على الإطلاق.

لمّا كان هذا الأمر معروفاً عنها في محيطها فقد استغله رجل محتال من المترددين على المحل العمومي في إقامة دعوى ضدها زعم فيها أنها استدانت منه مائة ليرة سوري ولم ترجعها له، حين أنكرت الفتاة ما رميت به من ادّعاء طلب منها الشخص المحتال أن تحلف أمام القاضي أنها لم تقترض منه فرفضت دون تردد، فقام القاضي بإلزامها بدفع المبلغ لصاحب الدعوى وانتهى الأمر عند هذا الحد.

غير أنّ جشع الرجل النصاب دفعه إلى الادّعاء عليها مرّة أخرى، وكرّر ما فعله أوّل مرة إذ طلب منها أن تحلف اليمين أمام القاضي معتقداً أنّ خطته الماكرة ستنجح ثانية دون أدنى ريب.

أمام هذا الظلم البواح نصحها بعض الأشخاص أن تشرح للقاضي حقيقة خوفها من حلف اليمين.

اقتنع القاضي بحجّتها بعد أن تبين الأمر وتحقق من أنّ الرجل المدّعي ليس إلّا واحداً من محترفيّ النصب والاحتيال، فألزمه بإعادة المبلغ القديم إلى الفتاة المسكينة وهدّده بأن يأمر بحبسه في حال إقدامه على تكرار مثل تلك الأفعال.

* * *

بركات الشيخ إبراهيم

دون سابق إنذار ساد كساد مفاجئ في أرجاء المحل العمومي، وإزاء ذلك انحسر نشاط المومسات وتضاءلت مداخيلهنّ فهيمنت عليهنّ مشاعر الإحباط والحيرة.

تضاربت الآراء حول هذه الحال التي لم تعد تسر صديقاً ولا تغيظ عدواً إذ عزاها بعضهنّ إلى عزوف الشباب عن ارتكاب المعاصي إثر موجة دينيّة طارئة، وأخريات أرجعن الأمر إلى شحّ في الأرزاق اجتاح المدينة على نحو كبير، ونفر آخر رأى أنّ سوء الطالع هو السبب الأساس وراء تلك الأزمة المتنامية.

على إثر ذلك توجهت ثلاث فتيات سرّاً إلى صومعة الشيخ (إبراهيم) آملات أن يجدّن عنده الفرج والخلاص نظراً لما تتمتع به سمعته من شهرة واسعة في عالم الدجل والشعوذة، ولا عجب في ذلك إذ ما كانت تؤمن به النسوة من أعراف وموروثات شعبيّة خارج أسوار المحل العمومي كان ينسحب على نزيلاته بل ربما نجدهنّ أحوج من غيرهنّ في اللجوء إلى الأمور الغيبيّة واتباع العلوم الروحيّة وذلك كنوع من التعويض وسلوك يسعيْنَ من خلاله اكتساب شيء من الراحة والتوازن النفسي.

ها هنا نرى أنه عندما يصمت معظم رجال الدين ويأنفون من ملامسة المحظورات المجتمعيّة والخوض في تفاصيلها الحيويّة الطبيعيّة تعلو أصوات السحرة والمشعوذين.

ظنّي أنّ الصفة التي تسبق اسم الشيخ (إبراهيم) ليست سوى لقب أطلقه عليه مريدوه من الناس البسطاء إذ لم يكن يمتلك أدنى حظٍّ من العلوم الدينيّة بل يبدو لي أنه كان شخصاً يتقن صنعته ويتحلى بنصيب كبير من الدهاء والحنكة ويتمتع بفراسة لا تخيب إذ سرعان ما خرجت المريدات الثلاث من داره وقد انفرجت أساريرهنّ إثر حصولهنّ على حُجُب ممهورة بختمه الشخصيّ.

الطريف في الأمر أنّ أشغالهنّ تحسنت على نحو ملحوظ في الأيام اللاحقة، ولعل هذا حدث مصادفة فإن ثمّة مناسبات تزدهر فيها الأعمال داخل المحل العمومي بصورة تلقائيّة نظراً لزيادة وتيرة توافد الناس إليه وذلك في أيام الأعياد والإجازات ومواسم الحصاد وما شابهها، أو يبدو أنه هكذا خُيل إليهنّ فبثثّن الشائعات ليثبتّن روايتهنّ.

أثار هذا الموضوع اللّغط والحسد في محيطهنّ فاستغلته إحداهنّ على نحو حاذق وغدت وكيلة أعمال معتمدة للشيخ (إبراهيم) داخل المنزول.

وكاد مردود مهنتها الجديدة يطغى على حرفتها الأصليّة إذ لم تعد تملك الوقت الكافي لاستقبال معظم زبائنها فقد ساهم نشاطها وذكاؤها في انتشار حجبه المباركة بين أزقته وبفضل هذا التواصل الاجتماعي المرن نرى أنّ الخير عمّ الأطراف جميعها.

* * *

كاترينا

لا يخلو تاريخ المنزول من القصص التي تدعو إلى التأمل ومراجعة الأحكام الخشبيّة السائدة ومنها قصة الفتاة (كاترينا) اليونانيّة التي عاشت وعملت فيه ردحاً من الزمن.

في يوم من الأيام بادر أحد الأشرار إلى قطع يدها لسرقة سوارها الذهبي إثر عدم تمكنه من نزعه من معصمها رغم أنها أنست له وجعلته صاحباً لها ففقدت وعيها بعد أن نزفت دماً كثيراً ونقلت على وجه السرعة إلى المشفى لإسعافها فسارعت الفتيات جميعهنّ في بادرة إنسانيّة فريدة إلى التوقف عن العمل وإغلاق المحل العمومي بصورة شبه كاملة والتوجه نحو المشفى للتبرع بالدم والاطمئنان على زميلتهنّ (كاترينا).

فيما بعد اقترحت إحداهنّ وتدعى (حميدة) إقامة مولد على نيّة شفائها وبالفعل أُحضر عدّة قراء مكفوفين من ساحة المسجد الأموي الكبير، ووضعت الفتيات المسلمات منهنّ والمسيحيات الحجاب على رؤوسهنّ في أثناء قراءة المولد ولكن الموت كان أقرب إلى (كاترينا).

من الأمور الطريفة التي تروى عن المومسات أنّ بعضهنّ كنّ يصمن ويصلين في شهر رمضان ويبادرن إلى توزيع الصدقات ويمتنعن عن مزاولة المهنة حتى يثبت أول أيام العيد فيفطرن حينئذ على الأشياء كلها.

* * *

استغلال

ادّعى أحد الشبان حبه لإحدى فتيات المنزول واتفق معها على التوبة والزواج على أن تبادر إلى شراء منزل من مالها الخاص ليكون عشاً زوجياً لهما.

اصطدمت الفتاة التائبة بامتناع أصحاب العقارات عن بيعها منزلاً إذ كانت تواجه بالرفض حين يطّلعون على طبيعة عملها. ومن باب درء الشبهات عنها اضطرت إلى توكيل الرجل الذي أحبته ووثقت به للقيام بهذه المهمة حيث لا يوجد في هذه الحال أيّ عائق يحول دون موافقتهم على بيعه المنزل الذي أعجبهما وتسجيله باسمه.

وفعلاً قام الحبيب المزعوم بعملية الشراء وقيّد ملكية المنزل باسمه في حين سارعت حبيبته بفرشه وتأثيثه من مالها الخاص أيضاً. وما إن انتهت من تجهيزه حتى لجأ عشيقها إلى تغيير قفل الباب ثم تزوج بامرأة أخرى وأسكنها فيه.

فما كان من العشيقة المغدورة إلّا أن توجهت إلى القضاء لعرض مشكلتها آملةً باسترداد مالها من الرجل الذي وثقت به إلّا أنّ أغلب الناس وقفوا بصفه ضدّها رافضين مساعدتها لاسترجاع حقها.

حين وصلت الدعوى لقاضٍ عُرف بالنزاهة والشرف حاول الكثيرون استمالة رأيه لمصلحة الشاب ضد الفتاة المدّعية إذ اعتقدوا أنّ حجّتهم مقنعة. فالفتاة ليست سوى مومس وأنّ مالها يعدّ مالاً حراماً وهو ناجم عن ممارستها لمهنة الدّعارة مباركين في الوقت نفسه استغلال الشاب لها وسلبها مالها.

غير أنّ القاضي لم يستجب لرغباتهم وأجبر الشاب على إعادة المنزل للفتاة بعد أن تأكد من صدق روايتها.

ويذكر الكثيرون ممن كانوا موجودين في قاعة المحكمة لحظة نطق القاضي بالحكم فقد ارتمت المسكينة على الأرض بحركة لا إراديّة وراحت تقبلها بين يدي القاضي رافعة كفّها نحو السماء جاهرة بالدّعاء له غير مصدقة أنّ العدل والإنصاف قد جنحا إليها.

* * *

القتل بدافع الشرف

روى هذه القصة الغريبة قاض متقاعد عن فتاة كانت تعمل في المحل العمومي بمعرفة أسرتها إذ كان أخوها يزورها بين الفينة والأخرى للحصول على المال، على أنّ دوام الحال من المحال فقد تراجع دخلها كثيراً مع مرور الزمن وانفضاض المريدين من حولها إلى الحدّ الذي لم تعد قادرة فيه على مدّ أخيها بالمال الذي اعتاد استجراره منها طيلة عشر سنوات ونيف، إلى أن توقفت نهائيّاً عن دفع النقود مما أشعل الغيظ في رأسه فبادر إلى قتلها انتقاماً من سلوكها الجديد.

كان جوهر المرافعة التي تقدّم بها محامي الجاني أمام المحكمة هو أنّ الجريمة وقعت بدافع الشرف، على إثر ذلك قضت محكمة الجنايات بإسقاط العقوبة عن الأخ بأكثريّة مستشارين في مواجهة المستشار الثالث وهو القاضي الذي روى هذه الحكاية فقد رفض أن تعدّ هذه الجريمة على أنها انتقام للشرف بل طلب تشديد العقوبة عليه نظراً لمواظبته على استغلال شقيقته أكثر من عشر سنوات، ولولا توقفها عن منحه المال لما استيقظ شرفه فجأة على هذا النحو.

تابع القاضي المتقاعد بأسى ومرارة حديثه عن هذه الواقعة إذ أيّدت محكمة النقض آنذاك رأي المستشارين وأعفت القاتل من العقوبة معلّلة ذلك بأنّ دافع الشرف قد يفاجئ الإنسان في أيّ وقت وإن جاء متأخراً.

ولعمري هذا أمر محزن يدعو إلى نظرة إنسانيّة جديدة يُتاح من خلالها تعديل القوانين المعمول بها وتعيد صياغتها على نحو تتحقق فيها عدالة حقيقيّة ومتوازنة لا تشوبها أعراف ولا يحكمها موروثات بالية.

* * *



الفصل الرابع

الرقابة الحكوميّة

أولاً: الرقابة الصحيّة

من الأمور اللافتة وجود عيادة خاصة ملحقة بالمحل العمومي، وقد أنشئت إثر اتخاذ السلطات المحليّة في بداية عهد الاستقلال قراراً بحصر العمل في مهنة الدّعارة المرخصة في مكان واحد فقط وهو المكان نفسه الذي استمر في تقديم خدمات الجنس المأجور في منطقة بَحْسيتا إلى أن تم إغلاقه نهائياً في عام (1974)، والعيادة عبارة عن مبنى مستقل (بيت عربي تقليدي) يمكن الوصول إليها عبر شارع صغير متفرع عن سوق (قسطل الحجارين)[1]، وهي متصلة بالمحل العمومي من خلال بوابة صغيرة موجودة في نهاية أحد أزقته، والعيادة تعمل تحت إشراف مديريّة الصحة بحلب وأطلق عليها اسم (مشفى الأمراض الزهريّة)[2].

قبل إنشاء مشفى الزهري كانت المومسات يقمْنَ بزيارة أسبوعيّة إلى الطبابة الشرعيّة الموجودة بالقرب من محلة بَحْسيتا في منطقة قسطل الحجارين وذلك لإجراء الفحوص الطبيّة الدوريّة.

عُرف مشفى الزهري منذ أيامه الأولى بقوانينه وإجراءاته الصارمة إذ يتوجب على نزيلات المحل العمومي التردّد عليه صباح يوم الثلاثاء من كل أسبوع لإجراء الفحوص الدوريّة على أيادي أطباء استشاريين في الأمراض النسائيّة والجلديّة وأمراض الأعضاء التناسليّة، وتوفر إدارة العيادة وموظفوها الخدمات الطبيّة المتنوعة والرعاية الصحيّة الكاملة إذ تخضع المومسات لفحص إلزامي في كل زيارة للتحقق من خلوهنّ من الأمراض المعدية، وهو أخذ ثلاث مسحات مهبليّة متكرّرة لكل واحدة منهنّ ولكي يعبرّن بسلام من هذا الاختبار ينبغي أن تكون نتيجته سلبيّة ولا تقتصر الإجراءات الدوريّة على الكشف السريري والمخبري فحسب بل تتعدى ذلك إلى تقديم النصائح الطبيّة وحضّهنّ على اتباع أساليب الوقاية الصحيّة اللازمة للتخفيف من حالات الإصابة بالأمراض المعدية سواء عندهنّ أو عند جمهور المتردّدين على المحل العمومي، وتمنحن إثر كل زيارة للعيادة مواد مطهّرة وأنواعاً من الغسول لاستخدامها بعد معاشرة الزبائن.

كما أنّ المشفى يحتوي على غرف أشبه بالزنزانات تُحجر فيها الفتيات في حالين، الأولى إذا تبيّن أنهنّ مصابات بمرض سارٍ أو معدٍ، والأخرى في أثناء حدوث الدورة الشهريّة، ولا يخرجن منها إلا بعد الحصول على تقرير من الطبيب المختص يفيد بأنهنّ قد برئْنَ أو تطهّرن، وأنهنّ جاهزات للعودة إلى مزاولة مهنتهنّ من جديد على نحو طبيعي دون عقبات أو أخطار، وغالباً ما تلجأ المومسات حين يقترين من الشفاء أو التطهّر من الدورة الشهريّة إلى التودّد إلى الممرضين العاملين في العيادة وتقديم بعض الرِشا الصغيرة لتسريع خروجهنّ

من الحجر الصحي، وقد تكون الرِشوة ماديّة وكثيراً ما تكون عينيّة من خلال قيامهنّ بحركات الدلال والغنج، ولا تخلو أحياناً من إقدامهنّ على فعل بعض الممارسات الرخيصة إذا تطلب الأمر ذلك.

يشرف على البوابة الواصلة بين المحل العمومي والعيادة حارس يتمتّع عادة بالحزم والشدّة إذ يتيح للمومسات المرور من خلالها تجاه المشفى وقتما يشأن للمراجعة أو للكشف الطبي أو للحصول على أدوية ومطهّرات في حين لا يسمح لهنّ إطلاقاً بالعودة إلى داخل المحل العمومي إلا بعد اطّلاعه على التصريح الرسمي الممهور بختم إدارة المشفى.

تلجأ المومسات إلى طرق متعدّدة لتجنب حدوث الحمل، منها ما هو ينتمي إلى الطب الحديث وأغلبها مستوحىً مما يجود به الموروث الشعبيّ، ويضّطرْنَ إلى القيام بعملية الإجهاض في حال وقوع الحمل إذ إنّ تربية الأطفال كانت ممنوعة في المنزول.

الجدير بالذكر ها هنا أنّ هذا المركز يستقبل إضافة إلى نزيلات المحل العمومي جميع المرضى الذكور والإناث على حدّ سواء من أهالي حلب العاديين وذلك على مدار أيام الأسبوع كما أنه يقدم الخدمات الطبيّة والرعاية الصحيّة لزبائنه كافة بالمجان.

من أكثر الأمراض السارية شيوعاً في تلك الفترة ما يسمى بالضبّوع، والسفلس، والتّعقيبة، وتصنف هذه الأمراض تبعاً لمنشئها على النحو التالي:

1- الأول منشؤه طفيليّ، وهو الضبّوع واسمه العلميّ هو (قمل العانة)، والمعروف عنه حُب الطفيليّات للاستقرار في شعر العانة والتغلغل في جذورها، وعلاجه بسيط إذ ينصح بحلق العانة فوراً واستخدام المطهّرات الطبيّة لعدّة أيام، وفي الطب الشعبيّ يستخدم

العامّة حين إصابتهم بهذا المرض مواد مكافحة الحشرات مثل (د.د.ت)، أو الكاز.

2- الثاني منشؤه جرثوميّ (باكتريا)، ويدعى بين العامة بالسفلس، أو الزهري، واسمه العلميّ هو (اللولبيّة الشاحبة)، ويعالج بعقار البنسلين الذي كان ناجعاً إلى حد كبير في تلك الفترة.

3- الثالث منشؤه جرثومي أيضاً، ومعروف بين الناس بالتعقيبة، أو السيلان، واسمه العلميّ هو (المكورات البنيّة)، وهذا النوع لا يشفى منه المريض إلا بتناول المضادات الحيويّة.

المثير للاهتمام أنه رغم فرض كل هذه الضوابط الطبيّة الصارمة على نزيلات المحل العمومي نجد في المقلب الآخر بأنّ جمهور المتردّدين على المنزول لا يخضعون لأيّة إجراءات صحيّة أو وقائيّة سوى ما تطلبه منهم المومسات قبل مجامعتهنّ وبعده، ولا شكّ في أنّ هذا الأمر غريب ومستهجن.

وغالباً ما تلجأ نزيلات المحل العمومي كما رأينا إلى استخدام دهن القطن لتغدو عملية الإيلاج أكثر سهولة ومتعة القذف أكثر سرعة لاسيما في أيام الأعياد والمناسبات بغية عبور أكبر قدر من الأقدام العارية فوق أسرتهنّ.

كما نشير إلى أنّ ثقافة استخدام وسائل الوقاية الحديثة للحدّ من انتقال الأمراض المعدية والسارية لم تكن ثقافة رائجة في أزقة المحل العمومي في تلك المرحلة، ويعدّ الواقي الذكري أحد أهم تلك الوسائل التي ما زالت تثبت نجاعتها حتى يومنا هذا، وعلى الرغم من أنه كان موجوداً في الصيدليات العامة ومتوافراً بصورة علنية في دكان يقع بالقرب من مدخل المحل العمومي فإنّ كثيراً من جمهور المتردّدين عليه لا يعرفونه أصلاً، ونفراً آخر يخجل من الإقدام على شرائه، وفئة ثالثة تخشى من انحسار اللذّة حين استعماله.

في حين كانت تلك الوسائل مستخدمة في الفترة عينها على نطاق واسع في الدول الغربيّة، فقد حدثني صديق تابع دراسته الجامعيّة بألمانيا في أواسط الستينيّات من القرن الماضي عن هذا الموضوع إذ لم تكن المومس تسمح لزبائنها بممارسة الجنس معها إلا باستخدام الواقي الذكري مهما كانوا أسخياء.

إزاء هذا الوضع الذي كان قائماً في فضاء المحل العمومي لا يسعنا سوى أن نحمد العلي القدير على أنّ مرض نقص المناعة المكتسبة (الإيدز) لم يكن معروفاً أو مكتشفاً في ذلك الزمن إذ كانت أعراضه تفسر حسب حالها، فإما أن تُشخّص على أنها أمراض جلديّة أو أمراض جهازيّة أخرى وهذا فضل من الله ومنّة منه، فالإثم والبلاء كانا سيحلّان فوق رؤوس الأشهاد.

لا يفوتني في هذا المقام التنويه بأنّ هذه المعلومات استقيتها من ثلاثة أصدقاء يعملون في مهنة الطب منذ زمن طويل وهم طبيبان استشاريّان في أمراض النساء والولادة وهما الدكتور (محمد ضبيط)، والدكتور (فاروق نصار)، والآخر طبيب استشاري في الأمراض الجلديّة وهو الدكتور (أديب بطل)، وهذا الأخير هو ابن أخت الدكتور (عبد الكريم شحادة) الذي كان مسؤولاً عن مشفى الأمراض الزهريّة حتى آخر أيامه.

الجدير بالذكر أنه صدر قرار إغلاق المشفى بالتزامن مع صدور قانون إلغاء بيوت الدّعارة المرخصة في مدن الجمهوريّة العربيّة المتحدة جميعها غير أنه استمر في العمل إلى أن توقف نهائيّاً عن تقديم خدماته الطبيّة في عام (1974).

وقد أفادني الدكتور أديب بمعلومة مهمة قلّ من يعرفها من الناس أو اطّلع عليها وهي أنّ أحد الأسباب الوجيهة التي دفعت

الحكومة السوريّة إلى اتخاذ قرار إغلاق المحلات العموميّة المنتشرة في المحافظات والمدن السوريّة بشكل نهائي إضافة إلى قانون إلغاء بيوت الدّعارة المرخصة الذي صدر أيام الجمهوريّة العربيّة المتحدة، هو التوصيات المتكرّرة المرسلة من بعض المنظمات الدوليّة، ومفادها أنه يتوجب على الحكومات المحليّة والإدارات المختصة سن قوانين جديدة يُفرض من خلالها إلغاء بيوت الدّعارة والبغاء المرخصة إذ كانت ترى أنه من المعيب وغير اللائق أن ترعى تلك السلطات مثل هذه الأماكن وتشرف عليها.

رغم أنني أثق في المعلومات التي أفادني بها الدكتور (أديب بطل)، إلّا أنني أميل إلى الاعتقاد بأنّ المنظمات الدوليّة بأنواعها لا سيما منظمة الصحة العالميّة تحضّ السلطات المحليّة في مختلف دول العالم على أن تقوم بالإشراف على قطاع الدّعارة من خلال مؤسسات خدميّة خاصة، وتحثهم على تحصينه بالقوانين الرقابيّة المتنوعة لضمان عدم انتشار آثاره السلبيّة إلّا في أضيق الحدود، وهذا لا يتعدى أن يكون رأياً شخصياً لا أرى بأساً في الأخذ به.

* * *

سكر عنبر

حدثني أحد المعمرين عن طرفة جرت في عيادة الطبابة الشرعيّة في بداية الأربعينيّات من القرن العشرين بطلتها سيدة بلغت من العمر عتيّاً كانت تتسكع بمفردها صباح يوم ربيعيّ مشمس في سوق قسطل الحجارين القريب من مبنى الطبابة الشرعيّة، وإذا بعينيها تلتقطان طابوراً من النسوة يقف في باحة منزل مجاور فسارعت إليهنّ دون أن تكلف نفسها عناء معرفة سبب اصطفافهنّ على هذا النحو وانتظمت في الطابور تنتظر دورها غير مبالية بنظرات المومسات المترعة بالاستهجان والإيحاءات الساخرة فقد اعتقدت تلك العجوز أنّ مواد

غذائيّة توزع في هذا المكان إذ كانت الأسر تُمنح بطاقات تموينيّة مدعومة من الحكومة إبّان الحرب العالميّة الثانية.

حين جاء دورها دخلت إلى الغرفة ممسكة ببطاقتها التموينيّة وأقبلت على الرجل الذي كان جالساً وراء المكتب وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة متكلّفة، وما إن وقع بصره عليها حتى هتف متعجباً:

- ماذا سوف تفعلين به وأنت في هذا العمر؟

فردت عليه بحماسة:

- أمجّه مجّاً.

فضرب الطبيب بيده على جبينه مستنكراً.

فبادرته السيدة العجوز بنبرة لا تخلو من غنج:

- طيب.. أمصّه مصّاً.

فصرخ الحكيم في وجهها مؤنّباً:

- عيب عليك يا حاجة تطلبين هذ الأمر وأنت في هذا العمر.

فأجابته بعفويّة صادقة:

- متى كان أكل السكر عنبر عيباً؟

* * *

1. قسطل الحجّارين: أو سويقة الحجّارين وهو سوق عامر يربط بين ساحة باب الفرج وطلعة السبع بحرات وقد عُمّرت هذه المحلّة في العهد الأيوبي بسبب تكاثر المؤسسات الصناعيّة كان فيه حمام يدعى بحمام سويقة الحجّارين أزاله الهدم الحديث وقسطل الحجّارين أُنشأ في حدود عام (900)، وقد هدمته البلدية أيضاً.

انظر كتاب أحياء حلب وأسواقها، تأليف خير الدين الأسدي، وتحقيق عبد الفتاح روّاس قلعه جي، الصفحة (245)، والصفحة (309).

*2. **مشفى الأمراض الزهريّة:** تأسس عام (1946) تزامناً مع قرار السلطات المحليّة بحصر الدّعارة المرخصة في المحل العمومي بمنطقة بَحْسيتا، ويضم حوالي عشر غرف وسُمّي المرض بالزهري لظهور زهرات غامقة اللون على جسم المريض، وهو تابع إداريّاً إلى مديريّة الصحة، والجدير بالذكر أن أوّل مديريّة للصحة في حلب تأسّست عام (1918) وكانت تتبع لوزارة الداخليّة حتى عام (1947) حيث أُحدثت الأمانة العامة للصحة والإسعاف العام، وفي عام (1948) أُنشئت وزارة الصحة والإسعاف العام وباتت منذ ذلك التاريخ مسؤولة عن المشافي والأطباء والرعاية الصحيّة في سوريّة.*

ثانياً: الرقابة الأمنيّة

أولت السلطات المحليّة اهتماماً خاصاً بالناحية الأمنيّة إذ لا يعقل أن يسمح لهذا المكون الاجتماعي بالوجود والاستمرار دون أن يكون ثمّة قوانين وأعراف تضبط إيقاع الحياة فيه وتنظم سيرورته اليوميّة نظراً لما تنطوي الخدمات التي يوفرها هذا المكان على حساسيات متنوعة تجاه المجتمع.

وهكذا كان لا بدّ من أن يعمل المحل العمومي تحت إشراف الأجهزة الأمنيّة، ومن هنا استقر الرأي على أن تكون الغرفة التي تلي بوابته الرئيسة من الجهة اليمنى مقرّاً دائماً للمفرزة الأمنيّة، ويقع على عواتق رجال الشرطة الإشراف على تنفيذ القوانين المرعيّة وعدم خرقها أو التحايل عليها.

كما أشرنا فإنّ المحل العمومي يفتح أبوابه للزائرين في الساعة الثامنة صباحاً ويغلقها في الساعة الثانية عشرة ليلاً، ويسمح لرواده - وهم من الذكور غير المتزوجين - بدخوله والفرجة على نزيلاته المترقبات مجاناً.

ومن أهم المسؤوليّات التي أوكلت إلى رجال الأمن:

1- المحافظة على أمن المنشأة بشكل عام.

2- التفتيش عن الأسلحة بأنواعها كافة ومصادرتها خشية أن يستخدمها أقارب المومسات في قتلهنّ ثأراً لشرفهم وغسلاً للعار الذي يعتقدون أنه لحق بهم.

3- منع دخول الأحداث دون الثامنة عشرة ولكن جرت العادة أن تحل هذه المسألة بدس مبلغ بسيط من المال داخل الهويّة الشخصيّة التي كانت مكونة آنذاك من قسمين يطويان على بعضها بعضاً فيغضّ الشرطي البصر ويمر الضيف بسلام لا سيما حينما يكون رجل الأمن متساهلاً، وكان رسم العبور للقاصرين في أربعينيّات القرن العشرين ربع ليرة سوريّة فقط وازداد مع الزمن حتى أصبح ليرة سوريّة كاملة في سنواته الأخيرة.

4 – عدم السماح للمتزوجين بعبور بوابته، وإذا اكتشف رجال الشرطة أنّ أحد الرواد ليس عزباً يسارعون إلى حجز هويّته وسجنه يوماً أو يومين في النظارة، ثم إعادته إلى أسرته مخفوراً إمعاناً في فضح سلوكه الشاذ، وقد تداول المجتمع الحلبي قصصاً كثيرة من هذا النوع.

5 - ومن مهامهم أيضاً منع تعاطي المشروبات الروحيّة داخل المنزول تجنباً لتصرفات السكارى غير المنضبطة إلّا أنّ تهريبها لم يكن أمراً عسيراً، فقد كانت زجاجات الخمر تتسلل إليه من دكان

متخصص ببيعها يقع بالقرب منه، في حين كانت رشا صغيرة تتسرب إلى جيوب بعض رجال الشرطة المتساهلين.

6 – مراقبة خروج ودخول المومسات وفق برنامج الأوقات الممنوحة لهنّ من إدارة المنشأة إذ لم يكن متاحاً لهنّ مغادرة المحل العمومي إلّا مرّة واحدة في الأسبوع على أن يرجعن إليه قبل إغلاق بوابته في الثانية عشرة ليلاً.

7 – عدم السماح للجنود والعساكر وأفراد الجيش والقوات المسلحة بالدخول إلّا في الأوقات المخصصة لهم.

من الجدير ذكره أنّ تطبيق القوانين لم يكن صارماً إلى درجة بعيدة ما دامت لن تسفر مرونة رجال الأمن وتساهلهم في التعاطي معها عن تجاوزات كبيرة أو مخالفات تدعو إلى تحمّل المسؤوليّة أو العواقب المترتبة عليها.

أشير إلى أنّ السلطات المحليّة خصصت فترتي ما بعد الظهر والمساء في يوم الخميس من كل أسبوع لشريحة من شرائح المجتمع غير المدنيّة وهي فئة المجندين والعسكريين من أفراد الجيش والقوات المسلحة إذ كانوا يتوافدون إلى المحل العمومي قبل الذهاب إلى بلداتهم في الإجازات الأسبوعيّة. ولمّا كانت حلب في تلك الحقبة ممراً إجبارياً لمعظم سكان المناطق الشماليّة والشرقيّة من سوريّة كان لا بدّ للقادمين من جنوب البلاد أن يستقلّوا وسائل نقل أخرى للوصول إلى بلداتهم وقراهم، وعلى هذا النحو تجد مجموعة كبيرة منهم تسارع إلى المنزول ليقوموا بقضاء رغباتهم دون حرج أو خجل فالمحل العمومي موقوف لخدمتهم في

تلك الفترة. ومن ثم تراهم يعكفون إلى حمام السوق المجاور للمنزول ليتطهّروا من فعلتهم إذ إنّ أغلبهم كانت تنتظرهم مخادع زوجاتهم الفتيّة لا سيما أولئك الجنود المنحدرين من القرى والأرياف المختلفة الذين درجت العادة في مناطقهم على تزويجهم وهم في سنّ مبكرة.

في هذه الفترة المخصصة للجنود والعساكر يستبدل عناصر الشرطة المدنيّة المشرفين على المحل العمومي طيلة أيام الأسبوع بطاقم أمني آخر من أفراد الشرطة العسكريّة.

متيّم

أسوق لكم هنا قصة طريفة عن أحد الرياضيين المرموقين في ذاك الزمان إذ كان الرياضيون بشكل عام متيّمين بالمنزول وكانوا يشدّون الرحال إليه جماعات وأفراداً.

أقول إنه من شدّة تعلق صديقنا وإدمانه ارتياد (شارع 142) لجأ إلى أرفع الوساطات لتكون خدمته الإلزاميّة في الشرطة العسكريّ، ومن ثم استطاع إقناع مسؤوليه بأنه خير من يتولى مهمة الإشراف على الفترة المخصصة للعساكر فكان له ما أراد، وأمضى معظم خدمته الإجباريّة رئيساً لمفرزة أمن المحل العمومي، وحين غادره إثر عودته إلى الحياة المدنيّة خلّف وراءه أثراً طيباً وذكرى خالدة فقد كان رحيماً وليناً مع نزيلاته وشديداً وصلباً مع رواده.

* * *

ثالثاً: الرقابة الاجتماعيّة

منذ أن أخذ المحل العمومي شكله الأخير واستقرّ في المكان الذي انتهى إليه سنّت السلطات المحليّة في حلب القوانين وأصدرت المراسيم التي تنظم العمل في هذه المؤسسة الحيويّة.

وقد رُوعي فيها النواحي الاجتماعيّة والأخلاقيّة على نحو مدروس ومحكم ومع مرور الزمن سادت أعراف وتقاليد مكملة لتلك القوانين، وكما رأينا لا يسمح لغير البالغين دخول المحل العمومي، ويعدّ هذا أمراً مهماً إلى حدّ بعيد إذ يُصان من خلاله شريحة كبيرة من الناشئة وتُحصّنهم من تعاطي الفحشاء والانحراف عن السلوك الطبيعي وإنْ إلى حين.

فضلاً عن أنّ المتزوجين كانوا يمنعون من التردّد إلى المحل العمومي، وأرى أنّ هذا الإجراء كان أمراً منطقياً إلى درجة كبيرة فما الذي يدعو المحصنين إلى زيارة هذا المكان وقد وهبهم الله زوجات يأنسون إليهنّ أنّى شاؤوا إلّا من كان في نفسه شيء من الخسّة والدناءة. وهذا لعمري يعدّ تقليداً في غاية الأهميّة فهو يحمي الزوجات الطيبات من الإصابة بالأمراض المعدية والسارية وبالتالي يصون المجتمع بأسره.

أرى أنّ كل ما أوردناه في فقرتي الرقابة الصحيّة والرقابة الأمنيّة يخدم مفهوم الرقابة الاجتماعيّة بشكل أو بآخر. فالقوانين والإجراءات تتكامل كلها لتحصين المجتمع وحصر آثار هذه المؤسسة الخدميّة مهما كانت في أضيق الحدود.

* * *



الفصل الخامس

أعجب العجب في طبائع أهل حلب

تبدو الكرخانة كما لو أنها أميرة متمردة تتربع على عرش مملكة الصنعة، صنعة المتعة، تراقب أهالي المدينة من خلال عيون سحريّة تهزأ بهم حيناً، وتضللهم أحياناً كثيرة.

درجت العادة بين أهالي المدينة ألّا يذكر اسم المحل العمومي علناً والابتعاد عن الأسماء التي تشي صراحة بماهيته مثل بيوت الفحش، أو دور البغاء، إلخ والاستعاضة عنها بأسماء بديلة من باب التمويه على أنها باتت مع الاستخدام المتكرر تشير إليه بوضوح، ومع ذلك اعتادوا تداولها دون حرج أو غضاضة ومن هذه الأسماء بَحْسيتا وهو اسم الحيّ الذي يقع فيه المحل العمومي، أو رقم (142) وهو رقم الشارع الموجود فيه، أو المنزول وهو المضافة التي كانت موجودة في أول الشارع المؤدي إلى بوابته، إضافة إلى الكرخانة وهي كلمة تركية بمعنى مكان العمل، إلخ.

على الرغم من نفور أهل حلب من منظومة الفجور المرخصة في مدينتهم بشكل عام ومن العاملات فيه على وجه الخصوص فإنّ هذا لم يمنع من أن يتفشى في ثقافتهم المحليّة جملة من العادات تبيح لأفراده التواصل مع المحل العمومي باعتباره مؤسسة اجتماعيّة لا تخلو من فائدة، والتردّد عليه والتعامل مع نزيلاته دون حرج أو ذلة لما وجدوه من خير ومكاسب يحصلون عليها من خلال اتباع تلك الأعراف، وكانوا يلجؤون إلى ممارستها على نحو خفي أحياناً وبصورة علنيّة في أحايين كثيرة إذ يبدو أنهم أدركوا تدريجيّاً مدى انعكاساتها الإيجابيّة على مجتمعهم، وهذا أعجب العجب في طبائع أهل حلب.

وسنتطرق في هذا الفصل إلى أهم العادات السائدة آنذاك.

* * *

أولاً: استحسان التوبة

من المعروف أنّ السلطات المحلية لا تسمح لمن يتزوج من إحدى نزيلات المحل العمومي أن يردها إليه تحت أيّ ظرف من الظروف، أو لأيّ سبب من الأسباب إذ يتوجب عليه أن يوقع تعهداً بعدم إعادتها إلى المحل العمومي، أو الإقدام على تطليقها.

أرى أنّ الذي يُقدم على تلك الخطوة لا بدّ من أنه وصل إلى قناعة راسخة بأنّ الفتاة التي سيقترن اسمه باسمها قد لجأت إلى الله وتابت إليه توبة نصوحاً لا رجعة عنها.

من هنا نكتشف هذا التناقض العجيب إذ إنّ المجتمع الحلبي ينبذ كل رجل يتخذ على نحو علنيّ واحدة من المحل العمومي صاحبة وحبيبة ويعدّه شخصاً حقيراً ودنيئاً، وغالباً ما يقوده سلوكه هذا إلى

الهاوية فعادة ما تبادر أسرته في معظم الأحيان إلى التبرؤ منه بغية التحرر من العار الذي لحق بها.

في الوقت نفسه نجد أنه سادت في المدينة ثقافة من نوع فريد إذ إنها لا تسمح لأبنائها بالاقتران من إحدى نزيلات المحل العمومي فحسب بل تشجعهم على اتباع هذا السلوك إذا كان هدفهم خالصاً لوجه الله بل عُدّ ذلك آنذاك عملاً نبيلاً وأمراً حميداً يُؤجر فيه المرء ويُثاب عليه.

هذا وقد تواترت إليّ شفاهة عن طريق بعض الأقارب والأصدقاء عدّة قصص وحكايات تتحدث عن نسوة تُبن إلى الله وبلغن مقاماً رفيعاً يُحسدْنَ عليه في مجتمعاتهنّ الجديدة ورحلن إلى فردوسه وهنّ طاهرات تائبات.

* * *

التوبة النصوح

روى لي الصديق (يحيى الطباخ) قصة مؤثرة جرت في خمسينيّات القرن الفائت فقد حدثني عن رجل تعلق قلبه بإحدى مومسات المحل العمومي، وهو من أسرة كريمة تقطن في (محلة السفاحيّة)[1] بحلب ويعمل أفرادها في المعمار بل يروى عن والده أنه كان من أهم مقاولي البناء في المدينة وأشهرهم.

ازداد حب الشاب للمومس مع توالي الأيام ولم يعد يقوى على الابتعاد عنها، ونوى إزاء مشاعره العارمة الارتباط بها رغم ازدراء أصدقائه وأفراد أسرته جميعهم واستهجانهم لتلك العلاقة الغريبة عن مجتمعهم.

استمر الود والوصال بينهما سنوات طويلة على نحو بات فيه يغيب عن منزل أسرته أياماً متوالية فقد كان يمضي معظم أوقاته برفقتها في المحل العمومي لأنه لم يكن يُسمح لنزيلاته بالخروج منه سوى مرة واحدة في الأسبوع، وقد امتنعت عن تقديم الخدمات للزبائن في السنتين الأخيرتين إثر قناعتهما المشتركة بالارتباط والزواج.

حين عرض الموضوع على والده قوبل بالرفض والغضب الشديدين إلّا أنّ ذلك لم يثنه عن قراره، وفعلاً كان له ما أراد إذ قام بكل الإجراءات المطلوبة، وفي مقدمتها التوقيع على التعهد بعدم إعادتها إلى المحل العمومي تحت أي ظرف من الظروف وتزوجا رغم العوائق والصعوبات الكثيرة، واتخذا من دار صغيرة تقع بالقرب من منزل أسرته في منطقة السفاحيّة مسكناً لهما.

قامت هذه السيدة على إثر توبتها وزواجها بوهب جزءٍ من أموالها ومصاغها إلى الفقراء، وأنفقت الجزء الآخر في أعمال الخير، وذهبت في السنة التالية برفقة زوجها إلى الحجّ ومنذ ذلك التاريخ لم يعرف عنها يوماً قطّ أنها تأخرت عن أداء الصلاة في مواقيتها.

سرعان ما انقلبت أشكال كراهية أسرته ومقاطعتها كلها إلى وئام ووداد لما لمسوا منها من ألفة وطيبة في المعشر ورجاحة في العقل على نحو مسح فيه ماضيها من أذهانهم جميعاً، ولم يعد أحد من المحيطين بها يرضى أن يُذكر تاريخها أو حتى أن يُلمح إليه بأيّة كلمة أو إشارة.

على أنها لم تنجب أطفالاً ولا شكّ في أنّ الله جلّ وعلا له حكمة في ذلك، فلجأت بعد عدّة سنوات إلى الضغط على زوجها كي يبادر إلى الارتباط بامرأة أخرى لعلها تكون ولوداً، وقد غضب لاقتراحها المفاجئ والغريب وعارضها معارضة شديدة، إلّا أنه في النهاية امتثل لرغبتها

إزاء إصرارها وصدق مشاعرها، ويحكى أنها اختارت ضرتها بنفسها وسط ذهول المقربين والمحيطين بهما، وخطبتها له وقيل أنها بدت في غاية السعادة وهي ترقص في ليلة عرسها.

مع مرور الزمن أمست علاقتها بضرتها كعلاقة الأم الحنون بابنتها، ودأب أولاد زوجها على منادتها بماما إذ قامت بتربيتهم ورعايتهم منذ أول يوم ولدوا فيه.

في نهاية المطاف خيم حزن شديد على منزل الأسرة ومحيط العائلة إثر وفاتها بعد حياة مديدة مفعمة بالسمعة العطرة والسيرة الحسنة، تاركة وراءها فراغاً لم يُملأ سوى بذكراها الطيبة وبدعوات الترحم عليها.

* * *

انعطاف

حدثني أحد الأصدقاء عن شخص يدعى (ع.ك) وهو من أهالي حلب الميسورين.

على الرغم من أنّ هذا الرجل ينحدر من أسرة كبيرة ومعروفة في حلب فإنه أدمن ارتياد الكباريهات وأماكن اللهو، وبمعنى أدقّ في لهجة أهالي حلب، يقال عن سلوكه إنه اعتاد أن يتعتّر بالبريّة (منطقة وسط البلد المليئة بالملاهي وأسباب المجون) وذلك بصورة شبه يوميّة إذ كان يعدّ نفسه زيرَ نساء وصائداً للفنانات الجميلات، ولا سيما الجديدات منهنّ على الكار وساعده على ذلك صباه وهيئته التي تشي بانتمائه إلى طبقة راقية، والأهم من ذلك كله محفظته المتخمة بالأوراق الماليّة.

لكن يبدو أنّ دوام الحال من المحال فقد وقع صاحبنا (الكازانوفا) في غرام إحدى الغانيات ولم يعد يقوى على فراقها والابتعاد عنها فقرر الارتباط بها.

بعد صراع طويل مع أفكار أفراد أسرته واعتراضهم، وآراء المقربين منه التي كانت مكبّلة جميعها بأصفاد المجتمع وتقاليده الحازمة عمد إلى إخراجها من الكباريه محرّراً إيّاها من العمل فيه نهائيّاً كخطوة أولى، ثم ما لبث أن تزوجها غير عابئٍ بكافة أشكال الاستنكار والاستهجان التي وُوجه بها من أهله ومن المحيطين به.

تابت تلك السيدة توبة نصوحاً شهد عليها القريب والبعيد، وأنجبت له عدّة أولاد ووهبت وقتها وحياتها كلها لهم إذ لم تعد تغريها مباهج الدنيا ومسرّاتها، وبات سلوكها وأخلاقها محط تقدير واحترام أفراد الأسرة جميعهم بعد أن كانت هدفاً لتلميحاتهم المستفزّة وسخرياتهم الجارحة.

يبدو أنّ الإنسان ينتقل من النقيض إلى النقيض كنوع من التعوض دون تخطيط أو تفكير إذ إنّ هذه السيدة ومن شدّة ورعها وتقاها عمدت إلى تنشئة أبنائها تنشئة صالحة فيها الكثير من التعاليم الدينيّة واتخذت من الفضيلة والمثل العليا نبراساً في أسلوب تربيتهم، وعلى إثر ذلك انضم أحد أبنائها إلى جماعة الأخوان المسلمين دون دراية أو علم من أحد ولا حتى من أيّ فرد من أفراد أسرته.

لقي الفتى وجه ربه وهو في ريعان شبابه فداءً للفكر الذي آمن به والهدف الذي نذر نفسه لأجله، وذلك خلال انتفاضة جماعة الأخوان المسلمين والمتعاطفين معهم ضد النظام الذي كان قائماً آنذاك في بداية الثمانينيّات من القرن المنصرم.

* * *

صاحبة السعادة

تتواتر أخبار ومعلومات عن والدة أحد المسؤولين المهمين في المدينة أنها كانت واحدة من نزيلات المحل العمومي قبل أن تتزوج وتؤوب إلى الله.

اتخذت أسرة صاحبة السعادة منزلاً يقع في حيّ الجميليّة مسكناً لها، وبقيت هذه السيدة مقيمة فيه إلى أن وافتها المنيّة رغم أنّ أحد أولادها تقلّد مناصب رفيعة ومهمة في الدولة لفترات طويلة، ويبدو أنّ قوة شخصيتها وسطوتها اللتين تميزت بهما في محيطها ليستا مستمدتين من نفوذ ولدها ومكانته فحسب بل يسعنا أن نعزو ذلك أيضاً إلى الظروف والتجارب التي مرت بها والطباع التي اكتسبتها في أيامها الخوالي.

عُدّ اليوم الذي انتقلت فيه إلى جوار ربها حدثاً مشهوداً ومناسبة حافلة إذ تطوع مدير الأوقاف شخصياً لدعوة أهم مقرئيْ المدينة ليقوموا بتلاوة القرآن في مجلس عزائها الذي كان عامراً بالمسؤولين والتجار وعليّة القوم.

* * *

كسب الدنيا والآخرة

يُحكى عن رجل ترمّل وهو في السبعين من عمره فزهد في الدنيا وراح يعمل لآخرته آملاً من ربه ألّا يطيل أجله وأن يجمعه بزوجته الطيبة في القريب العاجل.

بعد عدّة سنوات شعر أبناؤه بالحزن والشفقة عليه إذ إنه يقضي وحيداً أيامه الطويلة المغلفة بالوحشة والكآبة رغم أنه ما زال يتمتع بصحة جيدة وهمّة لا بأس بها، إضافة إلى أنه بحاجة لأنيس وجليس يملأ فراغ وحدته ويهتم بشؤونه ويخدمه على نحو دائم. وأمام حاله

النفسية والمعيشيّة المتردّية قرروا البحث عن زوجة مناسبة لوالدهم غير أنّ هذه الفكرة اصطدمت برفض قاطع منه إذ أخبرهم إزاء إلحاحهم بأنه لم يعد ثمّة فائدة مرجوة منه، وأن لا داعي لإحراجه وفضحه بين الناس وقد بلغ من العمر عتيّا.

على أنه في نهاية المطاف أذعن لرغبتهم إثر شعوره بالرضا والإحسان، فقد وجد بأنّ ثواباً عظيماً سيناله من وراء ارتباطه بسيدة تائبة إذ تخيّر أولاده واحدة من نزيلات المحل العمومي زوجة له، وقد التزمت هذه المرأة بالمهام التي أُوكلت إليها على نحو مرض ومتقن، وبات منزل الكهل يضجّ بالنظافة والألفة ويزهو بأشهى أصناف الطعام، فقد نسيت تلك السيدة ماضيها كما لو أنها لم تعرفه يوماً قطّ ولم تعد ترجو من الدنيا سوى حسن الختام.

مرّت الأيام والأشهر على هذا النحو وكان الرجل العجوز يعود في كل مساء إلى منزله ولا يدور في خلده إلّا تناول لقمة هنية والركون إلى فراش مريح، حتى إذا ما دخل إلى داره في إحدى الليالي وجد زوجته في حلّة جديدة لم يعهدها فيها قَبلَ هذه الساعة، فقد رآها مرتدية ثوباً رائعاً وجذّاباً وقد تبرّجت بأحلى الألوان وتزينت بأجمل المجوهرات كما لو أنها عروس في ليلة دخلتها.

اعتقد الكهل أوّل وهلة أنه في حلم أو أنه أخطأ العنوان على أنَّ صوتها الحاني أعاده إلى أرض الواقع حين هتفت بدلال لم يعتده:

- ألستُ حلالك شرعاً وقانوناً؟

بهت الرجل فرد متلعثماً:

- بلى، ولكن ألم يخبرك أولادي عن وضعي وحالي؟

ما هي إلا دقائق معدودة حتى ساد بينهما الود فاستيقظت براكينه الخامدة وأخذت عروقه تنبض ثانية وكان أمراً مقضياً.

يُحكى أنّ هذه السيدة استطاعت منذ تلك الليلة ضخ روح الشباب في جسد زوجها وإعادة نشاطه وحيويته، وعلى إثر ذلك بات هذا الرجل محسوداً في محيطه وبين أقرانه وواحداً من أولئك الذين يشار إليهم بالبنان إذ إنه كسب الدنيا والآخرة.

* * *

1. محلة السفاحيّة: تقع بين حيّي الجلوم وقلعة حلب وسط المدينة القديمة فيها الكثير من الأوابد والمباني الأثريّة، منها جامع العادليّة وهو من أشهر جوامع حلب فخامة وإتقاناً وجمالاً، ويعد أول مسجد بُني على الطراز التركي في المدينة، ومنها الخسرويّة وهي جامع كبير ومدرسة وتكية ومطبخ وتعدّ من أقدم المدارس في المنطقة التي تمنح طلابها درجة الثانويّة الشرعيّة، وفيها أيضاً العديد من المدارس والمساجد والحمامات.

انظر كتاب أحياء حلب وأسواقها، تأليف خير الدين الأسدي، وتحقيق عبد الفتاح روّاس قلعه جي، الصفحة (216).

ثانياً: إزالة حياء العريس قبل الزواج أو بعده

لطالما كان المجتمع الحلبي على مدى العصور والأزمنة يعدّ من المجتمعات المحافظة بل إنّ مزاج أغلب شرائحه أقرب إلى التزمت والانغلاق منه إلى ما يمكن وصفه بالوسطية والاعتدال.

إنّ تقاليد الخطبة والزواج السائدة بين أبنائه شكّلت ظاهرة مجتمعية متوارثة إذ لا يُسمح في معظم الأحيان أن يلتقي العروسان ويتعرّفا على بعضهما بعضاً إلّا في أضيق الحدود وكثير من الشبان قد لا يرى عروسه إلّا في ليلة الدخلة.

من خلال هذه الأعراف المتجذرة في ثقافة طبقات كثيرة من أهالي المدينة نجد أنه من الطبيعي أن يتولد كم هائل من الحياء والخجل بين الزوجين إلى الدرجة التي قد يصاب فيها الزوج بالعنت فيعجز حينئذ عن مباشرة عروسه في ليلة الدخلة، وربما في الأيام التي تليها أيضاً مما يسبب الحرج والقلق لدى أسرتي العروسين، ولمّا كان المناخ السائد في المدينة يُعلي من القيم الذكورية ولا يسمح بالمساس بسطوتها، فإنه تبرز ها هنا خبرة أحد أقارب العريس ودرايته إذ يبادر إلى اصطحابه إلى المحل العمومي لكسر حيائه المستعصي وتلقينه قليلاً من الدربة، حيث تُمنح المومس التي ستوكل إليها هذه المهمة الإنسانيّة مبلغاً سخيّاً من المال بغية تحضيره وتدريبه على عبور أول ليلة، وغالباً ما يكون العلاج ناجعاً وسريعاً.

كثيراً ما تواترت حكايات عن هذه الظاهرة حيث يلجأ نفر لا بأس به من أهالي المدينة إلى الاستعانة بخدمات العاملات بالمحل العمومي كما لو أنهم يلجأون إلى مؤسسة اجتماعيّة متخصصة بتدريب العرسان، وذلك بغية جعلهم قادرين على إثبات رجولتهم على نحو آمن وسريع من أول محاولة رغم أنّ أغلبهم ينتمي إلى الطبقات الاجتماعيّة المحافظة في المدينة، فما بالك إذا مضت عدّة أيام ولم تحظ أم العريس بمنديل ملطخ باللون الأحمر وهذا أعجب العجب، ويدعو إلى كثير من التأمل.

* * *

المسحور

لا تقتصر هذه العادات على أهالي حلب بل يتعدّى ذلك إلى المدن والقرى المحيطة بها، فقد حدثني أحد الأصدقاء عن قصة واكب مجرياتها حينما كان مدرساً في مدينة الرقة في ستينيّات القرن الفائت.

تتحدث الحكاية عن شاب من أهالي المدينة أقدم على الزواج بصبيّة لا ينقصها الحسن والدلال غير أنه بعد مضي شهر ونيف على ليلة زفافه لم يستطع مباشرة عروسه رغم أنّ قلبه كان معلّقاً بها.

على إثر هذا الوضع الغريب والمحرج في آنٍ معاً لم يعد أمام أخيه الأكبر سبيلاً سوى اللجوء إلى المؤسسة الاجتماعيّة الكائنة في محلة بَحْسيتا في عاصمة الشمال، فاصطحبه على عجل إلى حلب كي يقطع الشكّ باليقين، وبمجرد وصولهما إليها قال له:

- هيا بنا إلى السّدح.

وهو يقصد المحل العمومي، فهذه الكلمة تعني بلهجة أهالي مدينة الرقة: النوم، وقد اتخذوها تسمية للمحل العمومي من باب التورية.

شهدت المومس التي كُلفت بالكشف عليه بأنه فحل ولا ينقصه شيء من الرجولة فقد أفرغ المسكين في مخدعها شهوته المكبوتة كلها على نحو شرس وملتهب، فأدرك الأخ الأكبر آنذاك الحقيقة، فقد تبيّن له لاحقاً أنّ ثمّة فتاة من محيط الأسرة كانت تحب أخاه الأصغر وترغب في الاقتران به ولم يتحقق لها ذلك، فلجأت إلى دجال وعملت له سحراً يمنعه من الدخول على زوجته.

أستطيع القول أنّ تلك الزيارة إلى المحل العمومي ساعدت في كشف المستور وساهمت في عودة الشاب إلى طبيعته إثر فك السحر عنه بعد أن قام مشعوذ آخر بتحضير سحر مضاد.

* * *

الفحل

حدثني أحد الأصدقاء المعمرين عن واحدة من العادات الغريبة التي كانت سائدة لدى بعض طبقات المجتمع الحلبي، فقد عُرفت حالات نادرة عند بعض الأسر الحلبيّة الفاضلة إذ كان يبادر أهل

الفتاة التي يتقدم إلى خطبتها أحد الشبان إلى السؤال عنه وعن أخلاقه وعن عمله وما إلى ذلك وهذا أمر طبيعي بل يعدّ سلوكاً ضروريّاً، ولكن أن يقوم أهل العروس بالسؤال عن فحولة زوج المستقبل وذلك من خلال أصدقائه المقربين فهذا شيء فيه العجب العجاب، ولا يتوقف الموضوع عند هذا الحد بل يسعون إلى التحقق من أنه جرّب فحولته في المحل العمومي خشية أن يكون عنيناً الأمر الذي قد يخلق مشاكل وأزمات إنسانيّة يصعب علاجها وحلّها بعد الزواج.

* * *

ثالثاً: مناسبات عامة

في منتصف الأربعينيّات من القرن المنصرم قررت السلطات المحليّة نقل سوق المواشي الرئيس في حلب من (منطقة جبرين)[1] التي تقع في ظاهر المدينة الشرقي إلى (بريّة المسلخ)[2] المجاورة (لحي جبّ القبّة)[3] وقد تم هذا الإجراء نزولاً عند رغبة أهالي حلب حيث يعدّ موقع السوق القديم بعيداً نسبيّاً في حين يقع الاختيار الجديد في وسط أحياء حلب القديمة.

كان على رأس هذا التدبير ثلاثة من كبار أعيان المدينة وهم (رحمون محوك، شاهين ختّام، ويوسف حمويّة) وحفيد هذا الأخير هو الذي روى لي هذه الحادثة وهم يُعدّون في الوقت نفسه من أهم تجار المواشي في حلب.

ما إن انتقل السوق إلى مقره الجديد حتى لقي استحسان شريحة كبيرة من الناس ورضاها بيد أنّ هذا المزاج لم ينسحب على أهالي المدينة كافة، فقد لحق شيءٌ من الضرر أولئك الذين كانوا يتحكمون

بالسوق القديم وعلى رأسهم شخص يدعى (سطّوف المرعي الأجلق) وهو من زعماء عشيرة العساسنة في حلب إذ شعر كما لو أنّ البساط سُحبَ من تحت قدميه عمداً، وعلى إثر ذلك توعّد هذا الرجل بأغلظ الأيمان أن ينزل السوء على من كان السبب وراء انحسار زعامته وسطوته على تجارة المواشي وتوابعها.

حين تناهى إلى (سطّوف الأجلق) أنّ غرماءه سيحلّون ضيوفاً على عائلة الكنج للمشاركة في مبادرة للصلح بين أسرتين كَمِن لهم وبرفقته عددٌ من أعوانه، وقد كان حظ الحاج (يوسف حمويّة) مباركاً إذ خرج من اجتماع الصلح مبكراً لأمر شخصيّ قبل أن يأتي سطّوف لتنفيذ وعيده، وحتى إذا ما خرج الرجلان الآخران تبعهما متلصّصاً وأوقفهما بعد حين وطلب منهما أن يستديرا معتقداً بأنّ سلوكه هذا سيدفع عنه صفتيّ الغدر والخسة، وقام برمي الرصاص عليهما على نحو سريع ومباشر، فوقع رحمون على الفور صريعاً بينما تعرض شاهين لإصابات بليغة، وعلى إثر ذلك ضجت المدينة وطالب الأهالي السلطات المحليّة بإنزال أقسى العقوبات (بسطوف الأجلق).

في أثناء مراسم الدفن تعهد أحد زعماء حلب الكبار (سعد الله الجابري)[4] حين هتف بجموع المشيّعين:

- نَمْ قرير العين يا رحمون فإنّ دمك لن يضيع هدراً، وأنّ الجاني سينال جزاء ما اقترفت يداه مهما طال الزمن أو قصر.

فعلاً سارعت الأجهزة الأمنيّة في البحث عنه وألقت القبض عليه وأودعته السجن، وعلى إثر محاكمة عادلة وطويلة استنفدت درجاتها كافة أُدين سطّوف وحُكم عليه بالإعدام شنقاً.

وهنا بيت القصيد إذ جيء بنزيلات المحل العمومي لحضور تنفيذ الحكم وقد أطللّن من شرفة فندق الخديويّة القريب من (ساعة باب

الفرج)[5] حيث درجت العادة أن تجري عمليات الإعدام في هذه المنطقة، وأنا شخصياً شهدت تلك الواقعة غير مرّة حيث كانت تنفذ حصراً فجر يوم الجمعة ويبقى المحكوم معلّقاً إلى ساعة الضحى ليكون عبرة لمن اعتبر، وقد تظل جثته متدلّية في الهواء إلى ساعات الظهيرة إمعاناً في إذلاله حين تكون جريمته شنعاء، وغالباً ما يُلصق على جسده منطوق الحكم وأسباب إعدامه، وفي بعض الأحايين قد ينفذ الحكم بأكثر من شخص في الوقت نفسه في حال كانوا مدانين في جريمة واحدة، وأعتقد أنّ هذا التقليد قد ألغي منذ فترة طويلة إذ باتت تجرى عمليات الإعدام في سجن حلب المركزي.

في العودة إلى نزيلات المحل العمومي فقد خرجن إلى الشرفة كما أشرنا لحظة تنفيذ الحكم وبادرن بإطلاق الزغاريد وصيحات الفرح تعبيراً عن بهجة أهالي المدينة ورضاهم بإحلال العدل والقصاص من الجاني، وأخذّن يبرزن مهارتهنّ وقدرتهنّ على مواجهة الجمهور دون أدنى شعور بالحرج أو الخجل، وبذلك تكون هذه الفئة من المجتمع قد أدّت واجبها تجاه المدينة على أكمل وجه في حين لا يسعنا إلا تقديم التحيّة للسلطات المحليّة إذ إنها أنزلت خبرتهنّ في محلّها.

* * *

1. منطقة جبرين: تقع شرقيّ حلب، كانت قرية دخلت حديثاً الحدود الإداريّة للمدينة، فيها محطة سكّة حديد القطار الذاهب إلى مدينة دير الزور.

انظر كتاب أحياء حلب وأسواقها، تأليف خير الدين الأسدي، وتحقيق عبد الفتاح روّاس قلعه جي، الصفحة (154).

2. برّية المسلخ: *كانت سوقاً للمواشي، إذن يراد بالمسلخ سوق المسلخ، أمّا المسلخ فكان قديماً في المغربجانب الشيخ نمير.*

انظر المصدر السابق الصفحة (133).

3. حيّ جبّ القبّة: *يقال له ابن نصير، ولا يزال فيه جبّ خيري فوقه قبّة يعدّ الحيّ سوقاً لبيع منتجات المناطق الشرقيّة من أجبان وألبان وجلود وغيرها، بينما يعدّ سوق الهال مركزاً لمنتجات المناطق الغربية.*

انظر المصدر السابق، الصفحة (155).

4. سعد الله الجابري: *هو أحد أهم الزعماء الذين أعادوا توحيد سوريّة بعد أن قسمها الفرنسيون إلى دويلات. وُلد عام (1894 ميلاديّة) في حلب لعائلة عريقة مشهورة بالوطنيّة والدّين والثراء. والده الحاج عبد القادر لطفي الجابري مفتي ولاية حلب، أنهى سعد الله دراسته الثانويّة في حلب وتابع تحصيله العلميّ في الكليّة الملكيّة في إستانبول ثم أكملها لمدة سنتين في ألمانيا، حين بدأت الحرب العالمية الأولى التحق بالجيش العثماني برتبة (كجك ضابط) وعندما انتهت الحرب عاد إلى مدينته وانخرط في حركة حقوق الإنسان وبدأ نضاله ضد الاستعمار الفرنسيّ، انتخب نائباً في البرلمان عن حلب عدّة مرات، وتولى وزارة الخارجيّة والداخليّة ورئاسة الوزراء، كما انتخب رئيساً للمجلس النيابيّ، كان رئيساً للوفد السوري في اجتماع توقيع برتوكول الإسكندريّة، ورئيس وفدها في اللجنة التحضيريّة للمؤتمر العربيّ الأول، وشارك في إعلان تأسيس جامعة الدول العربيّة، كرّس حياته ليرى سوريّة حرّة مستقلّة فلم يتسنّ له الزواج ولم يخلّف ولداً أو مالاً إذ باع ممتلكاته جميعها وصرفها على مشواره النضاليّ*

الطويل، وافاه الأجل في حزيران عام (1947)، وشيّعته الشهباء بموكب كبير جليل حاشد ووري الثرى إلى جوار رفيق جهاده الزعيم إبراهيم هنانو.

5. ساعة باب الفرج: ساعة باب الفرج صرح حجريّ بني في أوائل القرن العشرين إبّان الحكم العثمانيّ في عهد الوالي رائف باشا. وُضع أساس منارة الساعة في سنة (1316 هجرية) في موضع قسطل يعرف بقسطل السلطان أيّ السلطان سليمان خان العثمانيّ. وبلغ مصروف عمارة المنارة نحو (600) ليرة عثمانيّة جمعت من ذويّ اليسار والثروة. وكملت عمارتها في سنة (1317 هجريّة). وقد بنيت المكتبة الوطنيّة إلى جوارها ثم انتشرت الأسواق والدكاكين في محيطها وكان للساعة أربعة وجوه وجهان يقومان على التوقيت الشرقيّ ووجهان على التوقيت الغربيّ السائد في أيامنا. وقد انتشرت ظاهرة بناء الساعات الضخمة في المدن الكبيرة تيمناً بمدينة لندن وساعتها. توقفت الساعة مرات كثيرة وتم إصلاحها وإعادة عقاربها للدوران والحركة وأصبحت الساحة التي تجاور الساعة مكاناً لتنفيذ عقوبة الإعدام ليرتدع الناس ويلتزموا بالطاعة والقوانين. وبسبب خوف الناس من قيام الساعة بغتة فينفرط عقدهم ولا تقوم لهم قائمة بدأت تنتابهم المخاوف من الساعة فصعد أحدهم ودمّر الساعة من داخلها وقد لقي فعله استحساناً صامتاً من بعض المسؤولين.

(ورقة من مذكرات الحاج جلال الدين مكي من أوائل تجار الساعات السويسرية في ساحة باب الفرج).

الفصل السادس

طرائف ومآسٍ من عالم

جمهور المترددين على المحل العمومي

أغلب رواد منطقة بَحْسيتا هم من الشباب العُزّاب الماجنين منهم، وبعض المراهقين المتهورين، والعساكر، والغرباء الوافدين على المدينة، على أنّ هذا لا يمنع من تردد أبناء الطبقات المحافظة والمثقفة على المحل العمومي.

من المواقف الطريفة التي كثيراً ما تحدث في أزقته تلك المصادفات التي تجمع بين شخصين يعرفان بعضهما بعضاً فترى كلاً منهما يشيح بنظره عن الآخر ويسعى للابتعاد عنه وكأنه لم يلتق به يوماً قطَ خشية أن يسأله:

- ماذا تفعل هنا؟

دون أن يخطر في باله ولو للحظة واحدة أنّ الآخر يشعر بالحرج نفسه ويتحاشى أن يُسأل السؤال عينه، غير أنهما سرعان ما يستعيدان شيئاً من توازنهما حين يستحضران الجواب المعهود:

"والله هذه أول مرة أزور فيها هذا المكان، يعني من باب الفضول والاطلاع ليس إلّا، ولكن! صدقني لن أفعل شيئاً هنا".

لكن ترى بمَ سيجيبان حين تحشرهما المصادفة داخل أسواره مرة أخرى؟ وتقول لهما: بأيّ حجّة تكذبان، ها هنا ومن خلال ردّة فعل غير إراديّة ترتسم الابتسامة على وجهيهما وهكذا يغدو الأمر لهما مألوفاً.

يعتقد نفر من أبناء الشرائح الاجتماعيّة المثقفة والمحافظة أنّ ارتداء نظارة شمسيّة ذات عدسات داكنة يعدّ من الوسائل الناجعة للتمويه والتخفي عن أعين الآخرين ويجنبهم القيل والقال إزاء قصدهم المحل العمومي، العجيب في الأمر أنهم يتبعون هذا النمط من السلوك في ساعات النهار وفي مثيلاتها من ساعات الليل، ويفضل معظمهم زيارته على نحو منفرد إذ تجدهم حين يؤمّونه يسيرون في أزقته بخطوات متسارعة وقد أطرقوا رؤوسهم إلى صدورهم، كما أنهم يتعمدون عدم التوقف أو رمي أبصارهم على المومسات وإن كنّ في حال شبه عاريات، فيظهرون كما لو أنهم قدموا إلى هذا المكان لإنجاز مهمة عاجلة، أو أنهم يسعون إلى موعد عمل مهم إذ يبدو أنّ معظمهم يضمر نيّة مسبقة في التوجه نحو مومس بعينها.

من الحكايات الطريفة ثمّة ما يرويها أصدقاء ينتمون إلى غير مدينة سوريّة عن ذكريات ما تزال عالقة في أذهانهم فما إن يفرغوا من زيارة معالم حلب الأثريّة حتى تراهم يتقاطرون زرافات ووحدانا إلى منطقة بَحْسيتا، فجلّهم يمضي الجولة الحرة التي تمنحهم إياها إدارات الرحلات المدرسيّة بين أحضان المحل العمومي لما كانت

سمعته تحظى بشهرة واسعة دون سواها من الأماكن المشابهة المتناثرة في المدن السوريّة الأخرى إذ لم تكن تضمّ مقارّها الصغيرة سوى عدد قليل من المومسات.

وغالباً ما يفضون بهذه الأسرار عن استحياء، ولولا شعورهم بالحرج من أعمارهم ومن أولادهم لكانوا أوغلوا بالحديث عن شغب المراهقة وطيش الشباب.

والطريف أنهم يعلّلون إقدامهم على فعل هذا السلوك بأنه لا يتعدّى أن يكون ضرباً من الفضول، أو من باب حب الاطلاع ليس إلّا لا سيما أنّ الدخول والفرجة كانا بالمجان.

* * *

البصيرة

من الشخصيات الطريفة التي نالت شهرة واسعة وتركت بصمة وحضوراً لافتين أيام عز المحل العمومي رجل كفيف تعلق قلبه بفتياته وكواليسه فقد كان مولعاً بالتردّد عليه ومعاشرة نزيلاته، على أن أحدهم سأله في يوم من الأيام:

- كيف تميّز الجميلة منهنّ حين ترغب بمباشرة إحداهنّ، وأنت لا تسطيع رؤيتها والانجذاب لمفاتنها؟

فردّ عليه على نحو عفويّ، وبلهجة لا تخلو من سخرية:

- يا بَهيم! لا يحتاج الأمر لكثير من الذكاء إذ كلّما ارتفع أجر الواحدة منهنّ تناقص عمرها، وبالتالي زاد جمالها.

* * *

المعلم

حدثني أحد الأصدقاء عن ذكرياته في أيام المرحلة الثانوية فقد كانت تربطه علاقة صداقة بشاب يتمتع بحس الحماسة والجرأة،

وقد دأب هذا الشخص في تلك الفترة على التردّد على المحل العمومي، وهذا السلوك كان يعدّ نادر الحدوث بين أبناء الأسر التي تقطن في أحياء حلب الحديثة لا سيما الغربيّة منها وتنتمي إلى الشرائح الاجتماعيّة المثقفة والمحافظة.

فضلاً عن أنّ الإقدام على الذهاب إلى تلك المنطقة يعدّ ضرباً من المجازفة إذ باتت الشوارع والأزقة المحيطة بالمنزول في سنوات عمره الأخيرة مرتعاً لأولئك الذين يطلق عليهم الفئة الضالة ممن يمارسون أعمال النصب والاحتيال من خلال إتقانهم لألعاب الخفة مثل (الكشتبان، والثلاث ورقات، والسبعة خسرانة، وما إلى ذلك) إضافة إلى الذين يدمنون شرب المخدرات والخمور، ويتعاطون شتّى أشكال الفجور، وتلك الفئة الضالة لا شكّ في أنه ينطبق عليها المثل القائل:

(عاملين السبعة وذمتها).

ها هنا أشير إلى أنني سألت كثيراً وبحثت مطولاً، إلّا أنه لم أقف على تفسيرٍ شافٍ لهذا المصطلح رغم أنّ الحلبيين يتداولونه فيما بينهم على نطاق واسع، فهم يطلقون هذه المقولة على الأشخاص المارقين والأفّاقين والذين يتعاطون الموبقات بأنواعها، ويقابلها في اللهجة المصريّة الدارجة (مقطّع السمكة وذيلها).

بالعودة إلى قصة الشاب المقدام والممتلئ بالحماسة والتهور الذي كان يروي مغامراته في المحل العمومي لأصحابه بالتفصيل الممل مستغلًّا جهلهم الفطري في مثل هذه القضايا.

من أشدّ المواقف طرافة تجدها حين يبادر أصدقاؤه إلى سؤاله عن شكل الفرج فيقوم بوصفه من خلال حركات تعبيريّة إذ يبادر إلى وضع سبابة وإبهام يده اليمنى بجوار سبابة وإبهام يده اليسرى فيظهر شكلاً يثير في أخيلة ونفوس الناظرين أحلاماً براقة.

كثيراً ما كان يجلب معه الواقي الذكري وهو لم يزل ممتلئاً بسائله المنوي كمستند حي يثبتت من خلاله بأنه فعلاً ذهب إلى هناك. كما أنه كان يخبرهم عن بعض عادات المومسات حيث تلجأ الواحدة منهنّ حين لا يعجبها الزبون إلى وضع لحسة من دهن القطن بحركة خفيّة وماكرة على فرجها لتطريته، إضافة إلى إتيانها ببعض الحركات المفتعلة مع قليل من الآهات المزيفة. فتتخلص منه بسرعة إثر بلوغه قمة الشهوة بأعجل مما كان يتوقع، على أنك تراه في منتهى السعادة إذ يُخيل إليه بأنهما قد حقّقا ذروة المجد معاً، وهذا يعدّ بمفاهيم المحل العمومي نصراً مؤزّراً يستحق التحيّة.

* * *

أوهام المتعة

لقد سمع أحد أصحابي كثيراً عن المحل العمومي وعن نزيلاته وعن سهولة الوصول إلى مخادعهنّ عندما كان يتابع دراسته الثانويّة في بلدته القريبة من حلب، ولكن قصر ذات اليد وخشيته من غضب أفراد أسرته وعقابهم حرمته من اجتياز أسواره وإن كان للفرجة فقط.

أمّا الآن، وقد امتلك المال والحرية معاً إثر انتسابه إلى جامعة حلب للدراسة، فلا مناص من زيارة هذا المكان وإشباع نفسه الجائعة.

في إحدى الليالي الباردة دهمته الأوهام ولم تبرحه إلّا حين وجد نفسه يتخطى بوابة المتعة بهمة عالية وشغف هادر، وما هي إلّا ثوانٍ معدودة حتى خطفته إحدى ربات الحكمة ورمته فوق سريرها.

البرد الشديد الذي شعر به في تلك الليلة الشتويّة القارصة، فضلاً عن تهكمات المومس ومزاحها السمج جعلت الشهوة لديه تتقهقر إلى

الدرجة التي لم يعد قادراً فيها على اقتناص وإن قليلاً من المتعة مقابل النقود التي استقرّت في عبّها، فقد ذهبت هباءً منثوراً.

على إثر ذلك انقلب إلى غرفته الصغيرة بخفّي حنين، ومن حسن الحظ أنّ تلك التجربة الفاشلة ظلت متوارية في ثنايا ذاكرته دون أن يكون لها أي أثر سلبي على حياته وكبريائه الرجولي، على أنّ الأمر لا يخلو من فائدة إذ إنّ تفاصيل هذه الزيارة المشهودة أثْرت مواضيع كتابي ولونته حين بُعثت من جديد على يديّ صفحاته.

* * *

الطالب والأستاذ

حدثني أحد الأصدقاء عن أيام الصبا والمراهقة وعلى الرغم من أنه لم يتمكن من عبور بوابة المحل العمومي إلّا أنّ تلك الحادثة ما تزال عالقة على جدران ذاكرته.

بعد تشجيع من الأصحاب توجه صديقي إلى منطقة بَخْسيتا وفي صدره تختلط مشاعر مضّطربة، فمزاجه كان أقرب إلى الرصانة منه إلى التهور، وبمعنى أوضح كانت قدماه تسيران خطوة إلى الأمام وخطوتين إلى الخلف، وما إن وصل إلى مدخل المنزول حتى أخذ مكانه في طابور طالبي المتعة وقد أمال رأسه إلى الأسفل كنوع من التمويه والتخفّي، ويبدو أنّ تلك الحادثة جرت في يوم من أيام العيد أو ما شابه، وحتى إذا ما رفع صديقي رأسه قليلاً إلى الأعلى وقع بصره على أحد أساتذته وهو يبرز هويته للشرطي في مقدمة المصّطفين، فاستبدّ به الارتباك والخوف وانسحب من الطابور على عجل وأطلق ساقيه للريح غير آسف أو نادم.

على أنّ نفسه أنّبته فيما بعد على هذا التصرف الأخرق إذ إنه لم يستثمر هذه المصادفة الفريدة التي جاءته على طبق من ذهب، فقد

فوّت فرصة عقد صفقة صداقة من نوع خاص مع أستاذه، فهو لم يدرك في تلك اللحظات أنهما كانا في الهوا سوا.

* * *

منافسة غير تقليدية

من غرائب فترة المراهقة وطيشها إقدام بعض الفتية على الدخول في منافسة غير تقليديّة وغالباً ما يكون أهم أسبابها التحدي الذي ينشأ بين صديقين مراهقين، وجوهره الخلاف على من يمتلك قضيباً ذا مواصفات أضخم وأطول، آنذاك يلجأان إلى المحل العمومي والاتفاق على الدخول واحداً تلو الآخر إلى مخدع إحدى المومسات بعينها للفصل بينهما.

في هذه الحال تُختبر مصداقيّة المومس إذ يتوجب عليها الإقرار بموضوعية وعلى نحو محايد والحكم علناً، وعلى ضوء شهادتها يفوز أحدهما، في حين يتكفل الخاسر بدفع أجور العمليّة الجنسيّة عن كليهما.

* * *

جحشة أبي صالح

أبو صالح رجل بسيط تغلب عليه علامات الغفلة والطيب، يسوق جحشته في ساعات النهار ويعود بها ليلاً إلى داره وقد امتلأ (الشليف)[1] المثبت على ظهرها بما جادت عليه منطقة باب الفرج والشوارع المحيطة بها من قشر الجبس والبطيخ وما شابههما، ولا تستثنى أزقة المحل العمومي من جولته اليوميّة على نحو بات فيه عبور جحشته من بوابة المنزول أمراً مألوفاً.

في ظهيرة يوم من الأيام كانت عينا فتى يافع تتابعه وتلاحقه على نحو ماكر إذ ما إن ربط أبو صالح رسن جحشته حول أحد الأعمدة

الخشبيّة طلباً للراحة في أحد الأزقة القريبة من المنزول حتى امتدّت يد الشاب إلى الرسن وحرّرته، وخلال دقائق معدودة عبر الفتى القاصر بيسر وهدوء بوابة المحل العمومي وهو ممتطٍ الدابة المستكينة ومتخفياً بجمدانة تشبه تلك التي يستخدمها أبو صالح مستعيناً بروائح الشليف الواخزة إذ كان ينفر منها كل من يمر بجواره.

أنجز الفتى القاصر مهمته بنجاح وخرج من بوابة المحل العمومي وقد ارتسمت علائم الانتصار على وجهه دون أن يضبطه رجال الأمن المسؤولون عن منع الذين ما زالوا تحت سنّ الرشد من دخول هذا المكان إذ تمكن من خداعهم على نحو حاذق دون أن يضطر إلى رشوتهم.

أعاد الفتى الجحشة إلى حيث يغط صاحبها في غفوته الوادعة دون أن يدري بأنه قدّم خدمة جليلة لهذا الشاب النبيه الذي مضى وهو مرفوع الرأس إثر تحقيق حلمه الذي ركب الصعاب من أجله.

* * *

حلال المشاكل

روى لي هذه القصة الطريفة الصديق (م.ن) وتعود أحداثها إلى بداية السبعينيّات من القرن الماضي عندما وقع (نادي حلب الأهلي)[2] في حيص بيص إثر تنظيمه لدورة وديّة بكرة الطائرة، دعا إليها بعض الفرق العربيّة والمحليّة، وكان من أبرزها نادي البوشريّة بطل لبنان، ونادي اللاذقيّة بطل سوريّة آنذاك .

المشكلة تجسدت في عدم إقبال الناس على مشاهدة مباريات تلك الدورة على الرغم من اشتراك نخبة من الفرق العريقة في هذا المضمار إذ لم تكن تحظى لعبة كرة الطائرة بالشعبيّة لدى محبيّ ومتابعيّ الرياضة في حلب، فقد كانت كرة القدم كالعادة تستأثر بهوى الشريحة العريضة من الجماهير الرياضيّة في المدينة واهتمامهم.

لمّا كانت الأندية في تلك المرحلة تعتمد على مواردها الذاتيّة وعلى رأسها إيرادات شباك التذاكر فقد خشي أعضاء مجلس الإدارة في ثاني أيام الدورة من تفاقم مشكلة تغطية نفقاتها وشعروا كما لو أنهم سقطوا في فخ مغامرة غير محسوبة، وأنهم دون أدنى ريب سيتكبدون خسائر ماديّة ثقيلة إثر عزوف الجماهير عن حضور المباريات رغم أنها كانت تجري بمستوى فني رفيع فاقترح أحدهم اللجوء إلى حل سريع ينقذ الموقف.

دون طول سيرة استقر الرأي على أن تستعين الإدارة بأبناء النادي المتنفذين في الأماكن العامة، ومنهم صديقنا الرياضي المرموق الذي كان يمضي في تلك الفترة خدمته الإلزاميّة مسؤولاً عن مفرزة الأمن في المحل العمومي، وما أدراك ما المحل العمومي، ما هو إلّا المكان الذي كان يتوافد إليه طالبو المتعة في حلب حتى منتصف سبعينيّات القرن المنصرم.

لمّا كان صاحبنا من أبناء النادي المخلصين فقد سارع بحماسة إلى تلبية النداء ولم يكذب خبراً إذ لم يتمكن من بيع ستة دفاتر كاملة في اليوم الأخير للبطولة فحسب بل استطاع تصريفها في عدة ساعات فقط.

لا عجب في ذلك فقد حشر صديقُنا ذو الأفكار الخلاقة روادَ المحل العمومي بين خيارين لا ثالث لهما، فإمّا عبور بوابة المتعة بعد شراء البطاقة، وإمّا المنع والحرمان، ويبدو أنّ الإذعان واللهفة كانا سيدا الموقف.

وإذا عرفنا أنّ سعر البطاقة آنذاك كان ليرة سوريّة واحدة، وأنّ الدفتر يحتوي على خمسين بطاقة، فمن السهل جداً الاستنتاج أنّ إجمالي ما حقّقه بمفرده من مبيعات بلغ ثلاثمائة ليرة سوريّة بالتمام

والكمال، ويعدّ هذا المبلغ في منطق تلك الأيام رقماً لا يستهان به على الإطلاق لا سيما إذا عرفنا أنّ سعر غرام الذهب في تلك الفترة لم يكن يتجاوز حاجز أربع ليرات سورية على أحسن تقدير.

في الوقت نفسه تنمّ هذه الحادثة العجيبة بصورة لا تدعو مجالاً للشك على الرغبة الجامحة والإقبال المهول لجماهير حلب الخشنة على منازلة الأجساد الناعمة في المنزول.

بذلك يكون صديقنا الرياضي المشهور صاحب المواهب المتنوعة (رحمه الله) قد قام بالمهمة على أكمل وجه، وحل مشكلة النادي على نحو بارع ومدهش.

الطريف في الأمر أنّ صديقنا حلال المشاكل بدا غاضباً بعد انتهاء البطولة إلى الدرجة التي قام فيها بتوجيه أشدّ عبارات اللوم والعتاب إلى أعضاء مجلس الإدارة جميعهم ولا سيما صاحب فكرة الاستنجاد بأبناء النادي المتنفذين والاستعانة بمراكزهم الحسّاسة، وذلك لقلّة فطنته ولعدم طرح فكرته الجهنميّة في الوقت المناسب قبل بدء فعاليات الدورة بزمن معقول، ولو أنهم فعلوا ذلك لأصبحت الغلّة محرزة وأكثر وفرة.

* * *

غداء بخمس ليرات

حدثني أحد الأصدقاء عن ابن عمه الذي لم يكن يتجاوز عمره السابعة عشرة حين جرت هذه القصة الطريفة في ستينيّات القرن الماضي، فقد كانت أسرة صديقي تملك محلاً تجارياً في أول شارع بَخسيتا.

في يوم من الأيام اكتشف ابن عمه الأكبر نقصاً في غلّة الصندوق مقدارها خمس ليرات سورية، ويعدّ هذا المبلغ آنذاك مبلغاً كبيراً.

حين سأل أخاه الأصغر الذي كان يتردّد على محل العائلة ليشغل وقته بشيءٍ مفيد خلال الإجازة الصيفيّة ومحاصرته بالأسئلة والاستفسارات المتلاحقة لم يكن أمام الفتى الصغير سوى الإقرار بأنه هو من أخذ النقود من الصندوق دون علم أحد فسأله متعجباً:

- ما حاجتك إلى هذا المبلغ الكبير كله؟

فأجاب بعفويّة لا تخلو من الغفلة:

- كنت جائعاً فأخذتها لأتناول الطعام.

فهب عليه بنبرة نزقة:

- نعتك وصفتك إيش أكلت، إي خمس ليرات تكفي لإطعام عشرة أشخاص وأكثر.

عندما هدّده بإبلاغ والدهما بما جرى أقرّ بما فعل متعلّلاً بشغفه الذي بات يقضّ مضجعه، ومتوسلاً إيّاه أن يبقي الموضوع سراً بينهما، ثم أخبره بأنه تناول وجبة دسمة بربع ليرة، ودفع ليرة سوريّة كاملة للشرطي المرابط عند بوابة المحل العمومي ليتيح له تخطي بوابته بسلام، وثلاث ليرات ونصف كانت من نصيب أول مومس وقع بصره عليها التي أتاحت له تحقيق حلمه بالعبور وتذوق الجنس أوّل مرّة في حياته، وبقي معه ربع ليرة سوريّة فقط، فبادر إلى إعادتها إلى أخيه الأكبر لعلها تطفئ قدراً من نار غضبه.

ما إن فرغ من روايته المثيرة حتى جعل رقبته تميل قليلاً نحو الأمام مصطنعاً هيئة من سقطت عليه فجأة مشاعر الخجل والندم على أنّ ذلك لم ينجه من الصفعة التي هبطت على صفحة وجهه كالصاعقة التي ظلّ أثرها محفوراً في ذاكرته ومعلّماً في وجدانه على مدى سنوات طوال.

* * *

القبضاي

حدثني أحد الأصدقاء عن شخص نال شهرة من نوع خاص في حيّ الجميليّة لما رافقت سيرته من غرائب ومآسٍ في الوقت نفسه.

وعلى الرغم من أنه كان ينتمي إلى إحدى الأسر الحلبيّة المعروفة فإنه لم يكن من أولئك المغرمين بالدراسة ودروبها. فغدا واحداً من رواد المقاهي والمطاعم الرخيصة وانغمس في لعب الورق وتناول الخمور وتوابعها.

وبات من الطبيعي أن تنزلق قدماه تدريجيّاً على خطا رفاق السوء إلى زواريب المحل العمومي لما تتمتع أجواؤه بالإغراء والجاذبية لأمثاله من فئة الخارجين عن قانون الحياة الطبيعيّة وعن طوع أسرهم وأخلاقيّات مجتمعاتهم.

وهكذا ولكي يكون واحداً من قبضايات المحل العمومي كان لا بدّ له من أن يرتبط اسمه بإحدى مومسات المنزول فاستمال قلب إحداهنّ، وأعتقدُ أنها هي التي أوهمته بتعلّقها به حين وجدته شاباً يافعاً ممتلئاً بالغرور والتهور ويمتلك جسداً يفيض بالقوة والحماسة، وهي الصفات التي تحتاجها نزيلة المحل العمومي أن تتوافر في الشخص الذي ستهبه قلبها وجسدها ومالها بغية الشعور بشيء من الأمان، وبذلك أصبحت خليلته وصار صاحبها متحديّاً غضب أفراد أسرته واستياءهم دون الشعور بأدنى ندم أو غضاضة حيال الإهانة والأذى اللذين لحقا بسمعة أهله. وأمسى أحد أولئك القبضايات المعروفين في عالم المحل العمومي المترع بالأسرار والمجون.

لم تهتز في جسده شعرة واحدة إثر لفظه من قِبل مجتمعه فقد غدا شخصاً منبوذاً من أهله وأصدقائه ومع ذلك أوغل في حبه لتلك الفتاة وإخلاصه لها إلى الحد الذي بات فيه يغار من الزبائن المترددين على مخدعها، ولمّا كان ما تجنيه من مهنتها جعلهما يتوهمان بأنهما

يعيشان حياة رغيدة كان لا بدّ له من أن يعتاد دخول طالبي المتعة وخروجهم من غرفتها بل أرغم نفسه على قبول هذا الواقع لئلّا يفقدها ويخسر مكانته في المحيط الذي لم يعد يطيق الابتعاد عنه.

استمرت هذه الحال إلى أن جاء يوم لم يستطع فيه أن يتحكم بأعصابه حين تعمدّ أحد زبائن صاحبته المخمورين بمشاكسته بعد أن فرغ من معاشرتها عندما نعته بالقواد، فدبت الحميّة في رأسه إذ كان يعدّ نفسه صاحبها وعشيقها وليس أجيراً عندها، وفي الحقيقة كان يقوم بمهام القواد دون أن يدري بل إنّ حاله تلك جمعت ما بين صفات القواد والسيفونجي.

في خلاصة الأمر اشتعل الغيظ في رأسه فهجم على غريمه لينتقم لشرفه المهدور (وكأنّ شرفه لا يهدر إلا بالتصريح) فنشبت معركة حامية الوطيس بين الاثنين، رشح عنها استقرار القبضاي المزيف في أحد عنابر سجن حلب إثر الحكم عليه بجريمة القتل العمد، في حين بادرت خليلته المزعومة إلى استبداله بمغامر آخر عقب أيام قليلة من إدانته.

بعد خمسة عشر عاماً خرج من حبسه مذموماً مدحوراً فلم يستقبله سوى العوز والحاجة والعمل كأجير في أحد الأفران، ولم يطل به المقام إذ لاقى وجه ربه دون أن يظفر بشيءٍ لا في الدنيا ولا في الآخرة.

* * *

صاحب الكديش

جرت هذه الحادثة الطريفة في إحدى بلدات الريف الإدلبي حيث كان يتردّد على تلك القرية بين الفينة والأخرى شاب بهي الطلعة قوي البنية وبرفقته (كديش)[3] هرم لا فائدة مرجوّة منه، وأغلب الظن أنّ

أصحابه الأصليين تخلوا عنه وتركوه شارداً في البراري ليقينهم بانتهاء صلاحيته وأنّ طعامه بات خسارة وعبئاً ثقيلاً عليهم.

التقطه بطل حكايتنا وجعله ملازماً له وكان يشتري له العلف والمأكل ويقدمها له رغم معرفته بعدم الاستفادة منه كوسيلة للنقل أو للخدمة.

أمسى هذا الرجل محطّ إعجاب أهالي البلدة وأبناء القرى القريبة لا سيما الشباب منهم لما وجدوا منه من عطف وإحسان لذلك الحيوان البائس.

ولكن كما يقال يبطل العجب عندما يعرف السبب فقد تمكن أحد أبناء المنطقة الظرفاء من رصد تحركاته. ولاحظ أنّ هذا المحسن الكريم اعتاد الذهاب إلى حلب في كل يوم خميس ويعود في اليوم التالي إلى قريته، وكان ينزل في تلك الليلة ضيفاً عند إحدى فتيات المحل العمومي، إذ تبيّن لاحقاً أنها وقعت في غرامه منذ مدة ولا تقوى على فراقه، وأنها كانت تهبه ما يشاء من الحب والمال، ولمّا كان صاحبنا لا يبذل أدنى جهد في جني النقود بات من السهل عليه أن يصرفها دون حساب على حيوان عجوز لا يقوى سوى على التهام الطعام والسير بخطوات الهوينا.

على الرغم من انكشاف سرّه فإنه ظلّ وفيّاً لصاحبيه (المومس، والكديش) دون أن يشغل نفسه بالتعليقات السلبيّة منها كانت، أو الإيجابيّة المتهافتة عليه من أهالي بلدته ومن ساكني القرى المحيطة بها.

في الختام لا يسعني القول سوى: إنّ لله في خلقه شؤوناً.

* * *

1. الشليف: وهو الشوال الذي يوضع على ظهر الدواب.

2. نادي حلب الأهلي: يعدّ من أكبر الأندية السوريّة، وأوسعها جماهيريّة، وأكثرها حصداً للبطولات المحليّة والإقليميّة في الألعاب الرياضيّة كافة. انطلق بشكل رسمي عام (1951) إثر اندماج ثلاثة فرق شعبيّة وهي:

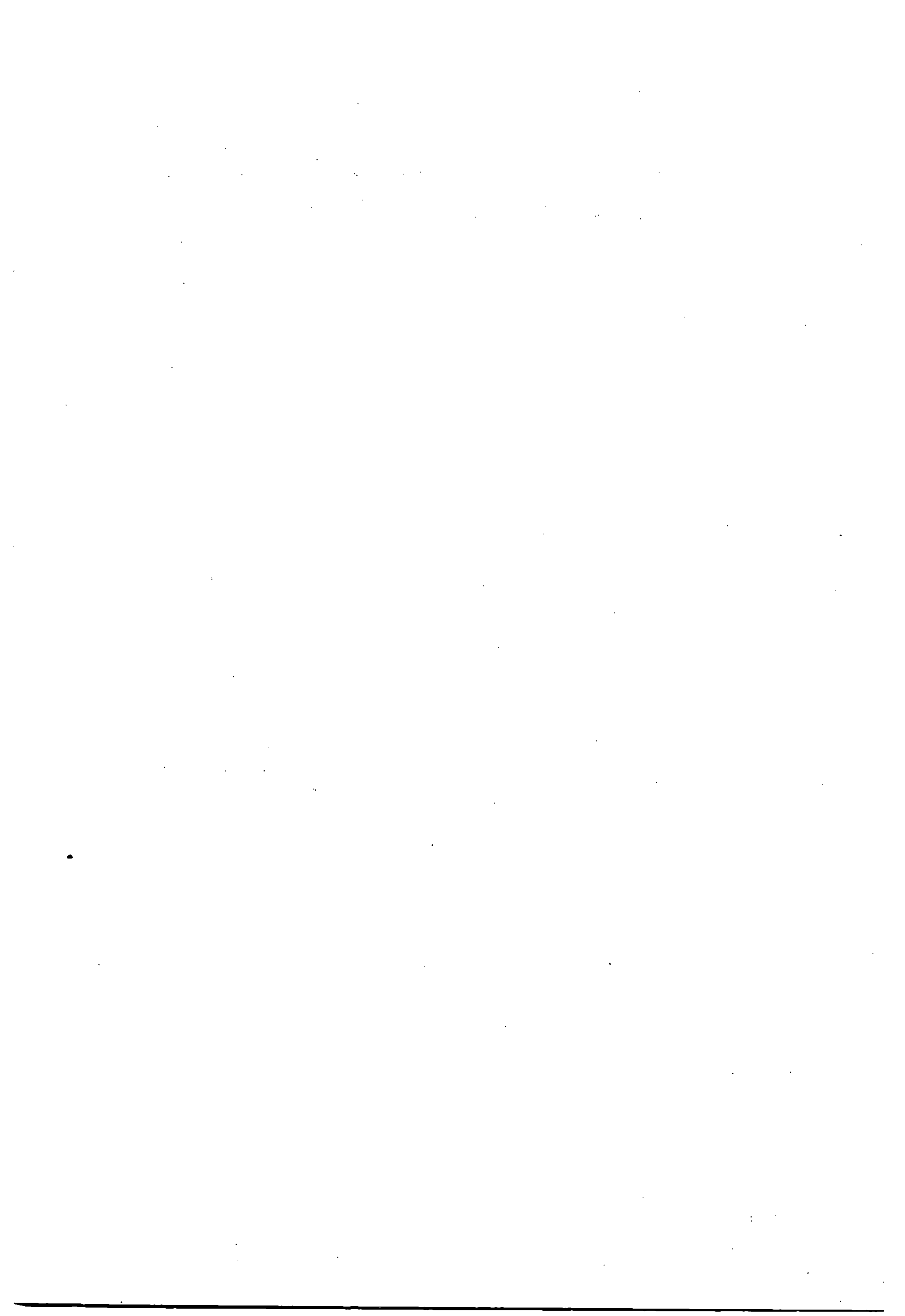
أ – أسود الشهباء، وأشرف عليه محمد كيال.

ب – النجمة، وأشرف عليه أحمد ملقي.

ج – المعري، وأشرف عليه المربي صبحي غضنفر.

تم إشهار النادي بتاريخ (1953/01/25) وتحول اسمه من نادي حلب الأهلي إلى نادي الاتحاد الرياضي بعد صدور المرسوم التشريعي رقم (38) لعام (1972)، يقع مقرّه القديم في حي الجميليّة، والجديد في حي الشهباء أرقى أحياء مدينة حلب.

3. الكديش: أو النغل في اللغة العربية، وهو نتاج حمارة أنثى وحصان ذكر، وهو هجين مرغوب بشكل أقل من البغل الذي هو هجين أيضاً ونتاج حمار ذكر وأنثى حصان.



الفصل السابع

طرائف ومآسٍ من عالم

نزيلات المحل العمومي

كبرياء

على الرغم من أنّ نزيلات المحل العمومي يتعرضن لكثير من المواقف البائسة والحرجة ويتلقين من الزبائن تعليقات لا تخلو من السماجة والسخرية، فإن أغلبهنّ لا يرضين بالإهانة حين يشعرن بأنّ هذه التعليقات تلامس كرامتهنّ مباشرة، ولعل هذه القصة البسيطة توضح بروز كرامة المومس وكبريائها على نحو عفوي حين تشعر بالإهانة.

بينما كان شخصان يتسكعان في أزقة المنزول مرّا بجوار مجموعة من الفتيات فأعُجب أحدهما بواحدة منهنّ، فالتفت صوب البترونة وسألها بنبرة فيها شيئ من الازدراء والغطرسة:

- شقد صوابَ هي؟

كان يريد بهذه العبارة: كم هو أجرها لتقديم الخدمة الجنسيّة؟

فردت عليه الفتاة التي أشار إليها بصوت متمرد على الذل والخنوع:

- والله! إذا لم يبق زبون غيرك في المنزول، ولو أنك عرضت عليّ أجراً مائة ليرة لن أسمح لك أن تتخطى عتبة غرفتي وأن تلمس شعرة من جسدي.

* * *

أخبار سعيدة

وقع العاملون في مديريّة البريد بحلب في حيص بيص حين استلموا برقيّة مرسلة على نحو عاجل من إحدى المحافظات الشرقيّة إلى واحدة من نزيلات المحل العمومي إذ لم يكن ورود مثل تلك البرقيات مألوفاً بل يكاد يكون نادراً.

على إثر ذلك دب الخلاف بين سعاة البريد، وبعد شدّ وجذب استقر الرأي على تكليف (أبو العون) للقيام بهذه المهمة وهو رجل يتمتع بشخصيّة مسالمة ومرهفة، وكان يُدرّس إضافة إلى عمله في دائرة البريد مادة العود في (معهد حلب الموسيقي)[1] فتوجه من توه إلى منطقة باب الفرج وقد فاضت روحه بالحرج والحياء، ولكن ليس باليد حيلة فعمله يملي عليه توصيل الرسائل والبرقيات إلى أماكن إقامة أصحابها، على أنه كان يخشى أن يلتقطه بصر أحد معارفه فلن يسلم حينذاك من تعليقاته ولا من تلميحاته، فلن يصدق ولو بلع له ورق المصحف ورقة ورقة بأنه جاء إلى هذا المكان في مهمة عمل وليس من أجل زيارة خاصة.

حين اقترب من المحل العمومي شرعت قدماه بالاستعجال آملاً أن يعينه هذا السلوك على التخفي من نظرات أصحاب المحلات ورواد السوق، وما إن عبر بوابته حتى أخذ يسأل عن فتاة تدعى (تفاحة)،

وحين استدلّ على مكانها سلّم البرقيّة إلى القواد بدلاً منها إذ يبدو أنها كانت منهمكة في أداء عملها.

سارع القواد إلى توصيل الأمانة إلى (تفاحة) إثر اطّلاعه على مضمونها في حين كان ساعي البريد يسابق الريح جاهداً إلى التحرر من موقف لا ناقة له فيه ولا جمل.

على أنّ الزغاريد لعلعت في فضاء المحل العمومي قبل أن يتمكن الساعي المسكين من تخطي بوابته الخارجيّة، وما إن اقترب منها حتى تناهى إلى سمعه نداءات القواد المتلاحقة التي تطالبه بالتوقف والعودة سريعاً إلى ست (تفاحة)، فقد تبيّن أنّ الأخبار التي تحملها البرقيّة جلبت لها الفرح والسرور إذ كانت تشير إلى أنّ والدها مات مقتولاً وأنّ أخاها الوحيد تشرد في بلاد الله الواسعة ولم يعد له أدنى أثر.

ما إن انتصب أمامها حتى ألقت بجسمها نصف العاري على جسده المرتبك، وراحت تقبله بنهم تعبيراً عن سعادتها الفائقة وسط مزيد من زغاريد الفرح والغبطة المنطلقة من حناجر صديقاتها، ومن شدّة تأثّرها منحته مبلغاً من المال يعادل في تلك الفترة قيمة عشرة غرامات ذهب بالتمام والكمال.

لم يستوعب الساعي ما يحدث حوله إذ جرت الأمور عكس ما كان يتوقعها تماماً، على أنه سارع إلى مغادرة المحل العمومي دون أن يستجيب لعرض (تفاحة) المغري بخوض جولة مجانيّة في مخدعها المنتعش مكتفياً بإكراميتها المجزية.

إلى ذلك مضى كل إلى غايته وقد غمرتهما السعادة فقد باتا متحررين ولكن كان كلّ منهما يغني على ليلاه.

* * *

على رأس عملها

روى لي أحد الأصدقاء حادثة جرت في كواليس المحل العمومي في أيامه الخوالي، وظني أنّ مجرياتها تنتمي إلى عالم الطرافة والغرابة في آنٍ واحد رغم أنّ نهايتها كانت مأساويّة.

يُحكى عن رجل من أصول كرديّة كان قلبه معلقاً بزواريب المحل العمومي على نحوٍ يكاد لا يمر فيه مطلع شمس دون أن يزوره وإن كان مروراً خاطفاً.

نال هذا الرجل شهرة من نوع خاص في أزقة المحل العمومي لما يتمتع به جسده من قوة خارقة يندر توافرها عند الناس الطبيعيين وهذا ما دفع أغلب المومسات إلى النفور منه خشية إصابتهن بما لا يحمد عقباه.

في أحد الأيام تجرأت إحدى البترونات العتيقات على دعوته إلى مخدعها رغم اعتراض زميلاتها والعاملات تحت جناحيها إذ لم تقو على رفض عرضه المغري، فضلاً عن روح التحدي التي اعترتها بغتة، فقد دخل الرجل عليهنّ على غير عادته وهو يحمل ليرة ذهبيّة، وكان يقوم برميها في الهواء ثم ما يلبث أن يلتقطها بحركة استعراضيّة، مشهد ليس له إلّا أن يثير الفضول في نفوسهنّ إذ يبدو أنه قرر في ذاك اليوم ألّا يعود خائباً، آملاً في أن تعينه هذه الحيلة على اختراق الحظر الذي فرضته عليه معظم نزيلات المحل العمومي.

على إثر هذه المجازفة وقع ما كان متوقعاً، فقد نقلت البترونة على جناح السرعة إلى أقرب مستشفى وهي في حالة إغماء عميقة، وقد دوّنَ المحقّق لاحقاً في محضر الشرطة أنّ المغدورة توفيت وهي على رأس عملها إثر نزيف شديد نجم عن تمزق داخلي حصل بطريق الخطأ لا شبهة جرميّة فيه حيث تبيّن للطبيب الشرعيّ الذي كشف

على الجاني والمجني عليها أنّ أداته الضخمة كانت وراء موتها، وهي لا تمت إلى البشر العاديين بأدنى صلة.

إزاء هذه الحقائق الطبية لم يكن أمام السلطات المحليّة سوى الإفراج عنه بعد أن أرغمته على توقيع تعهد بعدم الاقتراب من المحل العمومي ما دامت أداته الجنسية تشكل تهديداً وخطراً مباشراً على حياة نزيلاته.

تناولت الألسنة حكايته وقيل عنه أخبار كثيرة، وأشدّها غرابة تلك التي تحدّثت عن دموعه لمّا اختلطت بالحبر الذي وقّع به ذاك الإقرار، وقيل إنه قضى ما تبقى من حياته مكسور الخاطر متسكعاً في الأزقة المشرفة على أطلال المحل العمومي وهو يشعر بالغيرة ومطلقاً آهات الحسرة إثر عبور كل قادم إلى بوابته أو خارج منها.

* * *

الصدقة

تسود مفاهيم وعادات إنسانيّة متشابهة عند أغلب شرائح المجتمع الحلبي إذ من جهة يصف العامة من الناس أولئك الذين ابتلوا بعاهة الصمم والبكم بالمساكين ويعتقدون دون أدنى شك بأنهم يستأهلون الإحسان والصدقات، ومن جهة أخرى فإنّ المنتمين إلى هذه الفئة يتمتعون بحس مرهف، ويغلب على سلوكهم الحياء واللطف الشديدان، بيد أننا لا نملك تفسيراً لنشأة هذه القناعات وما هي جذورها، إذ يوجد بين ظهرانيهم الغني والفقير أسوة بالشرائح المجتمعيّة الأخرى، إلى ذلك فإن كل ما يسود من أعراف وثقافات خارج أسوار المحل العمومي تنسحب على مجتمعه الصغير داخله.

فقد حدثني أحد الأصدقاء عن قصة جرت مع صاحبه في أزقة المحل العمومي فقد أُعجب هذا الشخص في يوم من الأيام بإحدى

نزيلاته الجديدات غير أنه لم يكن في تلك الساعة يملك ثمن العبور فتفتّق عقله عن خطة جهنمية أتاحت له تحقيق غرضه دون أن يدفع قرشاً واحداً.

ربض صاحبنا على بعد عدّة أمتار من مخدعها وراح يرقب إطلالتها بين جولة وأخرى، وما إن يقع بصرها عليه حتى يشرع بأداء حركات توحي بأنه أبكم إذ كان يجيدها على نحو متقن إثر مخالطة جاره الأخرس لفترات طويلة.

ولمّا كان المعجبون بتلك المومس أكثر من الهم على القلب فقد أخذت حركاته الوادعة تثير مرّة بعد مرّة نوازعها الإنسانيّة الكامنة إثر خروجها المتكرر من غرفتها، ومع التقاط حدسه بأنّ الضحية شارفت على السقوط في فخّه أنشأ في إظهار إعجابه بها من خلال إشارات ذات دلالات موحية تعبر عن رغبته في معاشرتها، وتشير في الوقت نفسه إلى أنه لا يملك المال الكافي لتحقيق بغيته.

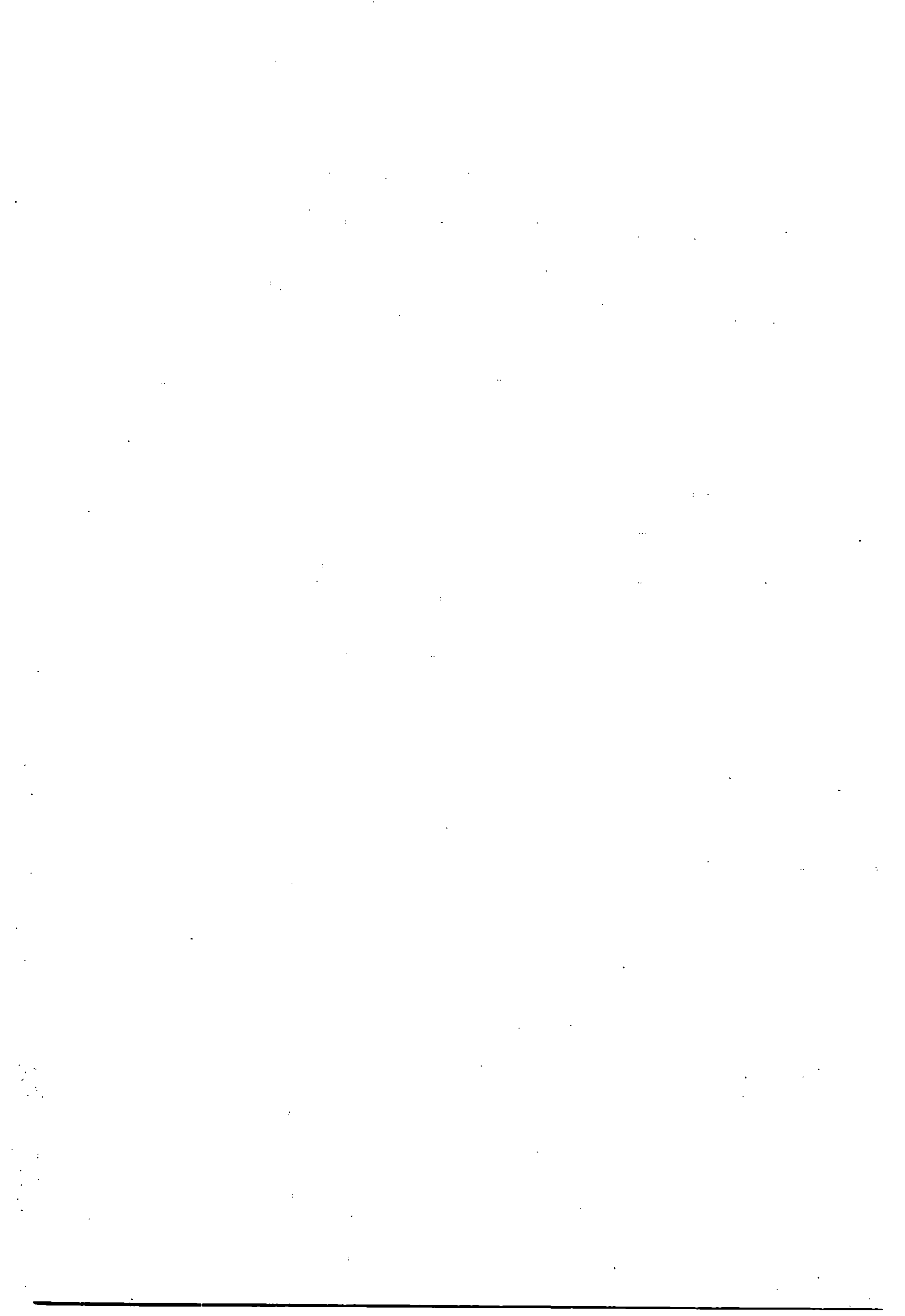
راحت مشاعر العطف والشفقة تتصاعد، وحين بلغت ذروتها لم تعد تقوى المومس على كبحها فأومأت له بالقبول غير عابئة بطابور زبائنها المتلهف، وسمحت له بعبور سريرها بالمجان وقد فاضت مشاعرها بالسلام الداخلي إذ اعتقدت في تلك اللحظات بأنّ صدقتها تلك لا بدّ من أنها وقعت في محلّها.

وقبل أن يتخطى صاحبنا الباب الخارجي لدارتها استدار نحوها وأمطرها بعبارات مفعمة بالشكر والثناء، ثم أرسل لها قبلة في الهواء كانت كافية لإثارة أشدّ مشاعر الغيظ في صدرها.

أرغت وأزبدت دونما فائدة فقد انطبق على وضعها المثل الشعبي القائل: اللي ضرب ضرب واللي هرب هرب.

* * *

1. معهد حلب الموسيقي: أسسه الدكتور فؤاد رجائي آغا القلعة عام (1946) في منطقة تراب الغرباء بالقرب من محلة باب النصر، وكان اسمه معهد الموسيقا الشرقيّة، وقد موّله من موارده الماليّة الخاصة، أقفل المعهد بعد حوالي العام ليتم افتتاحه مرة أخرى عام (1949)، ضمّ المعهد كبار أساتذة الموسيقا في حلب مركز الإشعاع الموسيقي في العالم العربي أمثال الشيخ علي الدرويش، والشيخ عمر البطش، وأستاذ الكمان من أصل روسي ميشيل بورزنكو، وأستاذ القانون شكري إنطكلي، وأستاذ العود محمد رجب، وقام بتدريس التاريخ الموسيقي في المعهد الدكتور فؤاد رجائي، كما أنه افتتح قسماً لتعليم الفتيات الموسيقى مستغلاً مكانته الاجتماعيّة لإقناع أهاليهنّ، قامت الحكومة بتأميم المعهد عام (1956)، وأغلق في عام (1959) لأسباب مجهولة، وافتتح من جديد بشكل رسمي عام (1963) إثر صدور قرار حكومي بإنشاء معهدين للموسيقا في كل من دمشق وحلب تحت اسم المعهد العربي للموسيقا.



الفصل الثامن

نهايات

أخيراً، وبعد تاريخ حافل، ومسيرة عامرة مليئة بالخبايا والأسرار أُدخل المحل العمومي في شيخوخة مبكرة حين أصدر الرئيس الراحل (جمال عبد الناصر) إبّان الوحدة بين مصر وسوريّة القانون رقم (10) في عام (1961) الذي قضى بإلغاء دور الدّعارة المرخصة في مدن الجمهوريّة العربيّة المتحدة كافة، غير أنّ المحل العمومي في حلب تمرد على هذا القرار وقاومه حتى الرمق الأخير، مدافعاً عن تاريخه ووجوده إذ لم يتوقف عن تقديم خدماته فوراً بل خفت بريقه تدريجيّاً إلى أن أُطفئت أنواره بشكل نهائي في عام (1974)، وهدمت معظم مبانيه ضمن إطار المشروع الذي تصدّت له بلدية حلب بغية تحسين منطقة باب الفرج التي تقع في وسط المدينة التجاري.

لعمري! إنّ قرار السلطات المحليّة بهدم جزء كبير من حيّ بَحْسيتا ومنطقة باب الفرج كان من أسوأ القرارات وأقساها على النسيج العمراني لأحياء حلب القديمة.

إلى ذلك تجدر الإشارة إلى أنّ معظم المومسات اللاتي واظبن على ممارسة عملهنّ في المحل العمومي في سنواته الأخيرة كنّ من ذوات الأعمار الكبيرة، وقلّما تجد بينهنّ واحدة لم تتجاوز الأربعين من عمرها إذ إنه لم يعد يستقبل عاهرات جديدات مع اقتراب موعد إغلاقه فقوانين الدّعارة الجديدة - سنعرضها بالتفصيل في فصل مستقل - التي أصدرتها الحكومة آنذاك لم ينفذ منها على وجه الدقة سوى توقف السلطات المحليّة عن إيداع الفتيات اللاتي يضبطّن بممارسة الدّعارة السريّة في المحل العمومي.

في البداية قامت الإدارة بترحيل الفتيات غير السوريات اللاتي قدمن للعمل في المحل العمومي طوعاً إثر صدور القانون الجديد، بينما تابعت الفتيات المحليات عملهنّ فيه كما رأينا حتى تاريخ إغلاقه.

حين توقف العمل فيه نهائيّاً اتخذت بعض المومسات طريق التوبة سبيلاً للخلاص، وأمضين ما تبقى من أعمارهنّ في البحث عن حياة كريمة.

ثمّة داعرات فضّلن الانتقال إلى مدينة دير الزور أو إلى مدينة القامشلي للعمل في المحليّن العموميين اللّذين استمرا في تقديم خدمات الجنس المأجور للجمهور بعد إغلاقه في حلب، وحدثني أحد الأصدقاء أنّ المحل العمومي في القامشلي ظلّت أبوابه مشرّعة لاستقبال الزبائن حتى بداية الثمانينيّات من القرن العشرين، وقد أطلق عليه أهالي المدينة اسم (البيت الأبيض)، ولا أدري من أين

جاءت هذه الصفة، كما أنني لم أقف على تفسيرٍ لهذه التسمية، ومن أشهر العاملات فيه داعرة اسمها (مريمكة) ويبدو أنه مشتق من اسم (مريم) للتدليع.

فئة أخرى من المومسات اتخذن من بيع الزهور في الأماكن العامة مهنة يعتشن منها بيد أنّ طباعهنّ كانت تميل إلى المكر والحدّة، فانتشر مثل بين أهالي المدينة يُنعت به الأشخاص الذين تغلب على طباعهم الهيمنة والشراسة وهو (أقوى من بائعات الزهر).

ووُزعت بعضهنّ على دوائر الدولة كمستخدمات يقمن بأمور الخدمة وأعمال النظافة، فقد وجدّن في هذا العرض فرصة للتوبة ومتابعة ما تبقى من أعمارهنّ في مهنة تقيهنّ العوز وتدر عليهنّ مالاً حلالاً لاسيما أنّ معظمهنّ كما أشرنا قد بلغن من العمر عتيّا.

لم يحل هذا الإجراء من أن تتعرض هؤلاء النسوة إلى بعض المضايقات والمواقف الحرجة إذ إنّ عدداً من موظفي الدولة كانوا ينظرون إليهنّ كمومسات قديمات ويتعاملون معهنّ على هذا الأساس، ولا ينفكّون من التحرش بهنّ وتوجيه بعض العبارات الساخرة والملموزة لهنّ، على أنّ أغلبهنّ أُحطن بمعاملة حسنة من معظم موظفي الدولة وتلقيّن التشجيع على الاستمرار في التوبة والمضي في العمل الشريف والتمسك بطريق الصلاح، حيث عدّوهنّ قد انزلقن في هذه المهنة دون رغبة منهن، وأنّ هذا الأمر لا يتعدّى أن يكون قدراً لا مهرب منه.

نفر آخر منهنّ فضّلن الاستمرار في المهنة التي شببّن عليها، وانطلقّن في فضاء المدينة الواسع، وأنشأن بيوتاً سريّة لممارسة الدّعارة، ما لبث أن تحولت بعضهنّ إلى قوادات انخرطن تدريجياً في إدارة شبكات دعارة منظمة.

تلك الفئة بالذات سنتقفّى آثارها ونرصد التحولات التي رافقت انتقال هذه المهنة من مرحلة القطاع المشترك الذي كان مختلطاً كما رأينا بين العام والخاص في سنوات المحل العمومي العشر الأخيرة إلى مرحلة القطاع الخاص الذي بات منفتحاً على آفاق رحبة ومنفلتاً من الضوابط القديمة كلها.

ما زال مكان المحل العمومي خراباً دائراً إلى يومنا هذا في حين بقي تاريخه الطويل بسلبياته وإيجابياته متغلغلاً في تراث المدينة، ومحفوراً في ذاكرة شريحة كبيرة من أهالي المدينة.

* * *

الفصل التاسع

بَحْسيتا

حين بدأت الكتابة عن ظاهرة الدّعارة في القرن العشرين في مدينة حلب كان لا بدّ لي من الرجوع إلى الكتب التي تحدثت عن أحياء المدينة وأسواقها للوقوف على أيّة معلومة قد تفيدني في مشروعي هذا، وقد لاحظت أنّ أغلب مؤرخيّ المدينة وباحثيها أولوا محلّة بَحْسيتا اهتماماً كبيراً دون بقية الأحياء الأخرى رغم أنّ أغلبها يفوقها أهميّة من جهة الآثار والأوابد الموجودة فيها، وهذا ما أغراني ودفعني إلى أن أعرض في كتابي هذا ما أورده العلامة الكبير الأستاذ (خير الدين الأسدي) عن هذه المحلّة، ولعلي من جهة أخرى أكون قد قدمت شيئاً وإنْ بسيطاً من التقدير والعرفان لهذا الرجل المبدع فقد بذل جهوداً مهولة في البحث والتقصي عن أصل كلمة بَحْسيتا، فما بالك بعمره الذي أفناه بتأليف كتابه الشهير (موسوعة حلب المقارنة) الذي خلّد به مدينته التي عشقها، ولم ينلْ من مجتمعها في حياته سوى الجحود والإهمال أسوة بغيره من مبدعي حلب الكبار في

سالف العصر والأزمان إذ تعدّ سمتا القسوة والنكران من أهم سمات مجتمع المدينة ولا فخر لنا بهذا، ولكنها الحقيقة المؤلمة دون رتوش أو تجميل.

* * *

وفاة الأسدي

لشدّ ما أوجعني وأصابني بالذهول هو ما أخبرني به الأديب الكبير (وليد إخلاصي) عن الأحداث التي رافقت وفاة العلامة (خير الدين الأسدي) فقد تنادى ثلّة من مثقفي حلب ومحبيها وعلى رأسهم المرحوم الدكتور (إحسان شيط) والأديب (وليد إخلاصي) للمبادرة إلى حفظ قبر الأسدي من الضياع والإهمال، وإليكم القصة كما وصلتني:

لقد مات الأسدي وحيداً، وسارت جنازته وحيدة، ووري جسده تحت الثرى وحيداً، وقد خيّم حزن شديد على المشهد الثقافي في حلب إزاء وفاته ولكن بعد فوات الآوان إذ لم ينتشر خبر رحيله إلّا بعد حين، على إثر ذلك قرر عدد من مثقفي المدينة وأصدقائه زيارة قبره والترحم عليه، غير أنّ مفاجأة من العيار الثقيل استقبلتهم حين وطأت أقدامهم أرض المقبرة التي من المفروض أن يكون قد دفن فيها، فحارس الجبّانة لم يتعرف إليه، وأنكر أن يكون ثمّة قبر يحمل هذا الاسم.

في الحقيقة لم يكن الحارس كاذباً بل بدا متعجّباً ومذهولاً إذ من أين ظهر هؤلاء القوم المحترمون فجأة، الأمر الذي جعله يشعر بنوع من الارتباك والحرج بيد أنه لم يصمد طويلاً فقد أفصح عن الحقيقة، وسرد الحادثة كما جرت إثر تلقيه مبلغاً من المال:

عصر أحد الأيام جاءت على غير عادتها سيارة دفن الموتى بمفردها تحمل نعشاً يتيماً دون مشيعين أو معزين فتعجبتُ كثيراً

من هذه الجنازة الغريبة إذ لم يفد إلى المقبرة طيلة عملي فيها ميت لوحده، ولمّا أخبرني السائق أنّ هذا الرجل مقطوع من شجرة أدركت آنذاك أنّ القبر الذي سيوارى فيه جسده خسارة بخسارة، فحملت جثته الصغيرة تحت إبطي ورحت أبحث عن منطقة خالية لا تصلح لقبر نظامي.

بعد عناء وجدت بقعة صغيرة لا يتجاوز مساحتها (50×50) سم2، وقمت بحفرها على عجل وأودعت الجثمان فيها على نحو منتصب وأهلت فوقه التراب وقرأت عليه الفاتحة وطلبت العوض من الله.

إزاء هذا الوضع المأساوي سارع أصدقاء الفقيد إلى دفع كلفة قبر كامل وجديد إلى حارس الجبّانة على أن يشتمل شاهدتين حجريتين يصونان بهما ذكرى هذا الرجل من الضياع ويحفظانه من النسيان.

إلى ذلك طبق أهل حلب المثل الشعبي القائل: (عندما صار في المغتسل وضعوا في مؤخرته العسل) فقد بادرت بلدية حلب إلى إطلاق اسمه على إحدى الساحات العامة في حيّ الجميليّة، وتزيّنت المدرسة الثانويّة الجديدة في حيّ الصاخور باسمه، وأنا شخصيّاً عملت فيها مدرساً للتربية الرياضيّة في نهاية سبعينيّات القرن الماضي في أثناء متابعة تحصيلي الجامعي.

كما أقامت المؤسسات الثقافيّة والتربويّة على شرفه ندوات ومحاضرات كثيرة، وأجريت دراسات جامعيّة عديدة تقديراً لأرثه الأدبي المهول، فضلاً عن تنافس دور النشر الحلبيّة على الظفر بحقوق طباعة نتاجه الأدبي المخطوط وإعادة المطبوع منه، في حين تصدّت جامعة حلب لتنقيح أهم كتب الأسدي المخطوطة وطباعتها ونشرها ألا وهي (موسوعة حلب المقارنة).

***

الشيخ بدر الدين نعساني

أسوق لكم قصة مؤثرة أخرى وردت عن لسان المرحوم الدكتور (فاخر عاقل) في معرض حديثه عن أستاذه الشيخ (بدر الدين نعساني) في كتابه الأخير (ما وراء علم النفس) الذي شُرفت بإهدائه لي حين زرته في دار السعادة بحلب برفقة نخبة من مثقفي حلب في عام (2007) وذلك قبل رحيله بسنوات قليلة. لعلها هي الأخرى تعبر عن جحود المجتمع الحلبي وإهماله لمبدعيه:

في الثلاثينيّات من القرن العشرين كانت تصدر في مصر مجلة الرسالة لصاحبها الأديب الكبير (أحمد حسن الزيات) وقد نشرت تلك المجلة سلسلة مقالات عن أدباء الأزهر ومنها مقالة طويلة عن الشيخ (بدر الدين نعساني)، ذكرت فيها أعماله وأدبه وشعره ومناقبه، وجاء في آخرها:

ثم غادر القاهرة إلى بلده حلب، وانقطعت أخباره وأغلب الظن أنه مات.

وأضاف الدكتور (فاخر عاقل): أنه حين قرأ المقالة مع زملائه أخذوها فوراً إلى الشيخ (بدر الدين نعساني) فقرأها وبكى وبكوا معه، ثم قال كلمته المشهورة (يا أفندية.. حلب مقبرة الأدباء والمبدعين).

* * *

إلى ذلك لا تقتصر ظاهرة نكران المجتمع الحلبي لهذين العلمين، إنما القائمة لا شكّ في أنها تطول وتطول، وأعتقد أنها تحتاج إلى دراسات معمّقة للوقوف على أسبابها وتجذّرها في ثقافة المدينة الجمعيّة.

أخيراً لا تلوموني إن كررت وتساءلت مرّة بعد مرّة:

أليس المجتمع الحلبي قاسياً على مبدعيه؟ إذ يبدو أنّ تقييم المجتمع الحلبي لأبنائه مرهون بمكانتهم الماديّة والسلطوية، وليس بقيمتهم العلميّة والأدبيّة والإبداعيّة.

بَخْسيتا في الموسوعة

أشير إلى أنني نقلت الفقرة التي تحدثت عن حي بَخْسيتا كاملة كما جاءت في كتاب (موسوعة حلب المقارنة – الجزء الثاني – الصفحة 59)، الصادر عن جامعة حلب في العام (1990)، والذي قام بتحقيقه وأعدّه للطباعة ووضع فهارسه الباحث والأديب الأستاذ (محمد كمال).

أشير إلى أنّ الأستاذ (محمد كمال) ذكر في الحاشية أنّ مخطوطة الموسوعة قد أخلّت بهذه المادة فلجأ إلى إثباتها نقلاً عن البحث الذي نشره مؤلف الموسوعة العلامة (خير الدين الأسدي) عن بَخْسيتا في مجلة الضاد الحلبيّة العدد (2-3) المزدوج عام (1955).

أرى أنّ باحثي حلب ومؤرخيها كلهم نقلوا أجزاءً من هذه الدراسة حين تكلموا عن محلّة بَخْسيتا في كتبهم ومقالاتهم.

ويقيني أنّ ما جاء في الموسوعة عن هذه المحلّة يجبّ كل ما كتب عنها في دراسات أخرى، وقد وردت على النحو التالي:

في تسمية هذا الحيّ الحلبيّ المذاهب التالية:

المذهب الأول

أنها من (باح صيتا)، أي: ظهر صيتها وذاع لما كانت عليه من مقام علمي رفيع لدى سكانها الإسلام واليهود.

قال الغزي: المشهور أنها كانت في صدر الإسلام مشتملة على كثير من المدارس العلمية الإسلامية. (نهر الذهب: الجزء2، الصفحة 207).

وقال ياقوت الحموي: (باحسيتا) بكسر السين المهملة، وياء ساكنة، وتاء مثقّلة، وألف: محلة كبيرة من محال حلب في شماليها ينتسب إليها قوم، وأهلها على مذهب السنّة (انظر معجم البلدان، مادة باحسيتا).

ويراد بالجملة الأخيرة: القسم الإسلامي الأكبر من أهلها على مذهب السنة: لا على مذهب الشيعة الذي كان منتشراً آنئذ بتأثير الحمدانيين وغيرهم، ولا تزال حتى يومنا هذا تردد (فاز من صلى) يوم عاشوراء.

قال الحاخام إسحق شحيبر: اشتهرت حلب منذ القديم بمحافلها الدينية وبعلوّ درجات علمائها وأحبارها حتى كانت قبلة الأرض، وكان لعلمائها احترام خاص لدى كل المشتغلين بالأمور الدينية. (انظر كتابنا حلب الصفحة 26).

هذا وكنيسة اليهود الكبرى تعدّ من أقدم الآثار البنائية لهم، وتلقب بالصفراء لأن حجارتها الداخليّة من الرخام البعاذيني الأصفر البهيج.

وبعاذين وتسمى الآن بعيدين: بإمالة العين قرية شمال حلب اندثرت وقام محلها بساتين بعيدين قرب عين التل، ظهر فيها الآن ونحن نحقق مقالنا هذا المعبد الثاني للإله حدد الحلبي.

فعلى أنّ بَحْسيتا من باح صيتا نقول: حذفت ألف (باح)، وأبدلت صاد (صيتا) سيناً، على غرار (اهدنا السراط المستقيم)، ثم لزمتها الألف على سنن العاميّة في ضمير المؤنث الغائب.

المذهب الثاني

أنها من (بَحّ صوتا) أي: أصاب صوتها البحّة لكثرة جلبة الباعة في سوق الخميس فيها، أو بحّ صوتها في المطالبة بحقها على قدم المساواة، يؤذن به المثل الحلبي الساخر: (وجّ مثل سقاقات بحسيتا) أي: وجه شئيم، شئيم مثل شوارع بحسيتا، ومثله في السخرية من

جماعة قولهم: (شوارب متل درابيس خان الجمرك، ووجاه متل صرامي السهرة) أي: النعال المخلوعة في العتبة: من قباقب زحافية، وشبراوية، ومسوت، وصنادل، وقلاشين، وبوابيج، وجزمات صفراء ذات شرابات زرقاء، ويمنيات، وشحاطات، وجواريخ، وصرامي حمراء، وصفراء، وسوداء، شغل باب انطاكية.

فعلى أنّ بَحْسيتا من بحّ صوتنا نقول: جرى الوقف على الفعل بتسكين الحاء، وأبدلت الصاد سيناً، ولزمتها الألف على ما جاء في المذهب الأول، وأبدلت الواو ياء إبدالاً اعتباطيّاً.

المذهب الثالث

أنها من (بيت حسدا).

قال الغزي: أقول: هذه الكلمة سريانية مؤلفة من كلمتين هما: بيت حسدا معناهما: بيت الرحمة. ثم حذفت الياء والتاء من الكلمة الأولى، وحُرّفت الكلمة الثانية فصارتا بحسيتا. على أنّ كل كلمة سريانية تضاف إلى (با) مثل: باصفرة، وبانقوسا، تكون مضافة إلى بيت. والظاهر من اسم هذه المحلّة أنها كان فيها زمن الكلدانيين مكان مقدس عندهم يقصدونه للاعتراف بخطاياهم. (انظر نهر الذهب: الجزء 2 الصفحة 207).

ونعلق نحن على عبارته هذه ما يلي:

1 – تصديره عبارته بكلمة (أقول) نكول على الأمانة فلقد شهدنا نحن المجلس الذي زُوّد فيه الغزيّ بهذه المعلومة وبغيرها من المعلومات السريانيّة الأب (جرجس منش)، فكان الأجدر به أن يقول: حدثني الأب (جرجس منش).

2 – قوله: (وحُرّفت الكلمة الثانية) كان عليه أن يفصح عن سنة هذا التحريف بأن يقول: سُكنت الحاء لأنها لم تعد بعد التركيب المزجي فاتحة الكلمة، وزُيدت الياء رجوعاً إلى كلمة (حسيد) التي هي أصل حسدا، ومأخذها وبزيادة التاء طَرحت السين سكونها، ثم أبدلت الدال من أختها التاء فكانت بَحْسيتا.

3 – قوله: كل كلمة سريانية تضاف إلى (با) مثل باصفرة، وبانقوسا تكون مضافة إلى بيت خطأ صوابه العكس، أعني كان عليه أن يقول: كل (با) تضاف إلى كلمة سريانيّة فخلط بين المضاف والمضاف إليه.

ثم لماذا يتعدى حدود كلمة بَحْسيتا؟ إنّ بَحْسيتا على مذهبه هذا مصدرة بباء (بيت)، فمن أين جاءت (با)، كان عليه إذن أن يقول: كل باء تضاف إلى كلمة سريانيّة مجتزأة على الغالب من (بيت) كبحمدون، وبرمّانا، وبسكنتا، أي بيت حمدون، وبيت الرمان، وبيت السكنى. على أنه قد يلحق الباء ألف كباريشا، وبامقّا، بمعنى: بيت الرئيس، وبيت الحب، لكن إيراد هذا الحكم في كلمة لا ينطبق عليها وسكوته عما ينطبق خلل.

4 - لم يحدثنا عن (بيت حسدا) فلنستمع إلى حديث المصدر عنه: (في أورشليم بركتان يرجح أنّ واحدة منهما هي بركة بيت حسدا، أمّا الأولى فهي بركة إسرائيل – على ما يقول التقليديون – وأمّا الثانية فهي عين أم الدرج). (انظر قاموس الكتاب المقدس، ترجمة وتأليف الدكتور جورج بوست، المطرانيّة الأميركانيّة 1901 المجلد 1 الصفحة 265). فعلى هذا نقل اسم حينا من فلسطين، نقله السريان لا اليهود، لأن العبريّة لا تجتزئ باء (بيت).

أنّ أصلها (بحشوتا): هذه الكلمة السريانيّة التي تعني (البَحثِية) وجذر (بَحَش) السرياني يتحد معنى بجذر (بحث) العربي، كما يتحد به لفظاً ما خلا الشين فإنّ مقابلها الثاء.

ومدلول (بَحَش) في السريانية عدا (بحَث): فتّش فحص بيّن برهن حفر نكث نبش حرّك هيّج.

والثاء من أحرف الروادف: (ثخذ ضظغ) ردفت (أبجد) حتى (قرشت): هذا الترتيب الأوغاريتي: ردفته للتعبير عن الألفاظ استقلت بها العربية وما إليها: كالصفويّة، واللحيانيّة دون سواها من اللغات السامية، اللهم إلّا الخاء فإنها ترسم عندهم كافاً، وتقرأ كافاً تارة، وخاء أخرى، فواضع الرواداف لم يدخل الخاء في روادفه على أنه مما استقلت به العربيّة إنما وضعه على أنه استدراك للفظ مستقل.

ويقابل الثاء في السريانيّة الشين باطراد، وعلى هذا فقد اتحدت (بحش) و (بحث) لفظاً كما اتحدتا معنى.

وبحث العلم: هذا الحدث المعنوي الذي يقوم به جهاز الدماغ إنما هو في سبيله الأول من الحدث الماديّ الذي يقوم به جهاز اليد: من تقليب التراب ليُرى ما في داخله.

ويقيني أنّ فعل (بحبش) العاميّ منقول من (بحش) السرياني: بتكرار فاء الفعل دعماً وإلماعاً، إلى أن الزيادة في اللفظ زيادة في المعنى ووزنها عندنا فعفل، وعند الصرفيين فعلل.

وحكمتنا في نقلها من السريانية دون العربية الفصحى أنّ العامية تبدل ثاء الفصحى تاء لا شيناً، فتقول: تلاتة، وتفاية في ثلاثة،

وأثفية، ومنه التعبير الحلبي: (عمبتّاوب من جوعو)، و(سكينتو متلّمة) على أنها قد تبدلها سيناً: كعسمان في عثمان، والأكثر فيه عتمان، ومنه المثل الحلبي: (الجمل بعتماني وما في عتماني) والعتماني من نقود العثمانيين.

انتهينا الآن من الجذر الفعلي من (بحشوتا) وبقي علينا أن نعالج ما ردفه من لواحق: فأمّا الواو، والتاء فشأنهما في السريانية شأن الياء، والتاء في المصدر الصناعي في العربية: كالإنسانية، والهيولية، هذا مع زيادة معنى التعظيم فنتصيد في لفظ (الجبروت) مثلاً ثلاثة أمور:

1 – القدرة الماثلة في لفظ (جبرا).

2 – النسبة إلى هذه القدرة.

3 – تعظيم شأن هذه القدرة، والأمران الأخيران ماثلان في الواو، والتاء.

وأثرت العربيّة عن السريانيّة طائفة من هذه المصادر الصناعية جاءت على لفظها السرياني، منها: الناسوت، واللاهوت، والطاغوت، والملكوت، والرهبوت، والكهنوت.

وإذا صح مذهبنا الرابع هذا ألحقنا (بحثوت) بما تقدم وإن قلبت واوها ياء.

وأمّا الألف في (بحشوتا) فتذييل يتوفر في كثير من أعجاز الأسماء الأراميّة وسليلتها السريانيّة، منها الكثير من أعلام الأماكن: كمعراتا، وصيدا، وقطنا، وكفر روما، ودللوزا، ودرقيتا، بمعنى: المغارة، والصيد (أي: صيد السمك) وقرية الغدير، ومكان اللوز، ومكان الصعود: بحذف المضاف في الأخيرين وإبقاء أداة الإضافة.

وهذه الألف تلفظها السريانيّة الغربية بشكل (ο)، أي: أنها ترسمها ألفاً، وتشكل الألف بضمة بينما تلفظها السريانيّة الشرقيّة ألفاً لينة: كالعربيّة.

إذن فمعنى (بحشوتا) المحلة المنسوبة إلى البحث الجليل: يريدون بحث العلم وهو مذهب الجمهور عند أهالي حلب.

على أنّ القاعدة العربيّة في النسبة إلى الاسم المركب من المضاف والمضاف إليه أن ينسب إلى صدرهما: كنوريّ، وبهائيّ، وعيني، وتيميّ، في نور الدين، وبهاء الدين، وعين تاب، وتيم اللات. هذا إن لم يكن المصدر من الكلمات الكثيرة الورود فينسب حينئذ إلى العجز: كبكريّ، وكلثوميّ، وماجيّ، وقادريّ، في أبي بكر، وأم كلثوم، وابن ماجة، وعبد القادر، ومن (الحنفية): لصنبور الماء منسوب إلى أبي حنيفة المجتهد.

المذهب الخامس

أنها من الإسبانيولية مركبة من كلمتين (با Ba وسيتا Cita) ومعنى (با) المنخفض، ومعنى (سيتا) المدينة، فمعناها: المدينة المنخفضة.

ويراد بالمدينة هنا لبابها وعينها: كما يطلق الآن على سوق السقطية: أي باعة سقط الذبائح: يطلق عليها اسم (المدينة): على سبيل المجاز المرسل: من إطلاق الكل وإرادة الجزء، تخيّلاً أن هذا الجزء بما توفّر فيه من مرافق يمثل المدينة كلها.

أطلق اليهود هذا الاسم الإسبانيولي على هذا الحي إثر نزولهم فيه بعد هجرتهم من إسبانيا أي: بعد سنة (1492 ميلاديّة).

وكان نصيب حلب من هؤلاء المهاجرين وفيراً لمكانة حلب التجارية فشغلوا أعمال الصيرفة والدلالة والشحن وما إليها من أعمال التجارة، شغلوها فور نزولهم كأنهم منها على ميعاد وكان شأنهم في إستانبول وسالونيك خطيراً كشأنهم في حلب.

وكان اليهود في إسبانية يتكلمون العربيّة الدارجة هناك ممزوجة بالإسبانية اسمع المستشرق (يوهان فك JOHANN FUCK).

يقول: باللغة الشعبية الدارجة (جاءت الموشحات)، والنماذج الواردة في ديوان الشاعر الأندلسي (يهودا هاليفي) أي: (اللاوي) المتوفي في العام (1141 ميلادية) والتي تستعمل العبارات العربيّة والإسبانيّة القديمة مختلطاً بعضها ببعض على حدّ سواء.

(انظر كتاب العربيّة، تعريب الدكتور عبد الحليم النجار الصفحة 189).

ويؤنس بهذا المذهب أنه لا يزال لدى يهود حلب حتى يومنا هذا إثارة من الكلمات الإسبانية، انفردوا باستعمالها وحدهم دون غيرهم منها: (طوباجة) بمعنى: منديل التنشيف، والإسبانيّة الحديثة الآن تبدل كل جيم خاء و(كبيسال) بمعنى: المخدة الكبيرة، و(مدياس): طعام يتخذ من الباذنجان واللحم والبيض، و(باستلس): سنبوسك بالفرن متخذ من السميذ المبسوس بالزيت، و(كالونس): سنبوسك محشو بالبيض والجبن، و(متاهمبري): ماء غالٍ يصب فيه البيض مع قليل من الزيت والبقدونس ومعنى (متاهمبري): قاتل الجوع.

ويؤنس به أنّ اليهود أول من أدخل خبز إسبانية إلى حلب: هذا الخبز متخذ من الطحين والسكر والبيض وكانوا وحدهم يصنعونه ويبيعونه، ومن حلب انتقل إلى سائر بلدان الشرق الأدنى: كما انتقل من حلب بعده إلى البلاد العربيّة كلمة (بندوق) بمعنى: ابن الزنا، ذلك لأن تجار البندقية – وخان البنادقة ماثل حتى الآن – كانوا وثيقي الاتصال بحلب، يأتونها للتجارة مع زوجاتهم السافرات فتوهم الحلبيون المحافظون الفحش في البنادقة، فصاغوا منها على وزن فعلول الدال عندهم على الظرافة.

هذا ولا يزال في حلب أسرات يهودية إسبانية منها أسرة: بلانكا، وجولدمان، وباريدس، وفرانكو.

ومن أعلام نساء هؤلاء المهاجرين وأعقابهم علم (عيني): وهو لفظ كان سائداً في الأندلس نقلاً عن الشلوحية: إحدى لهجات البربر في شمال إفريقية، ولفظه بالشلوحية (طيطِيم): من (طيط) بمعنى عين، والميم بمعنى ياء الضمير - كما يحدثنا الصديق الأستاذ إبراهيم مجاهد الجزائري - فانظر كيف تخطى هذا العلم الجزائر وتونس وفاس ومراكش، تخطاها إلى الأندلس ومن الأندلس حطّ رحاله في حلب لاهثاً.

وبعد فلنتساءل: لم نعت هؤلاء المهاجرون منزلهم هذا في حي بَحْسيتا بالانخفاض، والحقيقة أنه واقع بين التل في الباب الذي جدده الملك الظاهر وأسماه باب النصر وبين تل القلة، والقلة كالقمة: لامها أصلها الميم فهي إذن من مفردات المرتفعات.

على أنّ كلا التلين قد زال كما زال تل النافعيّة الأسود (انظر مقالنا: نافع باشا عيّار الزمان)، وكما زالت سلسلة التلال في حيَ التلل خارج الأسوار.

ويحدثنا رُسل أنّ لحلب أربعة تلال: تل بَحْسيتا، وتل عقيبة الياسمين، وتل العقبة، وتل الجلوم.

ويريد بتل بَحْسيتا: تل باب النصر الذي كان يسمى بباب اليهود، أمّا القلة فكانت خارج السور.

ونستدل نحن على رسل تل الجبيلة، ولعل إهماله إياه ناشئ من أنه يعدُّ التلال ومرتفع الجبيلة أرفع من التلال.

المذهب السادس

قال الغزي: إنّ اسمها هذا محرف عن (باح سيتا) أي: باح بالسر، وهو رجل صالح مدفون بالمسجد.

مسجد سيتا داخل باب الفرج على يسرة الداخل منه، وهو مسجد عام له منارة جميلة الصنعة جداً بنيت سنة (751 هجريّة) وفي سنة (1330 هجريّة) هدمت البلديّة الجهة الشماليّة التي تلي الجادة من هذا المسجد، ورجعت بها إلى الوراء توسعة للطريق، وكانت المأذنة في غربي هذه الجهة فنقضت دوراً دوراً وأعيدت كما كانت دون خلل في شرقي الجهة المذكورة.

ونعلق نحن على عبارته هذه ما يلي:

1- قوله: (سيتا) بالألف وصوابه (سيته) بالهاء: كما هو مكتوب على مدخل المأذنة بخط قديم: جامع سيته.

2- قوله: محرف عن باح سيتا أي: باح بالسر لعل صوابه: محرف عن باحة سيته: بحذف الألف والتاء وتسكين الحاء: كل هذه تسهيلاً.

وفي اللسان: باحة الدار: ساحتها والباحة: عرُصة الدار، في الحديث: نظفوا أفنيتكم ولا تدعوها كباحة اليهود.

ولنا أن نطلق الباحة على ساحة الحي وعرْصته، لأن مدلول الباء والحاء السعة.

3- قوله: مدفون بالمسجد يزداد عليه: وقبره على مصطبتين مجلاتين بالقيشاني دليل القدم، ثم إنّ القبر كان في الصحن ولدى توسعة الطريق نقل إلى القبلية محافظاً على طابعه، هذا وترجمة الرجل مجهولة.

أمّا اشتقاق (سيته) فليس له مردّ إلى لغة إلّا العربيّة.

وأصل (سيته) عندنا فيْعِل من السَتَه: كفيصل من الفصل، وضيغم من الضغم (بمعنى العضّ) وصيرف من الصرف، وغيلم من الغلمة.

ووزن فيْعل من أوزان الصفة المشبهة فمعنى الكلمات المتقدمة: الفاصل، والضاغم، والصارف، والغانم، ومنها السَيْتَه بمعنى الساته، أي: المتخلف عن الناس.

وأهملت المعاجم ذكر السَيْتَه مجرداً وأوردته متصلاً بياء النسبة كما في اللسان: السَيْتَهي: الذي يتخلف خلف القوم فينظر في أستاههم، قالت العامريّة:

لقد رأيت رجلاً دُهريّا   يمشي وراء القوم سَيْتَهيّا

بقي أن نرد (سَيْتَه) إلى (سيتا)، ومردُّه عندنا تصحيف العامة بأن قلبوا ياء اللين ياء مدّ، وكان طبيعياً لهذا أن تكسر السين، ثم أبدلوا من الهاء ألفاً لشبه الهاء المتطرفة الساكنة بالوقف المسبوقة بالفتح، أقول: لشبهها بالألف ثم حذفوا أداة التعريف فقالوا: بَخْسيتا بدلاً من باحة السَيْتَه.

فعلى ما تقدم لُقب شيخنا الصالح: دفين جامعه لُقب بسَيْتَه لأنه كان على غرار الصوفية يؤثر الناس عليه ويمشي إثرهم تواضعاً وتنكراً لأنانيته فيحسبه الجاهل ضعيفاً ذليلاً.

وذهبنا نستقرئ ذكر بَخْسيتا في سجلات المحكمة الشرعيّة عندنا، هذه السجلات التي يرجع أقدمها إلى القرن التاسع الهجري، وما قبله التهمته نار الحريق الذي أحدثه بعض ذوي المآرب، نعم مضينا فوجدنا في هذه السجلات (13) وقفية لبَخْسيتا أقدمها سنة (1031 هجريّة) منها وقفيتان لجامع سيتا سنة (1229-1233 هجريّة).

وبعد فإنّ هذه المذاهب مدحوضة لأنها لا تتوفر فيها الحجّة القاطعة أمام محكمة البحث، فهي إذن فرضيات محتملة التصديق والتكذيب – وإن كان أقواها الرابع – شأنها شأن أن يزعم أن

(بحسيتا) أصلها (بسيطة) أو أن أصلها (باس إيدا) أيك باس يده، أو هي من (باخوس ديو) أي: الإله باخوس: إله الخمر، أو هي من (بَس يَتَر): مترادفان تستعملهما التركية، والأول من الفارسية بمعنى: يكفي، أو حسبك أو من (باع جيتا) بجيم بين بين أعني: بين الجيم والسين، والجيت نوع من النسيج لا يزال يسمى باسمه هذا وتجارته بيد اليهود، وكان القصب: تلك الخيوط المعدنيّة البراقة كذلك بيدهم مبيعه في خان القصابيّة، هذا وقد سكت الآن صوت: (قصاب للبيع) بمدّ الفتحة للنداء.

أمّا المذهب الخامس فلا يحتمل إلّا التكذيب لأن (بَحْسيتا) ورد ذكرها في معجم البلدان لياقوت، وياقوت توفي سنة (1228 ميلاديّة) بينما حدثت الهجرة سنة (1492 ميلاديّة)، فلم يبق إذن إلّا المذهب الأخير نقرّه.

* * *

بَحْسيتا في كتاب نهر الذهب:

قال الغَزّي في معرض حديثه عن حيّ بَحْسيتا في كتابه نهر الذهب في تاريخ حلب في الجزء الثاني: يحدّها قبلة الدّباغة العتيقة والمصابن، وشرقاً ساحة باب الفرج، وغرباً البندرة، وشمالاً جادّة الخندق.

كان فيها كنيس قديم لليهود يدعى الكنيسة الصفراء هو مكان للعبادة ومدرسة للتعليم، وتحفظ فيه نسخة قديمة من التوراة مكتوبة على رَقّ يقال إنها إحدى أقدم النسخ في العالم، وفي حجرة منه مقام للخَضِر (عليه السلام)، وفي أعلاه غرف يسمونها المدراش، وفيه محراب بُنِيَ ذكرى للسلطان مراد خان حين زار الكنيس، ويقال إنّ هذا الكنيس من آثار أيواب بن سيرويا قائد جيش داود (عليه السلام) وذلك في فترة حربه مع الآراميين، وهو قول غير مدعوم تاريخيّاً.

وفيها الكنيس الكبير، وبيت الدين، والجامع العمري، ومحلّة قرب سراي رجب باشا، ومدرسة في شرقيه، ومدرسة نصر الله، ومسجد القاموس، والمدرسة القرموطيّة، أُنشئت عام (882 هجريّة)، ومسجد القطان، ومسجد الشماع.

وفيها سبلان وقساطل: قسطل رجب باشا، وقسطل بيت العلبي، ومزار الشيخ السمرقندي تجاه خان الدوه لك.

هُدم القسم الأعظم من بَحْسيتا في إطار تنفيذ مشروع باب الفرج، وأبقي على المسجد العمري، وحائط سراي رجب باشا، وقريب منها يوجد حمام القصر.

في الشارع المتبقي منها والمهدّد حالياً بالإخراب تقوم مخازن وحوانيت بيع الألبسة الأوربيّة المستعملة (البالة).

نشير هنا إلى أنّ أغلب سكان هذه المنطقة قبل افتتاح بيوت الفحش المرخصة كانوا من العائلات اليهوديّة، وحدّد الغزي عدد سكانها اليهود بحوالي أربعة آلاف شخص في العشرينيّات، وأشهرهم آل جدّاع، وآل نحمات، وآل ساسون، وآل دويك، وقد انتقل الأغنياء منهم للسكن في محلّة الجميليّة تجنباً للإقامة قرب بيوت الدّعارة، ومن العائلات المسلمة في هذه المحلة: آل رجب باشا، وآل الشعباني، وآل عابدين آغا.

* * *

سراي رجب باشا

لحسن الحظ لم يهدم حائط سراي رجب باشا ضمن حملة الإخراب الهمجيّة التي أصابت منطقة باب الفرج ومحلّة بَحْسيتا إذ تم ترميمه وألحق بمبنى مديرية الثقافة الجديد المشيد حديثاً

بجوار دار رجب باشا، وقد خصّص مدير الثقافة في حلب آنذاك الأستاذ (كامل قطان) الجزء المتبقي من دار رجب باشا والملحق بالمديريّة مكاناً لإقامة المعارض والندوات والمهرجانات، وكان لي الشرف أن أُدعى للمشاركة في الملتقى السابع للقصة القصيرة جداً الذي أقيم في باحة دار رجب باشا البديعة من (11-14) آب، أغسطس في عام (2009)، وقد جرت فعاليات هذا الملتقى في منتهى الرونق والبهاء.

* * *

خلاصة القول

لا أدري إن كان قرار إغلاق المحل العمومي بحلب في منتصف سبعينيّات القرن المنصرم قراراً صائباً، أم أنه كان خطأً كبيراً إذ غاب مشهد الفحش العلني الوحيد في المدينة وبرز بدلاً عنه العشرات بل قلّ المئات من مشاهد العهر الخفيّة التي باتت رائحتها تفوح من الحيّ الذي نقطن فيه وبجوار منازلنا وفوق أرصفة الطرقات التي يسير عليها أولادنا وفي المقاهي والمطاعم التي يلتقي فيها أبناؤنا.

من جهة أخرى لا بدّ لنا من الإشارة إلى أنه جرّاء توقف العمل في المحل العمومي أصيبت هذه الشريحة من المجتمع بوعكة عابرة، سرعان ما تعافت منها واستبدلت جلدها وتُعدُّ المرحلة التي تلت إغلاق المنزول فترة مثيرة وغنية، فقد تغيّرت قوانين اللعبة على نحو كبير وباتت مليئة بالحكايا والأسرار الجذابة، وهي دون أدنى شك تغوينا وتدفعنا إلى المضي في تقفي أحداث مرحلة حلبيّة جديدة.

* * *

القسم الثالث

الدّعارة الحرّة

الفصل الأول: تحولات

الفصل الثاني: الأركان الأربعة

الفصل الثالث: الصفقة

الفصل الرابع: الرقابة الحكوميّة

الفصل الرابع: طرائف من عالم الدّعارة الحرّة



الفصل الأول

تحولات



ما إن أغلق المحل العمومي أبوابه في العام (1974) حتى ظنّ أهالي مدينة حلب أنّ هذا القطاع المذموم سيتقهقر وأنّ هذه المهنة إلى زوال إلّا أنه في واقع الأمر حدث عكس ذلك تماماً، فقد تبيّن أنّ هذه المهنة التي تعدّ كما هو معروف من أقدم المهن في التاريخ لا تبلى مع مرور الزمن ولا تفنى بل لعلّها تمتلك الطاقة المتجددة للتأقلم مع التحديات الطارئة إذ نجد أنه قد ولد من رحم حاجتها للدفاع عن نفسها ووجودها أساليب وأعراف مبتكرة تتلاءم مع المرحلة الجديدة التي بدأت تتشكل بواكيرها في منتصف الستينيّات من القرن الفائت إزاء الأخبار المتواترة عن قرب تطبيق مرسوم إغلاق بيوت الدّعارة الرسميّة في المدن السوريّة، على أنّ الطقوس والتقاليد الخاصة بهذا القطاع لم تتبلور إلّا بعد إغلاق المنزول بشكل نهائي فظهرت على إثرها مجتمعات جديدة احتضنت شبكات

تسهيل الجنس المأجور وترويجه. ها هنا نلاحظ أنّ أفرادها تمتعوا ضمن هذه التكتلات الخاصة بقسط وافر من حرية الحركة والعمل، واستقرت حينئذ تفاصيل مزاولة المهنة وأعرافها دون تبديل يذكر حتى بداية التسعينيّات.

يمكننا القول إنّ تقاليد الصنعة تشابكت وتداخلت كثيراً بين القطاع العام المتمثل بالمحل العمومي، والقطاع الخاص المتمثل ببيوت الدّعارة السريّة في السنوات العشر الأخيرة من عمر المنزول.

على أنّ إغلاق المحل العمومي بصفة نهائيّة أدى إلى تغيير شروط اللعبة إلى حدّ بعيد، فمثلاً نلاحظ أنّ الفرجة المجانيّة لم تعد متوافرة للزبائن كما كانت عليه سابقاً في المحل العمومي رغم انتشار بيوت الفحش في أغلب أحياء المدينة إذ إنّ الدّعارة باتت تمارس بشكل سري وفي أماكن خفيّة.

كما انحسرت كافة أشكال الرقابة الأمنيّة، والرقابة الصحيّة، وحتى الرقابة الاجتماعيّة والأخلاقيّة على نحو انحدرت فيه إلى مآلات خطيرة.

إذن بوسعنا الادّعاء أنّ قطاع الدّعارة قد تحرر من القيود القديمة جميعها إثر التحولات الجديدة، وأصبح كثيرٌ من أحياء المدينة مسرحاً رحباً لنشاطات الجنس المأجور، وأول تلك الأحياء التي لجأت إليه هذه الشريحة هو حيّ القلّة المجاور لمنطقة بَحْسيتا فهو يتقاسم معه العديد من الصفات والميّزات المشتركة، وذلك من حيث موقعه في وسط المدينة التجاري المزدحم وأزقته ودروبه الضيّقة والمتعرّجة ودوره العربيّة التقليديّة ذات الأسعار الرخيصة فهي لم تعد مرغوبة من قبل الأهالي والسكان العاديين بسبب قربها من المحل

العمومي، إضافة إلى ما بات يحيط بها من ميخانات (خمّارات) وأماكن أخرى متنوعة يدور فيها العبث والمجون.

ها هنا نتلمس حقيقة طريفة تحمل المتابع على التأمل حيث نجد أنّ التاريخ يعيد نفسه ونرى أنّ الزمن يدور في حلقة مفرغة، فسيرورة هذا القطاع المهني والتنظيمي لا تخضع لتوقعات محتملة ولا إلى أفكار عقلانيّة منظمة، فلو تخيّلنا أنّ مسار هذه المهنة ينطلق من نقطة الصفر وهي كما كانت عليه الحال في نهايات القرن التاسع عشر حينما كانت بيوت الفحش السريّة منتشرة في أغلب أحياء المدينة، ومن ثم يتجه المسار صعوداً مع صدور قرار السلطات المحليّة الذي سَمح بفتح بيوت البغاء المرخصة في عام (1900) وانتشارها في عدّة أحياء في قلب المدينة انطلاقاً من محلّة بَحْسيتا، وما هي إلّا سنوات قليلة حتى باتت المنطقة الممتدة من بَحْسيتا إلى حيّ القلّة مروراً بأطراف ساحة باب الفرج وصولاً إلى حيَ المصابن سوقاً كبيراً ومرخصاً للمتعة، وقد بلغ هذا القطاع الذروة في أواخر العقد الخامس من القرن العشرين حين قنّنت الإدارة تعاطي الدّعارة المرخصة وحصرتها داخل أسوار المحل العمومي وذلك إبّان الاستقلال من الاستعمار الفرنسي، فقد باتت ثمّة قوانين جديدة ترعى بموجبها الدولة هذا القطاع وتحصّن المجتمع في الوقت نفسه من آثاره السلبيّة المحتملة، ومن ثم نرى أنّ مسار المهنة شرع بالانحدار رويداً رويداً مع صدور قرار إغلاق بيوت الفحش المرخصة في الجمهوريّة العربيّة المتحدة في عام (1959)، حيث بدأ من جديد ظهور بعض بيوت الدّعارة السريّة في الأزقة والزواريب القريبة من المحل العمومي، ثم ما لبثت أن امتدت إلى حيَ القلّة المجاور لمحلّة بحسيتا في السنوات اللاحقة، وبذلك تكون هذه المنطقة قد استعادت صبغتها القديمة

وأمست ثانيةً سوقاً شبه مرخص للمتعة، فقد اختلط كما رأينا في تلك المرحلة القطاع العام الرسميّ مع القطاع الخاص السريّ، وفي نهاية المطاف عادت المهنة إلى نقطة الصفر إذ انتشرت الدّعارة مرّة أخرى في أغلب أحياء المدينة بعد إغلاق المحل العمومي عام (1974)، وبذلك نرى أنّ المهنة ارتدت إلى سيرتها الأولى كما كانت عليه في أواخر القرن التاسع عشر.

أستطيع القول إنّ الفحش والجنس المأجور سرعان ما انتشرا في عدد من أحياء المدينة الأخرى، ومنها على سبيل المثال وليس الحصر أحياء (سليمان الحلبي)[1]، و(الحميديّة)[2]، و(الجابريّة)[3]، و(العامريّة)[4]، و(الشيخ طه)[5]، ولاحقاً منطقتا (الموكامبو)[6]، و(المريديان)[7] الراقيتان، وسنتعرف تالياً على أحد هذه الأحياء كنموذج للإحياء الحلبيّة التي تفشّت فيها الدّعارة على نحو ملحوظ.

* * *

حيّ الشيخ طه

في منتصف الستينيّات كان هذا الحيّ يقع في ظاهر المدينة من الجهة الشماليّة، أمّا الآن في بداية العقد الثاني من القرن الواحد والعشرين بات يعدّ من أحياء وسط البلد.

ما يشدّ الانتباه هو لجوء كثير من المومسات والبترونات إلى شراء منازل في منطقة الشيخ طه واتخاذها سكناً دائماً لهنّ، ويبدو أنّ هذه الشريحة من المجتمع - إن كانت تدري أو لا تدري - تسعى أو ربما تفضل الإقامة بجوار المساجد والأماكن الدينيّة إذ يتوسط هذا الحي جامع الشيخ طه (الشيخ طه المدرس)، وقد استمد الحيّ اسمه من هذا المسجد، وأشير إلى أنّ المحل العمومي كان يقع أيضاً بجوار مسجد (سيتا) الذي استمد الحيّ أيضاً اسمه منه، وذلك وفق أحد التفسيرات التي عرضناها سابقاً. وأنا أميل للاعتقاد أنّ

هذا التوجه يمنح أفراد هذه الفئة نوعاً من الأمان إضافة إلى قدر من التوازن النفسيّ.

وهذا ما يفسر باعتقادي خاصيّتين بارزتين تتميز بهما دور البغاء السريّة الجديدة كوسيلتين ذاتيتين للدفاع عن وجودها وحماية كيانها.

أولاهما: سعي أفراد هذه الشريحة للإقامة في منازل متجاورة وفي بنايات تقع في حيّ واحد مما يجنبهم حدوث مشاكل مع الأهالي، وبالتالي عدم صدور شكاوى واعتراضات منهم علماً بأنّ السكان العاديين تناقصوا في هذه المنطقة بشكل كبير، فمع بداية لجوء أفراد هذه الفئة من المجتمع للإقامة في حيّ الشيخ طه ظهرت بوادر الغضب والاستياء من قبل الأهالي، على أنه طفت على السطح مصالح مشتركة ومتبادلة فقد نمت لدى السكان والأهالي الرغبة في بيع منازلهم والانتقال إلى أحياء أخرى في المدينة، وقابلها في الوقت نفسه من الجهة الأخرى سعي ملحوظ ومتزايد من العاملات في مهنة الدّعارة إلى شراء المنازل في تلك المنطقة، وما هي إلا سنوات قليلة حتى تجمع عدد كبير من الدّاعرات في هذا الحيّ، وغدا كما لو أنه بوابة جحيم تعبر من خلالها يومياً عشرات الصفقات المحرّمة.

والخاصيّة الثانية: هي أنّ الأعراف الذاتيّة لا تسمح بممارسة الدّعارة في البيوت التي تقطن فيها المومسات والبترونات إلّا في حالات خاصة ومحدودة جداً إذ إنّ القوانين العامة الجديدة تقضي بإغلاق المنازل بالشمع الأحمر إذا تمّ إلقاء القبض على الزبائن والمومسات وهم متلبّسون في أثناء الممارسة الفعليّة، وهذه حوادث نادرة قلّ ما تحدث ولا تشكل ظاهرة.

إضافة إلى أنّ هذا التجاور في المسكن يتيح لهنّ الراحة النفسيّة إذ لا تشعر المومسات بالحرج من الخروج والدخول في أيّة ساعة من النهار ولا حتى في ساعات الليل، ولا ينتابهنّ أدنى قلق من عيون وكلام الناس إزاء عدّة الشغل التي يستخدمنها من ثياب فاضحة وماكياجات صارخة فجميعهنّ يعملن في الكار نفسه.

لا يخفى على أحد أنّ لجوء المومسات إلى ارتداء الملابس المغرية وتلطيخ وجوههنّ بالألوان الفاقعة يحقق لهنّ غايتين.

الأولى: تحفيز الزبائن المتلهفين وإغوائهم.

الثانية: إخفاء العيوب وتقليص آثار السنين المتنامية.

إذ تتميز أغلب الدّاعرات بمستويات جمال متواضعة وما دون ودرجات عمرية متوسطة وما فوق، على أنهنّ لا يكشفن عن تبرجهنّ وثيابهنّ الفاضحة إلّا في منازلهنّ عندما يعرضن على الزبائن لاختيار إحداهنّ كما سنرى حين الحديث عن تقاليد الصفقة وتفاصيلها في هذه المرحلة، أو حين وصولهنّ إلى مسرح تنفيذ عمليّة الجنس المأجور.

على أنهنّ يلجأن إلى ارتداء ثيابٍ محتشمة فوق ملابسهنّ المغرية حين يخرجّن من أماكن إقامتهنّ لأداء مهمة عمل مأجور، وعند العودة إليها بعد فراغهنّ من عملهنّ لئلّا يلفتن إليهنَ الأنظار ويثرن غضب من تبقى من الجيران العاديين.

* * *

1. حيّ سليمان الحلبي: كان يُعرف باسم أرض العجّور، أُنشئت فيه مساكن شعبيّة سنة (1961).

انظر كتاب أحياء حلب وأسواقها، تأليف خير الدين الأسدي، وتحقيق عبد الفتاح روّاس قلعه جي، الصفحة (219).

2. حيّ الحميديّة: خُطّ في حدود (1305 هجريّة)، وأُطلق عليه اسم الحميديّة نسبة إلى السلطان عبد الحميد الثاني العثماني.

انظر المصدر السابق، الصفحة (183).

3. حيّ الجابريّة: سُمّي هذا الحيّ نسبة إلى أحد أبناء آل الجابري الذي كان يتصرف بأرضها ويقع قرب الشيخ أبي بكر. ويحدها من الجنوب شارع الرمضانيّة، وقد خُطّت هذه المحلة سنة (1325 هجريّة).

انظر المصدر السابق، الصفحة (152).

4. حيّ العامريّة: حيّ جديد بنته الإسكان العسكرية في السبعينيّات، ويقع بين منطقتيّ الإنصاري والراموسة.

انظر المصدر السابق، الصفحة (274).

5. حيّ الشيخ طه: أيّ الشيخ طه المدرس يقع شمالي حلب على امتداد شارع محطة بغداد.

انظر المصدر السابق، الصفحة (134).

6. منطقة الموكامبو: أحد الأحياء الحديثة يقع بين السبيل والعمران.

7. منطقة المريديان: أحد الأحياء الحديثة يقع غرب سكة القطار، استمد اسمه من الفندق الذي بُني في هذه المنطقة.



الفصل الثاني

الأركان الأربعة

إذا تقفينا آثار هذه الشريحة المثيرة نجد أنّ النظرة الموضوعيّة الفاحصة تقودنا إلى أنّ دعائم هذا القطاع لم تتغير، فهي كالطاولة لا تستقر إلّا بجهود قوائمها الأربع، ويبدو أنّ مهامها متداخلة ومتكاملة مهما تغيّرت الأحوال والأزمان، فالبترونة والمومس والقوّاد والمكان ما زالوا أعمدة هذه المهنة في المرحلة الجديدة، على أننا سنرى أنّ مهمة كلٍ منهم قد تبدلت أهميتها صعوداً أو هبوطاً وفق المقاييس والمعايير الجديدة التي ترعى تقاليد هذه المهنة وأعرافها.

* * *

الركن الأول: القوّادة

القوّادات أو البترونات أو الأمّايات كما يحلو للبعض مناداتهنّ أصبحّن في تلك المرحلة مثقلات بجملة من المسؤوليات والأعباء الجديدة إذ على الرغم من أنّ المومسات ما زلّن يحتجن إلى حماية

ومساعدة ومكان لممارسة الكار فإنهنّ لم يعدن يُجبرن على العمل تحت إشراف بترونة بعينها كما كان دارجاً في المحل العمومي، فقد غدت المصالح المتبادلة وحدها هي المتحكمة بإيقاع العلاقة بين الطرفين، ومن هنا بات على عاتق البترونات مهمة البحث الدائم عمّا هو جديد ورخيص لضخ الروح في شبكاتهنّ المتنامية، كما ينبغي لهنّ استخدام خبرتهنّ ومهارتهنّ في التقاط الفتيات ذوات الظروف الصعبة، وإغوائهنّ ودفعهنّ إلى العمل في هذه المهنة بعد تدريبهنّ وتلقينهنّ أصول الصنعة وفنونها.

دهاء بعض البترونات قادهنّ إلى التسكع بجوار مدارس البنات الثانويّة بغية اصطياد ضحايا جديدة حيث كنّ يركّزن على الفتيات المتأخرات عن الدوام أو الخارجات من المدرسة قبل موعد الانصراف، ومن خلال فراستهنّ وخبرتهنّ كنّ يلتقطن الفتيات اللائي يبدو على وجوههنّ الاضّطراب والقلق، فسرعان ما يرمين شباكهنّ الخادعة عليهنّ عبر سيل من الكلام المعسول، وما إن يستشعرن برغبة الفتيات المسكينات في الإفصاح عن مشاكلهنّ الشخصيّة المتنوعة حتى يشرعن بعرض مساعدتهنّ عليهنّ وتقديم نصائحهنّ الجاهزة سلفاً بصورة ولهجة يغلب عليهما الطابع الإنسانيّ والعاطفيّ، وحتى ما إذا وافقت الضحيّة على دعوة القوّادة لتناول فنجان قهوة في منزلها تكون قد خطت بنفسها دون أن تدري أولى الخطوات الخطرة نحو الانحدار إلى آتون هذه المهنة إذ غالباً ما تذوب هؤلاء الصبايا الضعيفات في بحر إغواءات البترونات المحترفات.

يعدّ العثور على فتاة عذراء صيداً ثميناً – قبل أن تنتشر تقنية عمليات رتق غشاء البكارة - فالبترونة تشيع هذا الخبر بين زبائنها الميسورين، وعادة ما تتمكن القوّادة من تسويق الليلة الأولى وبيعها

بمبلغ مهول، ثم ما تلبث أن ترضى بأثمانٍ أقل مع توالي الليالي، وتحيط القوّادة في تلك الفترة المومس الفتيّة باهتمام ودلال شديدين خشية أن يلعب بعقلها أحد الزبائن، أو أن تستولي عليها بترونة أخرى إذ إنّ خبرتها ما زالت متواضعة ومشاعرها هشّة أمام مغريات أصحاب الشهوة ومفترسيّ الأجساد الطريّة.

على أنّ حذر القوّادة يتضاءل مع مرور الزمن إثر تراكم تجارب المومس الصغيرة وتنامي قدراتها على مواجهة المخاطر التي قد تتعرض لها، فهي لا بدّ من أنها ستتعلم من أخطائها كما لو أنها تعمل في أيّة مهنة أخرى، وحتى إذا ما اطمأنت البترونة وأنِسَتْ إلى أنّ صنيعتها قد نضجت وأنها أصبحت بغياً محترفة ألقت بها في سوق العمل لاستثمارها دون هوادة أسوة بالأخريات.

* * *

أم جمال

نالت سيدة تدعى (أم جمال) شهرة واسعة في عالم الفحش والبغاء، وتعدّ من أهم البترونات في منطقة الشيخ طه، وأغلب الظن أنها كانت تدير شبكة عريضة لتسهيل الدّعارة وترويجها إذ لا يقتصر حضورها الطاغي على بضع فتيات يعملن تحت إمرتها على نحو مباشر بل كانت حظوظها في المهنة تتعدى محيطها الصغير إلى دائرة أوسع تشمل معظم البيوت السريّة المنتشرة بكثرة في منطقة الشيخ طه وذلك من خلال مجموعة كبيرة من البترونات كما لو أنها تُشغلهنّ معها كمقاولات جنس مأجور من الباطن، كما أنّ سطوتها لا تنحصر في هذا الحيّ فحسب بل ذاع صيتها في الأحياء الأخرى وعند أهل الضبط والربط أيضاً.

يُحكى أنّ القوة العسكريّة والأمنيّة التي جاءت لتفتيش منطقة الشيخ طه في بداية الثمانينيّات إبّان أحداث الأخوان المسلمين في سوريّة كانت متساهلة على نحو كبير مع أهالي هذا الحيّ كرمى عيون البترونة (أم جمال)، واقتصر التفتيش على الإجراءات الشكليّة إذ لم يشعر السكان العاديون منهم أو العاملون في قطاع الدّعارة بالمعاناة كما شعر بها القاطنون في الأحياء الحلبيّة الأخرى وذلك ضمن حملة التفتيش الصارمة التي خضعت لها المدينة آنذاك.

* * *

بالجملة

روى لي أحد الأصدقاء حكاية تنطوي تفاصيلها على فيض من الغرابة والطرافة، وبطلة هذه القصة سيدة تنتمي إلى عالم شبكات الدّعارة السريّة، قدمت له عرضاً مباغتاً أقلّ ما يوصف بأنه في منتهى الإغراء والإثارة إذ يبدو أنّ الدهشة لا تنفك من التنامي كلما أوغلنا في دروب هذا القطاع وخفاياه.

يعمل صديقي طبيباً مختصاً في أمراض النساء ولم يتوقع خلال عشرين سنة من ممارسة مهنته بعيادته الخاصة أن يغدو ألعوبة بيد قوّادة محنّكة تدير شبكة لترويج الدّعارة وتسهيلها، فقد عاهد نفسه ألّا يقوم بإجراء عمليات ترقيع غشاء البكارة إلّا للفتيات اللاتي يقتنع بأنهنّ قد سقطن ضحايا في مستنقع هذه المهنة الصعبة إثر خُدع وظروف لا قبل لهنّ فيها، وأنهنّ صادقات في توبتهنّ وأنّ هذه العملية ستوفر لهنّ الستر والزواج، وغالباً لا يتقاضى أجراً حين يقدم على إجراء مثل تلك العمليات.

على أنه في إحدى المرات تبيّن له أنّ الدوافع الإنسانيّة وحدها لا محلّ لها من الإعراب، فقد اكتشف أنّ الفتاة التي تدّعي أنها تسعى إلى لاسترداد عذريتها لأوّل مرة في حياتها بغية تحقيق حلمها بالزواج من شخص يرغب بالارتباط بها لا شكّ في أنها تخدعه إذ ظهر له من الفحص السريري بأنه سبق لها أن أجرت تلك العمليّة عدّة مرات رغم أنّ عمرها لم يتجاوز بعد السبعة عشر عاماً.

حينئذ ظهر المستور بادرت السيدة التي ترافق الفتاة إلى اللعب على المكشوف إذ طلبت من صديقي أن تعقد معه صفقة على إجراء هذه العمليات بالجملة، فقد تبيّن له أنها تدير شبكة لتسهيل الدّعارة.

الغريب في الموضوع أنها كانت مختصّة في توفير البنات الصغيرات العذارى لزبائنها المهوسين بمتعة الدخول الأول، ورغم أنّ عملية رتق غشاء البكارة تتراوح كلفتها آنذاك ما بين عشرة آلاف وخمسة عشر ألف ليرة سوريّة فإنها طلبت منه أن يكون الاتفاق بينهما على أساس سعر الجملة (وحدّدت خمسة آلاف ليرة سوريّة للعمليّة الواحدة) حيث يعمل تحت إشرافها عدد لا بأس به من الأجساد الواعدة، وقد يجرين هذه العملية عدّة مرات في السنة، وخُيّل إليها بأنه عبر هذا المنطق الماكر ليس له إلّا أن يقتنع بعرضها المغري، وهذا يبدو صحيحاً من الناحية النظريّة فإنّ المبدأ التجاري المعروف يفيد:

ربح قليل + شغل كثير = ربح وفير.

وكانت تطلق الضحكات الرنانة تارة والتنهدات والحسرات طوراً آخر، وبدت في حوارها معه أقرب إلى الصدق منه إلى الغشّ والخداع، فرغم أنها تتقاضى من زبائنها مبلغاً يقترب أحياناً من

الثلاثين ألف ليرة سوريّة ثمناً لاختراق الليلة الأولى فإنّ هذا المبلغ ليس له إلّا أن يغطي المصاريف والنفقات إذ لا يمكن تشغيل الفتاة واستثمارها بعد إجراء العمليّة مباشرة، فلا بدّ للائي استعدن بكارتهنّ المزيفة من أن يمضين فترة نقاهة لا تقلّ عن العشرين يوماً، فضلاً عن أنهنّ لا يقبعن في المنزل أمام عينيها دون فائدة مرجوّة فحسب بل هي مضّطرة للوقوف على خدمتهنّ وتوفير الطعام لهنّ وتأمين الدخان وخلافه، ناهيك عن الأفواه الجائعة التي تقتات من عرق أجسادهنّ.

ثم أضافت بحسرة ومرارة لا تقوى الدموع حيالها سوى على النفور من العيون بأنّ لا شيء في هذه الدنيا يهبط من السماء دون عناء، فمهنتها تتطلب الصبر والكرم والحكمة، وهي لم تزل تعدّ الساعات والأيام حتى يصبحن جاهزات للانطلاق إلى الشغل من جديد، فإذا لم تدفع التسعة لا تحصل على العشرة والبطون الخاوية لا رجاء منها.

لا عجب في ذلك فلكل مهنة أعرافها وتقاليدها، ودونها المتاعب والمآسي مهما كان ظاهرها لمّاعاً ومثيراً للبهجة.

* * *

الركن الثاني: المومس

في حين تبقى المومس مربط الفرس، وبدونها لا يمكن أن يتم عقد الصفقات على الإطلاق، وغالباً ما يعود الجزء الأكبر من قيمة المقاولة لها، فهو يتناسب مع ظروفها وجمالها وعمرها ودرجة حنكتها في أداء مهمتها، على أنّ هذا ليس قاعدة ثابتة فالأمر يخضع لعوامل عدّة تجعله في معظم الأحيان متأرجحاً.

على إثر إغلاق المحل العمومي وانتشار بيوت الفحش السريّة في أغلب أحياء حلب وإن كان بنسب متفاوتة باتت الساحة مفتوحة لاستقطاب العديد من المومسات، فقد غدا قطاع الدّعارة في تلك المرحلة قادراً على انتشال الفتيات من آتون ظروفهنّ المضّطربة والقاسية ومن مجتمعاتهنّ المترهلة والمقهورة.

لن أدخل في الأسباب والدوافع التي جعلت تلك الفتيات ينخرطن في غياهب هذه المهنة إلتزاماً بالنهج الذي اتّبعته في الفصول السابقة، على أنّ جوهر معظم هذه الأسباب لا يخرج عن دائرة الفقر والجهل وقصص الحب الفاشلة، في حين أرى أنّ التسويغ الوحيد الذي بوسعنا ترجيحه في أغلب الحالات هو القدر.

ما يهمنا في الموضوع هو تعقب حال المومسات في هذه المرحلة وأسلوب عملهنّ وما هو دورهنّ المتجدّد إثر التغيرات التي طرأت على طقوس العمليّة الجنسيّة المأجورة؟

ولمّا كانت مهنة الدّعارة قد انفتحت على احتمالات رحبة وجب علينا أن نميز بين حالين أساسيتين:

أولاهما: أن تختار المومس العمل ضمن إحدى شبكات الدّعارة والالتزام بتقاليدها إذ سرعان ما نُظم البيت الداخلي لهذه المهنة كي يتلاءم مع ظروف المرحلة الجديدة، فيصبح دورها آنذاك متناغماً ومكمّلاً لدوريّ البترونة والقواد مما يفرض عليها تقاسم أجور الصفقة معهما مقابل الخدمات اللوجستيّة التي يقدمانها لها كالتسويق والحماية والإقامة والطعام والمصاريف المتنوعة الأخرى، وغالباً ما تكون في هذه الحال حصة المومس من الغلّة غير متكافئة.

ثانيهما: أن تختار المومس العمل على نحو مستقل وخفيّ حيث نرى أنّ كثيرات منهنّ يزاولن المهنة وما زلن يقمن في منازل أسرهنّ، وعلى الرغم من أنّ المردود المادي سيكون في هذه الحال وفيراً فإنه ينبغي لها أن تتصدى بمفردها للعواقب والمفاجآت المحتملة إذ إنها فقدت الحماية والرعاية المتوافرتين لدى العاملات ضمن شبكات الدّعارة.

لعلّ العرض التالي لبعض النماذج إضافة إلى ما سوف نسرده من قصص لأخريات في الفصل الرابع من هذا القسم يعطينا ملامح وإشارات عن أساليب عمل المومسات وفكرة أوليّة عن كل من الحالين.

* * *

حميدة أم أنطون

من أهم المومسات اللواتي نلن شهرة واسعة في تلك الفترة في حيّ الجابريّة مومس تدعى (حميدة أم أنطون). وقد ذاع صيتها في منطقتها وفي الأحياء المجاورة أيضاً.

حين تقدم بها العمر أصبحت بترونة ولم يخفت بريقها فقد تمكنت بحنكتها وخبرتها الطويلة أن تجذب العديد من الدّاعرات لا سيما الصغيرات منهنّ للعمل تحت إشرافها.

فضلاً عن أنه كان يشاع عنها بأنها واحدة من أولاء اللواتي كنّ محبوبات لدى الأجهزة الأمنية وقريبات منهنّ لما كانت تقدمه لهم من خدمات جليلة.

* * *

وداد قازان

حظي منزل في ثمانينيّات القرن العشرين يقع في منطقة الموكامبو بشهرة واسعة، كانت تديره وتعمل فيه مومس جميلة جداً تدعى

(وداد قازان)، وأغلب الظن أنّ هذا الاسم هو اسمها الحقيقي، وعرفت بتقديم خدمات الدّعارة وفنونها المبتكرة للمسؤولين وكبار الضباط إضافة إلى أهم التجار والأغنياء في المدينة، فقد كان يعقد في ميدانها أكبر الصفقات لأجمل الفتيات دون أدنى إزعاج أو إعاقة من أيّة جهة رقابيّة أو أمنيّة.

* * *

طرزانة

ثمّة من يعملن بمفردهنّ في تلك الفترة وهنّ قليلات ومنهنّ عاهرة تدعى (طرزانة)، وهي ليست تلك التي كانت تعمل في المنزول أيام عزّه بل هي واحدة أخرى إذ يبدو أنّ هذا اللقب كان محبباً للدّاعرات، ويُحكى عنها أنها كانت تلتقط زبائنها من أماكن محدّدة في المدينة باتت معروفة لهم، ثم تصطحبهم بسيارة أجرة إلى ظاهر المدينة في الجهة الغربيّة باتجاه طريق المدينة الجامعيّة، وتمارس عملها في الخلاء تحت حماية الظلام بجوار (دير الكرمليت)[1]، فإن موقعه كان يعدّ منطقة نائية وتمتد على أطرافه أراض مقفرة لا يوجد فيها طرقات ولا كهرباء.

* * *

ميم ميم

يحكى عن فتاة من أهالي حلب وهبها الله جمالاً لافتاً وجسداً فتّاناً وحباها ببسطة في الرقّة والرشاقة والطلّة العذبة، وكانت محطّ أنظار المعجبين في أروقة كليّة الأداب وميادين كرة السلة في ثمانينيّات القرن الماضي.

على أنها لم تصمد طويلاً إذ اقترنت وهي في عزّ عنفوانها وصباها بسليل أحد العائلات المرموقة في المدينة، وقد نقلها هذا الارتباط من

بيئة أقرب إلى التواضع والبساطة إلى مجتمع راق يمتلك أشدّ أسباب البذخ والرفاهية على نحو جعلها تغرق فيه إلى أذنيها.

ولمّا لم تعد قادرة على الخروج من مستنقع الجخّ والرخّ انزلقت إلى المجهول، فقد انفصلت عن زوجها إثر خلاف مزمن مع أمّه صاحبة القول والفصل في منزل الأسرة الكبير، ورمت حياة الترف التي عاشتها وراء ظهرها بتشجيع من أختها الكبيرة معتقدة بأنها ستجد البديل بطرفة عين.

غير أنّ حساباتها تبيّن عدم صحتها ومع الوقت انجرفت نحو الهاوية إزاء ارتباطها بعلاقات مشبوهة وباتت أسيرة الجري خلف المال والمظاهر الخادعة، وقد قاداها في نهاية المطاف نحو الخطيئة، وعلى إثر ذلك فضلت الانتقال إلى دمشق والإقامة بين أحضانها الرحبة كيلا يعيقها مجتمعها الصغير في معانقة إغواءات طموحها الذي يبدو أنه لم يكن له حدود.

يُحكى أنها غدت في وقت قصير نسبيّاً واحدة من أشهر العاملات وأهمهنّ في قطاع تسهيل الدّعارة وترويجها في العاصمة، عدا أنها حظيت من خلال إتقان حرفتها بعلاقات رفيعة مع نخبة من رجال الاقتصاد والسياسة فيها، ويتندّر البعض بقصص وحكايات تروى عنها إذ لا ينفكون عن وصفها بأنها المرأة التي بوسعها إنزال المشنوق عن حبل مشنقته.

ويُحكى أيضاً أنها ما زالت تصول وتجول في ساحات وملاعب مهنتها الرائجة إلى يومنا هذا، وأنّ سطوتها وتجارتها لم يتراجعا قيد أُنملة واحدة بل هما في تقدم وازدهار متجددين.

* * *

1. دير الكرمليت: وهو دير كرمال سيدة عذراء سوريّة، بُني عام (1960) في حيّ الشهباء بمبادرة من المحامي فتح الله صقّال، وقد

موّله من ماله الخاص ومن مال أسرته، كما قام الأستاذ صقّال بالعديد من الأعمال الخيريّة كافتتاح مأوى المسنين في حيّ السبيل عام (1933)، كما دشّن مشفى الكلمة عام (1951)، وتولى الدفاع بنجاح عن المناضل الكبير إبراهيم هنانو أمام المحكمة العسكريّة الفرنسيّة وهو لم يزل شاباً لم يتجاوز (29) عاماً من عمره، وله مواقف وطنيّة كثيرة جعلته يتبوأ مقاماً رفيعاً قلّ نظيره، استلم الصقّال مرتين وزارة الأشغال العامة في الحكومات السوريّة، كما حاز وسام الاستحقاق السوري، وله ثمانية مؤلفات أدبيّة. ولا عجب في أن يترأس المحامي اللامع فتح الله صقّال مجلس إدارة جمعية الهلال الأحمر السوري بحلب في الخمسينيّات من القرن الماضي لسمعته العطرة ولمواقفه الوطنيّة النبيلة إضافة إلى تصديه للعديد من أعمال البرّ والإحسان.

الركن الثالث: القوّاد

أمّا القواد فقد ازدادت مكانته في قطاع الدّعارة إلى حد بعيد وتعدّدت مسؤولياته إذ يقع على عاتقه تأمين الزبائن وحماية المومس من اللحظة التي تغادر فيها مكان إقامتها إلى اللحظة التي تعود فيها إليه سالمة غانمة بعد أداء عملها، إضافة إلى مسؤولياته الماليّة فهو الذي يقبض قيمة الصفقة من الزبون بعد تسليم المومس، وبات يطلق عليه إضافة إلى لقب القواد صفة أخرى وهي (القوّاد).

يتميز القوّادون بصفات خاصة ومؤهلات من النادر أن تجدها لدى الأشخاص الأسوياء لا سيما بعد أن أصبح يحمل على عاتقه مهام متعدّدة وغدا صمام أمان نجاح صفقة الدّعارة برمتها.

حتى إذا ما اقتربت منه تجده وادعاً ساكناً إلّا أنه لا يغرنّك الغرور حين يتناهى إلى سمعك صوته الخفيض ونبرته الناعمة التي يسوقها

إليك في بداية عملية الاتفاق على تفصيلات الصفقة، فهو يتحول بسرعة البرق إلى ذئب شرس عند الضرورة، ويتمتع معظم القوّادين بتاريخ أسود وماضٍ إجرامي حافل، وقلّما ترى وجهاً من وجوههم خالياً من ضربة سكين أو تشويه من نوع ما.

* * *

شيخو

من أشهر القوادين الذين احترفوا هذه المهنة في تلك الحقبة شخص يدعى (شيخو).

هذا الرجل حدثني عنه بإسهاب الصديق (ح.ك) فقد جمعتهما صداقة عابرة اكتشف من خلالها أنّ اسمه المتداول بين الناس (شيخو) ليس سوى لقب اختاره لنفسه، وأنّ اسمه الحقيقي هو (محمد) ويبدو أنه يملك شيئاً من الحياء والاحترام إزاء رمزيّة هذا الاسم إذ شعر بأنه من غير اللائق أن يعمل في حقل الدّعارة وهو يحمل هذا الاسم، على أنّ اللافت في الأمر أنه في اختياره هذا لم يشذّ عن القاعدة التي أشرنا إليها آنفاً وهي لجوء أغلب العاملين والعاملات في هذا القطاع إلى التكني بالألقاب والصفات الدينيّة والعلميّة، كما سنرى لاحقاً في الفصل الأول من القسم الرابع.

على الأرجح ينحدر (شيخو) من أصول ريفيّة من منطقة عفرين الواقعة شمال غرب حلب، ويبدو أنّ لديه كمّاً كبيراً من المشاكل والأسباب القاسية والمعقدة التي دفعته إلى الانخراط في هذه المهنة،وأبلغ دليل على هذا شكله الذي يصيبك بالصدمة حين يقع بصرك عليه أول مرة إذ لا يملك سوى عينٍ سليمة واحدة، ولا شكّ في أنّ الأخرى قد فقدها في ظروف غامضة لم يفصح لأحد عنها يوماً قطّ.

مع هذا كان قريباً من الزبائن لما يتمتع به من ذكاء حاد وطيبة قلب فطريّة، وهو مختلف عن الآخرين في إسلوب عمله واصطياده

لرواد المتعة فقد كان يتردّد على الأماكن التي يجلس فيها شبان من الطبقات الميسورة والموسومة بالتحرر كالمقاهي والكافتريات الراقية.

على الرغم من شعوره بأنه شخص منبوذ وغريب وسط هذه الأجواء فإنه كان بارعاً في التعامل مع الزبائن وتلبية طلباتهم على نحو سريع ومتقن.

إلى ذلك لا يخلو تاريخ هذا الرجل من المواقف الإنسانيّة التي يحفها شيء من الطرافة، فقد تعرّف إلى بعض الفتية من المتردّدين على (مقهى السعد) الكائن في (منطقة العزيزيّة)[1] الذي تحوّل موقعه فيما بعد إلى مقر للسوق الحرة داخل مدينة حلب، أقول إنه كان بعض الشبان - على غير عادة أقرانهم – لا يجدون غضاضة في أن يجلس (شيخو) بالقرب منهم للتفرّج عليهم وهم يلعبون بورق الشدّة، ولم يكن لديهم في مرّات لاحقة أدنى مانع في أن يشاركهم اللعب في حال غياب أحدهم، وتقديراً لما بدر منهم تجاهه من سلوك مغلّف بالإنسانيّة والعفويّة وردّاً لهذه المعاملة التي بات يفتقدها في أجواء حياته الخاصة والعامة أخذ يوفر لهم من وقت إلى آخر أجمل الفتيات بأرخص الأسعار، إضافة إلى أنه لم يعد يتقاضى منهم أيّة أتعاب، والطريف في الأمر أنه في مرات كثيرة كان يبادر إلى دفع جزء من قيمة الصفقة من جيبه الخاص إلى المومس لاستكمال حصتها حينما لا يتوافر كامل المبلغ لدى أولئك الفتية.

على أنّ ذكاءه قاده إلى الرحيل إلى العاصمة حيث أدرك بحسّه الفطري أنّ عقد الصفقات هناك أكثر عدداً وذات قيمٍ مرتفعة، ولا شكّ في أنّ الساحة أرحب ويتقاطر إليها اللاعبات الماهرات واللاعبون المتلهفون ذوو الجيوب المنتفخة من كل حدب وصوب.

* * *

1. حيّ العزيزيّة: من الأحياء الحديثة خارج الأسوار، يقع بين التللّ والجميليّة ويعدّ حيّاً مسيحيّاً راقياً، قيل سُمّي باسم السلطان عبد العزيز، وقيل بل سُمّي باسم معمار نصراني من عائلة عزيزة. في عام (1868) أقبل على شراء جبل النهر المطل على نهر قويق جماعة من التجار المسيحيين وتقاسموه في ما بينهم، ثم بدأو في بناء الدور والمنازل وتتابع العمران وأصبحت السكنى في هذه المحلة عند المسيحيين عادة متبعة، وبات خلال فترة غير طويلة من أهم وأرقى الأحياء المسيحيّة في حلب، وهو أول حيّ بُني على الطراز الأوربي. فيه عدد كبير من الكنائس ومنها كنيسة اللاتين وهي واحدة من أعظم كنائس المدينة، وفيها أيضاً مدرسة الراهبات (جان دارك)، ومخفر العزيزيّة الذي أنشأ في عهد الوالي العثماني رائف باشا.

الركن الرابع: المكان

ثمّة مقولة انتشرت على نطاق واسع بين العامة في المدن السوريّة إثر إقدام السلطات المحليّة على إلغاء بيوت الدّعارة المرخصة وهي:

إنّ الدولة أغلقت مكاناً واحداً وفتحت بدلاً عنه مئات الأماكن الأخرى، وهذا إقرار ضمني صدر عفويّاً عن الناس إثر التحولات الجذريّة التي طرأت على سيرورة هذا القطاع.

ما يهمنا في الموضوع أنّ الملاعب التي كانت تجرى على أرضها عمليات الجنس المأجور لم تعد محصورة في أماكن محدّدة بل باتت مفتوحة على خيارات متعدّدة، على أنّ هذا لم يمنع أن تنشأ أعراف وتقاليد جديدة من شأنها أن تخلق توازناً وشكلاً اجتماعيّاً مقبولاً يتناغم مع القوانين الجديدة التي تمنع ترويج ممارسة الدّعارة وتسهيلها على نحو علنيّ.

إذن لا بدّ من أن يتخذ العاملون في هذه المهنة أسباب الحيطة والحذر، وأولى تلك الإجراءات هي عدم السماح للزبائن في مباشرة المومسات في أماكن إقامتهنّ إذ إنهنّ يقطنّ في بيوت عاديّة منتشرة في معظم الأحياء السكنيّة وبجوار بيوت الناس العاديين.

طيب! أين إذن ستقوم المومس بأداء مهمتها؟

الجواب هو:

كل بيوت المدينة باتت مسرحاً لعمليات الجنس المأجور، شريطة أن تجري بالسر ودون أن تسبب الإزعاج أو الحرج للجيران، وهذا ما سنتطرق إليه بإسهاب عند الكلام عن تفاصيل الصفقة كما كانت تجري في نسختها الجديدة.

* * *

الركن الخامس: الزبون

لم تتغير رغبات الزبون وشهواته في هذه المرحلة، إنما تغيرت مواصفاته إذ لم يعد الجنس المأجور مقتصراً على فئة البالغين والعازبين من الذكور كما كان معمولاً به في المحل العمومي، فقد بات متاحاً للقاصرين والراشدين ومُيسّراً للعازبين والمتزوجين على حدّ سواء مما جعل سوق المتعة منتعشاً ومزدهراً.

حسبي أنّ جملة العلل المستعصية في مجتمع المدينة المأزوم الذي يدّعي التحضّر والانفتاح جعلت الشرطان الوحيدان المطلوب توافرهما في جعبة الزبون هما المال والمكان لتعبّد له السبل جميعها في تحقيق هدفه وبلوغ مراده المنشود، وما عدا ذلك تلغى الحواجز الرقابيّة في أشكالها الصحيّة والأمنيّة والاجتماعيّة كافة إذ لم يعد لأيّ نوع من أنواع الرقابة التقليديّة أثرٌ يذكر في هذه المرحلة.

***

الفصل الثالث

الصفقة

تفاصيل الصفقة الجديدة

ليس من الصعوبة بمكان أن تلتقط أعين طالبيّ المتعة القوادين المنتشرين وسْط المدينة التجاري في الشوارع والأزقة الممتدّة من أطراف ساحة باب الفرج من جهة جادة القوتلي إلى المنشيّة القديمة وبداية شارع العبّارة فقد كانوا يتجولون بين الميخانات (الخمّارات) ومحلات بيع المشروبات الكحوليّة والملاهي الليليّة التي كانت تكثر في تلك المنطقة.

من أشهر الأماكن التي اعتاد القوادون على التسكع بجوارها مقهى الأكراد وميخانة هب الريح وبجوار سينما الحمراء وحول (بناية النافعية)[1].

يبدأ عمل القوادين عادة في الفترات المسائيّة ويمتد إلى ما بعد منتصف الليل، وتراهم يأتون بإيحاءات لافتة تدفع المارّة إلى التحرّش

بهم، وما إن يبادر أحد الزبائن بالحديث مع واحد منهم حتى تجده يعرض عليه بلهجة جذابة ومغرية ما كان يبحث عنه وخلال دقائق معدودة يتم عقد الصفقة بصورتها الأوليّة.

ثمّة أعراف وخطوات ينبغي للزبائن اتباعها قبل إتمام العمليّة بشكلها النهائي إذ يتوجب على رواد المتعة دفع مبلغ من المال (عشر ليرات سوريّة، أو خمس عشرة ليرة) كعربون في حال رغبتهم في الاطّلاع على بائعات الهوى في مقرّ إقامتهنّ واختيار واحدة منهنّ قبل إقرار الصفقة. كما يتكفل الزبون بتسديد أجرة (التكسي) الذي ستنقله مع القواد من وسط البلد إلى المنزل الذي تقطن فيه المومسات. وكيلا يثار مزيد من الشبهات حول بيت الدّعارة لا يسمح عادة سوى لإثنين من الزبائن على الأكثر بمرافقة القواد في هذه المرحلة.

وغالباً ما تبدأ المومسات بالاستعداد للظهور أمام الزبائن عصر كل يوم حيث يلجأن إلى التبرج الفائض، إضافة إلى أنهنّ يتعمدّن ارتداء الثياب المغرية التي تفضح أكثر ما تستر من أجسادهنّ المتوثبة لرفع درجة الإثارة عند طالبيّ المتعة إذ يتميّز أغلبهنّ كما أسلفنا بمواصفات جماليّة متواضعة.

هذا ويقود عمليّة الاتفاق النهائيّة البترونة التي تتربع على رأس هرم شبكة مسهّلي الدّعارة كما رأينا. ونلاحظ هنا تبادلاً للأدوار بين القواد والقوّادة حين مناقشة تفاصيل الصفقة مع الزبائن، وعند إقرارها من قبل القوّادة لا يحق في أغلب الأحيان للمومس التي تعمل تحت إشرافها في إبداء الرأي بالزبون أو الاعتراض عليه مهما كانت هيئته أو عمره أو مهنته فليس عليها سوى التنفيذ والإذعان لإتمام مراحل عمليّة الجنس المأجور.

ها هنا يجب التمييز بين احتمالين فإذا أعجب الزبون بإحدى المومسات ورغب في المضيّ قدماً بمبتغاه يُحسب حينئذ العربون الذي تمّ دفعه مسبقاً للقواد عند الاتفاق الأولي معه قبل القدوم إلى بيت الدّعارة كجزء من الصفقة، فيما يدفع الزبون للقواد باقي قيمة المقاولة حين وصول المومس إلى المكان الذي ستقدم فيه خدماتها الجنسيّة.

أمّا في حال لم يجد الزبون ضالّته عند إحدى الفتيات المعروضات فيلغى الاتفاق وينصرف من المنزل بمفرده ويخسر عندئذ العربون المدفوع سلفاً إذ يعدّ في هذه الحال تعويضاً عن الزمن الضائع الذي أنفقه القوّاد دون فائدة، كما أنّ جزءاً منه يعود إلى البترونة والمُومِسات مقابل الفرجة التي أُتيحت للزبون في بيت الدّعارة حيث لم تعد هناك فرجة بالمجّان كما كانت عليه الحال في أيام المنزول الغابرة.

نتابع الطقوس في حال رغب الزبون في إتمام الصفقة، فهو يصطحب المومس التي وقع الاختيار عليها، وينطلق برفقة القواد إلى المكان الذي سيحتضن التفصيلات التنفيذيّة لعمليّة الجنس المأجور، وعادة ما يجلس القواد بجوار المومس في المقعد الخلفي لسيارة الأجرة بينما يجلس الزبون على المقعد الأمامي بالقرب من السائق، وفي ذلك فائدتان: أولهما عدم لمس المومس والاستمتاع بمفاتنها قبل تسديد كامل قيمة الصفقة، وثانيهما رفع درجة اللهفة والتشويق لدى الزبون المتحفز.

إلى ذلك يفضل أن يكون المنزل واقعاً في منطقة سكنيّة عامرة بالأهالي والأسر العادية، وحين الوصول إليه يدخل القوّاد أولاً ويقوم بتفتيش الغرف ليتحقّق من أنّ عدد طالبيّ المتعة المشاركين في

الصفقة لا يتجاوز الأربعة وذلك هو الحد الأقصى المسموح به، وبعد أن يطمئن القواد بأنّ البيت آمن والوضع سليم والشروط متوافرة يقبض باقي المبلغ ويسلم البضاعة وينصرف.

قبل أن يغادر القواد يؤكد لهم بأنه سيبقى رابضاً في مكان قريب وأنه سيراقب البناية عن كثب، وفي هذا تحذير مبطن للزبائن كيلا يجول في خواطرهم أدنى تفكير وإن للحظة في الإخلال بشروط الاتفاق، وذلك من قبيل زيادة عدد رواد المتعة بعد خروج القواد ، أو نقل المومس إلى مكان آخر لعرضها على آخرين بعد الفراغ من معاشرتها إذ إنّ مثل هذه الأمور كانت تحدث في بعض الأحيان من باب الشطارة أو العبث أو الفكاهة، أو للتعليم على القواد والمومس إنتقاماً منهما من مرّات سابقة، وهذا ما يفسر أهمية دور القوّاد الذي تنامى كثيراً في هذه المرحلة كما ذكرنا سابقاً.

إضافة إلى هذا يبادر القواد إلى تذكير الزبائن بأنه سيعود بعد ساعتين بالضبط لاسترجاع المومس، وهذا الزمن يمثل المدة المتعارف عليها لإنجاز الصفقة كاملة، ولا أدري كيف استقامت تلك الشروط؟ ومن الذي أقرّها؟ وهل هي نتيجة لتجارب وخبرات متراكمة؟ في الحقيقة أسئلة كثيرة لم أجد لها جواباً شافياً ومقنعاً إذ يبدو لي أنه لا يسعنا سوى أن نعده تنظيماً داخلياً لهذه المهنة تبلور على نحو تدريجيّ وعَفَويّ.

إذا تابعنا تفصيلات الصفقة وتساءلنا على أيّ نحو ستجري بعد خروج القوّاد نجد أنّ النشاط والرغبة قد بلغا أقصاهما لدى الزبائن فهم يطلبون من المومس مباشرة عملها فوراً دون إبطاء، في حين تسعى بعض الدّاعرات ذوات الخبرة والدّهاء إلى إضاعة شيءٍ من الوقت بطلب فنجان قهوة مثلاً أو كأس من الخمر، ومنهنّ من تلجأ إلى الدلال والغنج لإثارة الزبائن على نحو تنجز فيه وظيفتها بسرعة

ويسر، وكثيرات منهنّ يتمكنّ من إتمام مهمتهنّ قبل نصف ساعة على انتهاء الوقت المحدّد، وربما قبل ذلك فيستثمرْنَ الزمن المتبقي في إثارة مشاعر الزبائن وعواطفهم لاستجلاب قدرٍ إضافيٍ من النقود إذ يبادرن إلى رواية قصصهنّ بإسلوب تراجيديّ ومحترف، وأنهنّ ضحايا لمجتمع لا يرحم وقد أجبرّن على ممارسة المهنة قسريّاً وأنهنّ لم يسلكن ذاك الطريق إلا بعد أن ذُقن ضروباً من غدر الحياة وتلونها وغالباً ما ينجحّن في إتقان هذا الدور.

في هذا السياق حدثني أحد الأصدقاء عن مومس كانت تستدر عواطف زبائنها بإظهار ندبة في خاصرتها على أنها ضربة سكين مدّعية بأنها نجت من موت محقّق إثر إقدام أحد أخوتها على قتلها إزاء اكتشاف علاقتها البريئة مع واحد من أبناء بلدتها الصغيرة، على أنّ صديقي كان يرجّح عدم صدق روايتها إذ إنّ جرحها بدا له كما لو أنه نجم عن عملية طبيّة عاديَة أقرب من أن يكون قد نتج عن ضربة سكين عشوائيّة.

ومنهنّ من تستخدم فطنتها المهنيّة ودهاءها الفطريّ في استدرار مزيد من المال بإسلوب غراميّ محترف فهي تلتقط بفراستها الأنثويّة أكثر الزبائن عاطفة وهدوءاً وترميه بشباكها المعسولة والحانية منذ أول لحظة يدخل فيها إلى الغرفة التي تقدم فيها المومس الخدمة الجنسيّة لهم وتحيطه بمشاعر فائضة، وما إن تبدأ في معاشرته حتى تبادر إلى الثناء على فحولته وأدائه وتوهمه بأنها بلغت معه أقصى درجات النشوة.

نرى أنه في مرات نادرة تعجز المومس عن أداء مهمتها على الوجه الأكمل وذلك حين ينتاب أحد الزبائن الخجل أو يعتريه شيء من العَنت، فيصاب البرنامج المقرّر بالخلل والانزياح، على أنّ هذه الأمور

الطارئة ليست موجودة في قاموس القواد فعودته ستكون بعد ساعتين لاصطحاب المومس مهما كانت النتائج المحقّقة من قبل الزبائن، فهذا الموضوع لا يعنيه البتة لا سيما حينما تكون أسباب التأخير ناجمة عن طالبيّ المتعة.

من نافلة القول: أليس ضرباً من البراعة أن تقدّم المومس بمفردها وجبتين شهيتين لأربعة أشخاص متحفزين خلال ساعتين أو أقل.

فضلاً عن أنه لا يوجد أيّ مانع على الإطلاق أن يكون طرفا المتعة داعرة وثلاثة أشخاص، أو اثنين، أو حتى رجل واحد فقط، وفي الحالة الأخيرة تسمى الصفقة (بالأنغاجيه)، ويمكن أن تمتد لليلة كاملة إذا رغب الزبون في ذلك ومما لا شكّ فيه أنّ قيمة المقاولة في هذا الوضع سترتفع كثيراً، ويجري تحديدها تبعاً لعوامل عدّة منها المكان وعمر البغيّ والزمن المطلوب لإتمام العمليّة.

أمّا في الصفقات العاديّة التي درج على تسميتها (بالشكار)، فالزمن المحدد كما أشرنا هو ساعتان فقط، تقدم من خلاله المومس الخدمة الجنسيّة ثماني مرّات كحد أقصى، وتتراوح أسعارها في سبعينيّات القرن الماضي بين الخمسين والثمانين ليرة سوريّة.

نشير إلى أنه تزداد قيمة الصفقات في ليلتيّ الخميس والجمعة من كل أسبوع، ولا شكّ في أنها تتضاعف في الأعياد والمناسبات، وفي الحالات كلها يعود ربع المبلغ تقريباً للقواد مقابل خدماته اللوجستيّة بينما يتقاسم الباقي البترونة والمومس، وتتأرجح نسبة كل منهما تبعاً لظروف الطرفين وخبرتهما.

* * *

استدراك

لا شكّ في أنّ العرض الذي أوردناه في الفقرة السابقة عن تفصيلات الصفقة يعدّ من الناحية النظريّة مثالياً، وفي معظم الأوقات تجري الأمور على هذا النحو، وقد يشوبها أحياناً شيء من التعديلات أو المفاجآت العابرة لكنها غالباً ما تبقى في إطار محدود وبسيط لا يعكر صفوّ الطرفين ولا يحول دون إتمام عمليّة الجنس المأجور على نحو طبيعيّ.

غير أنه لكل قاعدة شواذ إذ ثمّة صفقات خرجت عن المألوف وكسرت تلك الأعراف ممّا سبب الأذى والحرج لأحد الطرفين، وغالباً ما يكون مصدرها نيّة مبيّتة من أحدهما، ولعل الأخبار والقصص التي سنتعرف إليها تالياً تبرز الألاعيب المبتكرة وأساليب انتهاك قوانين الصفقة وتقاليدها من أحد الفريقين.

* * *

الصديق المغدور

ادّعى أحد الأشخاص امتلاك علاقة من نوع خاص مع عدد من البترونات المعروفات في منطقة الشيخ طه. فقد كان يعمل مسيّراً لمعاملات الزواج والطلاق في المحكمة الشرعيّة في القصر العدليّ بحلب، ولمّا كانت إحدى الوسائل الناجعة في التحايل على قوانين مكافحة الدّعارة هي أن يبادر القواد إلى الزواج من إحدى مومساته، وربما الجمع بين أكثر من واحدة، فقد بات هذا الرجل ملجأ لكثيرات منهنّ وملاذاً مألوفاً يجدن عنده الخلاص فتراهنّ يؤبن إليه زرافات ووحدانا كلما دعت الحاجة، فهو مختص بهذا النوع من الزيجات التي قد تحتاج أحياناً إلى بعض الترتيبات الخاصة والمعقدة.

تلقى هذا الرجل في يوم من الأيام عرضاً مغرياً من إحدى القوّادات إثر خدمة جليلة قدمها لها ساعدتها على حل مشكلة عويصة يبدو أنها كانت متعسّرة منذ مدّة في قاعات المحاكم وأروقة القصر العدليّ، فقد دعته لاصطحاب إحدى فتياتها في جولة (شكار) يدعو إليها ما طاب له من أصدقائه مقابل مبلغ زهيد من المال دون أن يكون للقواد أي دور فيها، وما عليه إلّا أن يزورها في الوقت الذي يحلو له ويختار المومس التي تعجبه ويتمتع بمفاتنها برفقة أصحابه ويعيدها أنّى شاء دون تقيّد في الزمن مهما طال.

هذا الإجراء كان يعدّ آنذاك إجراءً استثنائيّاً في عالم شبكات الدّعارة إذ من النادر أن تخرج المومس من مقر إقامتها في مهمة عمل بمفردها دون حماية من القواد.

لم يكذب صديقنا خبراً فقد توجه في اليوم التالي إلى منطقة الشيخ طه برفقة شخصين حميمين ممنين أنفسهم بالتهام وجبة دسمة من المتعة، وحتى إذا ما خرج ربيب القوادات من بيت الدّعارة متأبّطاً ذراع مومسٍ فتيّة استقل سيارة أجرة مصطحباً صديقيه اللذين كانا قابعين بجوار مدخل البناية وقد فاضت روحهما بالشغف والشهوة.

ما إن انعطفت السيارة نحو اليمين مخترقة جسر السكة الحديد متجهة نحو حيّ السبيل[2] حتى باتت سيارة المتعة تنطلق وحيدة في شارع ضيق يحفه الظلام والوحشة إذ إنّ هذه المنطقة كانت مقفرة في تلك الفترة وغير آهلة بالسكان.

في غمرة الغبطة والنشوة ظهرت بَغتة سيارة غريبة تقلّ رجالاً أشدّاء منتعلين وجوهاً ذات ملامح فظّة تحمل على القلق والفزع.

خفّف السائق من سرعته إثر تلقيه تهديداً ووعيداً من الرؤوس الممتدة من نوافذ السيارة الأخرى التي بدت غاضبة ومستعرة كما لو

أنها فؤوس هائجة، في حين استبدّ الهلع والخوف بالمومس وأخذت تصرخ بصوت مذعور راجية السائق ألّا يتوقف بل راحت تحضّه على زيادة سرعته فقد تبيّن أنّ السيارة الغريبة التي تطاردهم تضيق بأجساد أقاربها الغاضبين.

على أنّ المسدسات التي أُشهرت في الهواء جعلت السائق يتوقف على نحو فوريّ، بينما انقضّت السيارة المهاجمة عليهم على نحو متهور، وتوقفت أمامهم إثر الضغط الشديد على مكابحها كما لو أن المشهدّ مقتطع من فيلم بوليسي أمريكي.

خلال ثوان معدودة انطلقت السيارة الغريبة بعد أن اختطفت المومس عنوة وسط دهش طالبيّ المتعة وذهولهم.

حين عاد الصديق المخدوع إلى بيت الدّعارة تلقى اللوم والخيبة إذ عدّته البترونة شخصاً لا يؤتمن رافضة ردّ المال الذي دفعه بل اتهمه زوجها القواد بأنّ اختفاء المومس ليست إلّا حيلة من تدبيره، فلم يجن هو وأصحابه في تلك الليلة المشؤومة سوى الخذلان والخسارة على المستويين المادي والمعنوي.

* * *

خدعة لم تكتمل

في المقابل ثمّة قصص وأخبار كثيرة تحدثت عن مكر الزبائن وأساليبهم الخادعة التي كانوا يتبعونها للإيقاع بالمومس أو بالقواد أو بكليهما، فبعض المومسات كما رأينا اعتدن على العمل بمفردهنّ.

اتفق أحد الأشخاص على صفقة (شكار) مع قوّاد مشهور بحرصه في التعامل مع الزبائن وحذره من آلاعيبهم المحتملة وإن كانوا من عملائه المعروفين.

حين وصل القوّاد برفقة المومس إلى بيت الزبون بدت الأمور كلها تسير على نحو سلس وطبيعي كما هو متفق عليه، فالمنزل يقع في بناية سكنيّة وعدد طالبيّ المتعة لا يتجاوز الأربعة طبقاً للأعراف المتبعة، وهم في الوقت نفسه من طالبيّ العلم في الجامعة، ولا يوجد أيّ شيء يدعو إلى الريبة أو القلق على المومس.

قبل أن يعبر القواد باب المنزل لمحت عيناه عدّة أبواب داخليّة مغلقة، فارتدّ إليها ليتحقّق من عدم وجود مزيد من الأشخاص في المنزل، وفعلاً لم يجد سوى الخواء خلف الأبواب الموصدة.

على أنه حين فتح باب الحمام وقع بصره على عدّة أجساد متحفّزة، فطار صوابه وراح يزبد ويرغي ثم انقلب إلى الصالة وسحب المومس وودفعها أمامه وانصرف ساخطاً حانقاً غير مكترث باعتذار الزبائن وعرضهم بدفع مبلغ إضافيّ من المال.

* * *

نكتفي بهاتين الحكايتين إذ إنه ورد في الروايات الشفويّة ثمّة قصص كثيرة لا حصر لها، تحدثت عن الصراع الأزليّ بين الزبائن من جهة، وبين القوّادين والمومسات من جهة أخرى.

*1. **بناية النافعية:** أزيلت عن الوجود عام (1979) في إطار مشروع باب الفرج، وأقيم مكانها مستديرة يتوسطها نصب تذكاري مستوحى من ميضأة النافعية التي هدمت أيضاً عام (1929) مع بدء مد خطوط الترام في حلب.*

*2. **حيّ السبيل:** محلّة السبيل قسمان: الأول: متنزه السبيل، ويشمل العمران شماليّ وشرقيّ حديقة السبيل، والثاني: حيّ السبيل، ويشمل العمران قبليّ الحديقة، وكان الذين يصيبون الغنى في الأحياء الشعبيّة سرعان ما يستوطنون محلّة السبيل.*

الفصل الرابع

الرقابة الحكوميّة

أولاً: الرقابة الصحيّة

لقد تراجعت الرقابة الصحيّة على نحو كبير إثر إغلاق العيادة الملحقة بالمنزول (مشفى الأمراض الزهرية) بل لعلها تبدّدت، وبذلك يمكننا القول إنّ الرعاية الطبيّة التي وفرتها الإدارة طيلة عمر المحل العمومي قد تلاشت والتغى تلقائياً الحجر الصحيّ الذي كان يفرض على المومسات حين اكتشاف إصابتهنّ بأيّ نوع من الأمراض المعدية والسارية علماً بأنه كان من أنجع الوسائل للشفاء من تلك الأمراض.

وبالتالي انعدم العلاج السريع والمباشر لتلك الآفات التي غالباً ما كانت تنجم عن العمل في مهنة الجنس المأجور التي تعدّ مرتعاً خصباً لانتشارها بين الذكور والإناث على حد سواء، فقد كانت تخضع كما رأينا نزيلات المحل العمومي للفحوصات الدوريّة والمستمرة كل

أسبوع، يتلقيّن من خلالها النصائح والتعليمات الطبيّة ويُزودن بأدوية وقائيّة ومطهّرات (كالغسول) ويُمنعن من العمل في أثناء حدوث الدورة الشهريّة أو إصابتهنّ بمرض معدٍ أو سارٍ فقد كنّ يُحجرن في غرف خاصة ملحقة بالعيادة الطبيّة التابعة للمنزول ومزوّدة بأبواب حديديّة أشبه بالزنازين الموجودة في أقسام الشرطة.

على إثر إغلاق المحل العمومي وانتشار بيوت الدّعارة في مختلف أحياء المدينة نجد أنّ العمل في هذه المهنة قد عاد إلى سابق عهده حيث صار يجري على نحو سريّ وغير شرعيّ كما كانت عليه الحال قبل عام (1900).

وممّا لا يتفق مع الوعي الصحي تتمتع أغلب البترونات والمومسات بمستوى ثقافيّ واجتماعيّ وتعليميّ متدنٍ، إضافة إلى أنّ معظمهنّ يعتقدن أنّ زيارة الأطباء باتت مضيعة للوقت والمال في وقت واحد، ولم يعدن يتردّدن على العيادات الطبيّة الخاصة إلّا في الحالات الحرجة جداً، كالحمل غير الشرعيّ أو الإصابة بأمراض نسائيّة خطيرة، وأمسى عمل المومسات دون رقابة طبيّة منتظمة ضرباً من المقامرة بالصحة المجتمعيّة بشكل عام وبأجسادهنّ وحياتهنّ على وجه الخصوص، إذ غدا السبب الرئيس لمرض ورحيل كثيرات منهنّ ناجماً عن الإهمال وضعف الوعي الصحيّ.

خلاصة القول: إنّ الرقابة الصحيّة على قطاع الدّعارة قد تراجعت إلى حدّ كبير في تلك المرحلة، ونستطيع أن نعزي ذلك إلى الأسباب التالية:

1- عدم نقل مشفى الزهري إلى مكان آخر، فقد تم إلغاء العمل فيه إثر صدور قرار السلطات المحليّة بإغلاق المحل العمومي وبالتالي توقف الإشراف المباشر على قطاع الدّعارة، وذلك على الرغم من أنّ المشفى كان يقدم خدماته الطبيّة للعاملين في هذه المهنة ولأهالي

المدينة على حد سواء، ونذكّر بأنّ الإدارة دأبت على تقديم تلك الخدمات بالمجّان لأبناء شرائح المجتمع كافة.

2- عزوف المومسات عن التردّد بشكل دوري على العيادات الخاصة لقلّة وعيهنّ من جهة، فغالباً ما ينتمي أفراد تلك الفئة إلى بيئات ثقافيّة متواضعة، ولتفادي تعرضهنّ للفضيحة والتشهير من جهة أخرى، فضلاً عن أنهنّ سيتحملن أعباء أتعاب الطبيب وقيمة العلاج من أموالهنّ الخاصة.

3- لجوء نفر كبير من المومسات لأساليب الوقاية الشعبيّة البسيطة التي لا تحول في أغلب الأحيان عن الإصابة بالأمراض المعدية.

من الجدير بالذكر أنّ مديريّة الصحة بحلب استحدثت في ستينيّات القرن الماضي عيادات نسائية ملحقة (بمستشفى التوليد)[1] الحكومي الكائن (بحيّ المحافظة)[2].

بيد أنّ هذه العيادات لم تكن بديلاً عن مشفى الزهري الذي كان ملحقاً بالمحل العمومي، فقد اقتصرت خدماتها الطبيّة على عيادة أمراض النساء، وعيادة الكشف المبكر عن سرطان الثدي والرحم، وعيادة متابعة النساء الحوامل، وعيادة تنظيم الأسرة.

وعلى الرغم من أنّ هذا المركز الطبيّ لا يضم قسماً مختصاً بالأمراض السارية والمعدية إلّا أنّ ذلك لم يمنع كادره الطبيّ من الكشف على السيدات المصابات بتلك الأمراض في حال قدومهنّ إليه لطلب المشورة والمساعدة وعلاجهنّ وتقديم النصح إليهنّ، ولكن يبدو أنّ تردّد المومسات على هذه العيادات كان نادراً نظراً لما يترتب عادةً على تلك الزيارات من قيل وقال وشوشرة وفضائح محتملة لا شكّ في أنهنّ في غنى عنها.

1. مستشفى التوليد الحكومي: في عام (1953) لم يكن في حلب مشفىً حكومي للتوليد، فعمدت الحكومة إلى مصادرة طابقيّ القبو والأرضي من مبنى مشفى التوليد التابع لجمعيّة المشاريع الخيريّة النسائيّة في حلب وجعلتهما مشفىً حكومياً ومستوصفاً لأمراض النساء والتوليد تابعان لوزارة الصحة، فيما شغل المشفى الأساسي الطابقين الأول والثاني. وما زال المشفيان يعدّان من أكبر مشافي التوليد في حلب وأهمها إلى يومنا هذا. والجدير بالذكر أن جمعيّة المشاريع الخيريّة النسائيّة تأسست عام (1946) بمساعي السيدتين الفاضلتين خيريّة مرعشي شقيقة المجاهد الكبير الحاج فاتح مرعشي، وجميلة إبراهيم باشا بنت أحد زعماء حلب إبّان الاستعمار الفرنسي الدكتور حسن إبراهيم باشا الملقب بأبونا حسن بيك، وبمؤازرة نخبة من سيدات حلب، وقد احتفلت الجمعيّة في (1947/06/13) بوضع حجر الأساس لمشفى التوليد في منطقة المحافظة الراقية، ونشير إلى أنّ جميع أعضاء الجمعيّة من النساء ولها تاريخ حافل وطويل في أعمال البر والخير والإحسان، آخرها افتتاح دار السعادة للمسنين في عام (1998) في أحد أحياء حلب الغربيّة، ويضم (60) غرفة، وقاعات للاجتماعات والسهرات والاحتفالات، وقاعة للمطالعة، ومطعم وحديقة واسعة.

2. حيّ المحافظة: يقع غربيّ المدينة، فيه دار المحافظ والقنصليّة التركيّة، يسكنها الأغنياء وكبار المسؤولين.

انظر كتاب أحياء حلب وأسواقها، تأليف خير الدين الأسدي، وتحقيق عبد الفتاح روّاس قلعه، جي الصفحة (337).

ثانياً: الرقابة الأمنيّة

تلاشت معظم الإجراءات الرقابيّة التي فرضتها السلطات المحلية سابقاً على قطاع الدّعارة حين كانت أغلب أنشطته الحيويّة محصورة داخل أسوار المحل العمومي، فقد اقتصرت رقابة الدولة الأمنيّة على جهاز شرطة الآداب (الأخلاقيّة) الذي كان مكبّلاً بالقوانين المدنية من جهة ومغلفاً بالفساد من جهة أخرى.

ها هنا نرى أنّ الرقابة الأمنيّة تراجعت على نحو كبير، وازدادت على إثرها جرائم الشرف بصورة ملحوظة، فقد أصبح وصول أقارب المومسات الغاضبين إليهنّ أمراً يسيراً والقصاص منهنّ وقتلهنّ بطرق بشعة لا تمت للرأفة بأدنى صلة احتمالاً وارداً، وكثيراً ما كان يتردّد في المدينة أخبار وحوادث من هذا النوع.

* * *

غسل العار

من الحكايات التي كانت تتكرّر بين الفينة والأخرى إقدام أحد أقارب البغيّ - وغالباً ما يكون واحداً من إخوتها - على قتلها إثر العثور عليها في المكان الذي تمارس فيه صنعتها المشبوهة، وذلك عقب مطاردة تمتد لعدة أيام وقد تستغرق في بعض الأحيان بضعة أشهر وربما سنوات، حيث كان القاتل يقبض على ضحيته من شعرها ويجرّها على السلالم الحجريّة إلى أعلى البناية غير عابئ بتوسلاتها واستغاثاتها إذ إنّ معظمهنّ يهتفْن في تلك اللحظات بنبرة هستيريّة لا تخلو من عبارات التوبة والندم (والله بطّلت، خلص إيخر مرّة، الله يوفقك، أبوس إيدك، أبوس إجرك يا أخوي لاتقتلني، والله بطّلت).

لكن يبدو أنّ ذلك كان يزيده غيظاً وإصراراً وتعنيفاً لها، وما إن يصلا إلى السطح حتى ينقضّ على رقبتها ويبادر إلى ذبحها على مرأى

ومسمع الجيران الذين اندفعوا خلفهما تلبية لنوازع تطفلهم الجامح وفضولهم الأعمى، ثم يجعل المنتقم دم المغدورة يسيل من خلال مجرى تصريف الأمطار النازل من سطح العمارة إلى أسفلها، وبعد ذلك يهبط بخطوات واثقة إلى مدخل المبنى ويقف فوق دمها الذي اختلط بالغبار والمخلفات الملتصقة برصيف الشارع متباهياً ومعلناً في الوقت نفسه بأنّ غيظه قد ارتوى، فهو يعتقد في تلك اللحظات أنّ فعلته تلك قد غسلت عاره وردّت له شرفه دون أن ينتابه أدنى شعور بالندم أو الرأفة أو الخوف.

يجري ذلك وسْط إشادة من الناس المتحلقين حوله وتراهم يبادرون إلى وصفه بالشاب الجريء صاحب النخوة والناموس، وبالمقابل تجد معظمهم يشمتون بالقتيلة وينعتونها بالساقطة والفاجرة، وأنها تستأهل هذه النهاية الوَخْمَة دون أن يخطر على بالهم وإن للحظة واحدة التفكير بالأسباب أو التساؤل عن الدوافع التي جعلتها تقع فريسة لأنياب هذه المهنة القاسية.

أنا هنا لا أبرئ أحداً ولا أوجّه التهم لأحد، ولا يسعنا في هذا المقام الإحاطة بالأسباب والدوافع كافة إذ إنّ الغوص فيها يحتاج كما ذكرنا سابقاً إلى دراسات معمّقة ويتطلب أيضاً الخوض في أبحاث علميّة ومنهجيّة مستفيضة.

من ثم يبادر المنتقم إلى تسليم نفسه إلى السلطات الأمنيّة رافعاً رأسه معتزّاً بفعلته ومفتخراً بها، فهو يعرف مسبقاً أنّ جريمته لها ما يسوّغها في القوانين الوضعيّة، وأنه لن يتلقى سوى عقاب مخففٍ وبسيطٍ، وهذا ما سنطّلع عليه لاحقاً حين نستعرض الرأي القانوني حول ظاهرة الدّعارة سواء في أيام وجود المحل العمومي أو في المرحلة التي تلت إغلاقه.

* * *

بوح رسمي

حدثني في هذا السياق صهري الدكتور (فاروق نصار) نقلاً عن صديقه العميد (حسن حوري) رئيس فرع الشرطة الجنائيّة بحلب في ثمانينيّات القرن الماضي أنّ تقديرات قسم شرطة الأخلاقيّة (الآداب) تشير إلى وجود ما يربو على ثلاثة آلاف بيت دعارة في مدينة حلب، فيما يرتقي هذا العدد لدى القسم نفسه في العاصمة إلى تسعة آلاف منزل يمارس فيه العهر والفجور على نحو نشط.

اللافت للنظر أنّ هذه الأماكن تعيش وتعمل تحت رقابة وإشراف مستترين من قبل الأجهزة الأمنيّة التي يبدو أنّ ليس بيدها حيلة سوى السعي إلى تقليل آثار المظاهر العلنيّة المؤذية وتقليصها قدر المستطاع، فهي تثير كمّاً كبيراً من الاستياء والغضب لدى بعض أفراد المجتمع.

على أيّة حال وطبقاً للقوانين المرعية لا يسمح لعناصر شرطة الآداب مداهمة تلك البيوت السريّة إلّا بعد الحصول على إذن من قاضي التحقيق (وكيل النيابة) الذي بدوره أيضاً غير قادر على إصدار مثل هذه الأوامر إلّا في حال ورود شكوى من الجيران أو من خلال صدور تعليمات عليا.

ها هنا نرى أنّ مهمة رجال (شرطة الأخلاقيّة) باتت أكثر سهولة وأعمق إنسانيّة إذ اقتصرت الزيارات الشكليّة لبعض أفراد هذا الجهاز إلى بيوت الدّعارة على قضاء حاجاتهم الجنسيّة، وتناول ما لذّ وطاب من المأكولات الدسمة وارتشاف كؤوس الخمر المترعة، وليس ثمّة أدنى حرج لدى بعضهم من قبول شيء من الهبات والإكراميّات السخيّة عند مغادرتهم تلك الأماكن.

وهكذا ومن خلال انتقالهم من بيت إلى آخر بتلك الصورة الحضاريّة نجد أنّ المسؤولين عن مكافحة شبكات الدّعارة قد قاموا

بواجبهم على نحو متقن، وفي منتهى الدراية والإخلاص ومن موقع الحدث مباشرة.

الغريب في الأمر أنّ القبضة الأمنيّة المتمثلة بفرع شرطة الأخلاقيّة باتت أكثر مرونة تجاه شبكات الدّعارة إذ يبدو أنه تبيّن للسلطات المحليّة أنّ هذا النشاط الاجتماعيّ الحيويّ لا يمس لا من قريب ولا من بعيد أمن الدولة، ولا يقترب من السياسة بأيّة حال من الأحوال بل على العكس فإنّ هذه الحركة النشطة من اللهو والمجون تدفع شريحة مهمة من المجتمع إلى الابتعاد عن التفكير بأمور أخرى والإتيان بأفعال معينة لا تسر عادة الحكومات الموسومة بالفساد والاستبداد.

وربما تطور هذا القطاع وانتشار مفاعيله في المجتمع يدعم بشكل أو بآخر أمن الدولة الاقتصادي، وذلك من خلال تنشيط الحركة السياحيّة وتشجيعها ولا سيما في العاصمة والمدن الرئيسة في الدولة.

* * *

حلول مبتكرة

ثمّة فئة من المحامين نالوا شهرة فريدة في عالم الدّعارة وبين أروقة المحاكم، تلجأ إليهم شبكات تسهيل الجنس المأجور وترويجه حينما تسقط إحدى فتياتهم في الجرم المشهود، وتغدو قاب قوسين أو أدنى من إيداعها في سجن النساء إثر إدانتها واقتراب الحكم عليها، مما سيؤدي إلى فقدانهم لنشاطها المهني وبالتالي خسارة مردوده المادي.

إنّ الحلول التي يبتكرها أولئك المحامون الدهاة لتخليص المومسات من العقاب، أو إلى تخفيضه على أقل تقدير تنهض على خدعتين، الأولى يجري تدبيرها في الخفاء بالتعاون مع أحد الأطباء الفاسدين لإصدار تقرير طبي يفيد بأنّ المومس المقبوض عليها مريضة عصبياً وأفعالها أقرب إلى الجنون منه إلى السلوك الطبيعي، فيصدر

حينئذ القاضي المتهاون حكماً تُحوّل المومس بموجبه إلى مشفى الأمراض العقليّة الكائن (بمنطقة الدويرينة)[1] لتتلقى العلاج والرعاية الصحيّة الملائمة.

ومن ثم يشتغل المحامي على الخدعة الثانية فالمومس وبقدرة قادر سرعان ما تستعيد اتزانها ورجاحة عقلها خلال فترة بسيطة من إقامتها في مشفى المجانين، مما يتيح لإدارة المصحّة تحريرها من عطالتها المهنيّة، وإعادتها إلى أحضان شبكة الدّعارة المسؤولة عنها وإلى نشاطها المثمر.

نشير إلى أنه غالباً ما يكون أجر المحامي في مثل هذه القضايا مجزياً.

حدثني في هذا السياق أحد الأصدقاء عن مشاهداته خلال زيارة خاصة قام بها إلى مشفى الأمراض العقلية في الدويرينة، فقد تعرف إلى عدد من هؤلاء الفتيات، ولا حظ أن الإدارة عمدت إلى تشغيلهن في أعمال مفيدة مثل الخياطة والأعمال الخدميّة الأخرى نظراً ليقينها بأن عقولهنّ تتمتع بقدر وافر من الذكاء والنباهة.

ظني أنّ السلسلة كلها بدءاً بعدد من المحامين، ومروراً بثلة من الأطباء، ومجموعة من العاملين في سلك القضاء، وصولاً إلى بعض المشرفين في إدارة المشفى لا شكّ في أنّ شيئاً من الفساد يمسّها بشكل أو بآخر.

* * *

المصالح المتبادلة

في الضفة الأخرى نجد المشهد مختلفاً، فمحاولات المحامين الماكرة تبوء في بعض الأحيان بالإخفاق، فتدان على إثرها المومس وتحشر في السجن المركزي لتقضي العقوبة الصادرة بحقها، غير أنّ معظم

المومسات اللاتي يقعن في هذه المحنة لا يستسلمن لأقدارهنّ بسهولة ولا ينكفئن يائسات، إذ سرعان ما يتمكنّ بخبرتهنّ من مدّ جسور المصلحة والمنفعة مع عدد من أفراد الشرطة العاملين في السجن، وربما تخدمهنّ المصادفة حين تضم الإدارة أحد الضباط المتهاونين ذوي الرتب الصغيرة والهمم الكبيرة، مما يزيد في حظوظهنّ بالمتعة والإمتاع، وعلى هذا النحو تصبح أجسادهنّ خلال فترة قصيرة وجبة دسمة لبعض الأغنياء من أمثالهنّ المحبوسين، ولا عجب في ذلك فالسجون مليئة بالرجال الجائعين والمحرومين.

ها هنا نرى أنّ عملية الجنس المأجور في السجن تقتصر على ثلاثة أركان فقط، الأول: المومس، وهي موجودة بلحمها وشحمها وجاهزة دائماً لاستغلال وقتها وظروفها على النحو الأمثل، والثاني: القواد، وفي هذه الحال يتقمص أحد أفراد الشرطة الفاسدين وظيفته، وينبغي لنا أن نشير هنا إلى أهمية دوره، فنجاح العمليّة برمتها يتوقف عليه، فهو صلة الوصل والمشرف والحامي والذي يوفر الخدمات اللوجستيّة جميعها، والثالث: المكان، وهذا أمره هيّن فليس من الصعوبة على الإطلاق أن يجعلوا من إحدى الزوايا المخفيّة في دهاليز السجن مسرحاً لتنفيذ العمليات السريّة، ومن جهة أخرى نجد أن الخاسر الأكبر والوحيد في هذه اللعبة هي شبكة الدّعارة التي كانت تستثمرها، في حين تجدر الملاحظة إلى أنّ قيمة الصفقة في مثل هذه الحالات لا بدّ من أن تكون مجزيّة كي تغدو ملائمة لسد أفواه المشاركين جميعهم.

وحسبي أنّ الفساد المستشري بين ثنائية أجهزة الدولة الرقابية والتنفيذيّة من جهة وشبكات الدّعارة من جهة أخرى لا يشكل ظاهرة

محليّة فحسب، بل تعدّ كلمة السر الذهبيّة التي تقود هذه المهنة الحيويّة في أغلب دول العالم، وتساعد على ازدهارها.

1. منطقة الدويرنه: تقع شرقي حلب، وهي قرية دخلت ضمن الحدود الإداريّة للمدينة.

انظر كتاب أحياء حلب وأسواقها، تأليف خير الدين الأسدي، وتحقيق عبد الفتاح روّاس قلعه جي، الصفحة (201).

ثالثاً: الرقابة الاجتماعيّة والأخلاقيّة

لا شكّ في أنّ الاعتبارات الاجتماعيّة والأخلاقيّة قد تقهقرت إلى درجة بعيدة، فقد بات متاحاً للمتزوجين وحتى الأحداث ممارسة الدّعارة في الوقت الذي يحلو لهم دون رقيب أو حسيب بعد أن كانت ممارستها قاصرة في المحل العمومي على البالغين والعازبين من الذكور.

كما أنه لم يعد ثمّة رادع مباشر للفتيات اللائي يتورطن بالعمل في هذه المهنة، فالخشية من الفضيحة باتت محدودة لا سيما إذا عرفنا أنّ أغلب الفتيات المحترفات قادمات من خارج حلب، إضافة إلى أنهنّ أمسيّن يمتلكن حريتهنّ الكاملة في ممارسة مهنتهنّ أنّى شئن وأينما شئن دون أدنى شعور بالخوف من شبح العودة إلى المحل العمومي وإجبارهنّ على العمل داخل أسواره، فقد تبدّد هذا الخوف بعد أن أُحيل المنزول إلى التقاعد وأغلق أبوابه وأصبح أثراً بعد عين.

* * *



الفصل الخامس

طرائف من عالم الدّعارة الحرّة

بزغت وسائل جديدة إثر انفتاح قطاع الدّعارة وتمدّده في معظم أحياء المدينة، كان من شأنها ترويج الجنس المأجور وتسهيله وهذا ما جعل كثيراً من الدّاعرات يبادرن إلى العمل لحسابهنّ الخاص أو العمل في جولات سريعة بعيداً عن رقابة البترونة والقوّاد اللذين تعمل تحت إشرافهما وحمايتهما، مما عرّض بعضهنّ إلى مواقف حرجة لا تخلو من طرافة. ولعل الحكايات التي سنوردها تالياً تخبرنا عن بعض تلك الحوادث الظريفة.

* * *

نوال

من القصص الطريفة التي لها علاقة بهذا القطاع المثير حادثة أخبرني عنها أحد الأصدقاء، فقد ذكر لي أنه في عصر يوم من أيام الصيف حيث تخلو الطرقات من المارّة ويلجأ أغلب الناس إلى منازلهم طلباً للراحة واتّقاءً من حرارة الجو الشديدة.

في ذلك اليوم جرت معه هذه الحادثة الغريبة.

بينما كان يقوم بتوصيل صاحبه إلى منزله الكائن في حيّ الشيخ طه وقع بصره على فتاة جميلة تسير بمفردها على الرصيف.

فضوله الذكوري دفعه إلى العودة من الشارع نفسه لعله يحظى بنظرة منها أو ما شابه أو على أقل تقدير يمتع نظره بجمالها اللافت، ولمّا كان يعتقد أنها صبيّة من أهالي الحيّ عمد إلى التعامل معها بوصفه معجب متيّم كما يفعل عادة في مثل تلك الحالات.

تمهل حين أصبح بجوارها ورمى عليها ابتسامة مصطنعة فبادلته من فورها بأحسن منها فارتدّ عائداً مرّة أخرى فرصدت عيناه إيحاءات إيجابيّة من وجهها الذي لا يشي سوى بالبراءة والعفّة على نحو حرّضته فيه على مزيد من الجرأة، معتقداً بأنه قد أسرها بشبابه وطلته وسيارته الجديدة فانعطف في المفرق التالي وركن سيارته بجوار مسجد الشيخ طه وعكف ينتظر.

ما هي إلّا لحظات قليلة حتى التقطت عيناه من خلال المرآة الجانبيّة صورة الفتاة الجميلة وقد انعطفت هي الأخرى إلى الشارع الفرعي نفسه إثر وقوع سيارته في مرمى نظرها، وها هي ذي تقترب منه بخطوات حثيثة وتفتح باب السيارة وتدفع بجسدها البضّ إلى جواره دون خجل أو حرج وكأنها على موعد مسبق معه.

رحب بها بحرارة وانطلق بفرح غير مصدق في قرارة نفسه أنّ هذه المغامرة قد جرت على هذا النحو من السهولة والسرعة، وفي خاطره شرعت تجول أفكار مرحة مغلفة بفيض من الأوهام الماكرة، تبشر بمشروع صداقة مع فتاة جميلة ذات مواصفات خاصة وسلوك مثير للإعجاب.

ولمّا كان هذا الاعتقاد مخيّماً على عواطفه قام بتعريف نفسه بصورة لا تخلو من الزهو وحرفيّة من يظن نفسه أنه محطم قلوب العذارى، فسألها بنبرة رقيقة عن اسمها أجابته بصوت ناعم وأخبرته أنّ اسمها نوال، ثم ما لبثت أن ألقت عليه آخر مفاجآتها الصاعقة حين سألته على نحو خاطف إذا ما كان يمتلك مالاً وبيتاً خالياً، ليأويا إليه في تلك الساعة.

أدرك آنذاك أنه وقع فريسة لشر أعماله إذ تبيّن له أنها ليست إلّا واحدة من اللواتي يبعن أجسادهنّ الطازجة مقابل حفنة من الأوراق النقديّة الرخيصة، وظهر ما يفسر تعجلها في أمرها، يبدو أنها كانت تسعى بين الفينة والأخرى إلى اقتناص فرصة في الأوقات الضائعة للقيام بعمل إضافيّ بعيداً عن عيون البترونة التي تعمل تحت كنفها وفي غفلة منها.

على أنهما افترقا خاليّ الوفاض وقد امتلأا بالخيبة إثر تلك المغامرة التي أُجهضت قبل أن تكتمل إذ كان لا يملك في تلك اللحظات إلّا الأوهام الكثيرة والليّرات القليلة التي لا تسد في أحسن الحالات سوى ثمن كوبين من الشاي له ولزميلته في كافتريا الجامعة.

* * *

واحدة أخرى

حدثني صديقي (أبو أنور) عن حادثة طريفة جرت معه عندما كان متجهاً في أحد الأيام إلى مكتبه الهندسيّ في حيّ الجميليّة، فقد التقى مصادفة بإحدى الفتيات اللواتي يعملن بمفردهنّ، وعادة لا توحي هيئة معظم أفراد تلك الفئة بأنهنَ يمتهنّ الدّعارة فأغلبهنّ يعشن في منازل أسرهنّ ويتعاطيّن الفاحشة بشكل متقطع وسريّ.

دعاها لمرافقته فاستجابت مرحبة، ولأن صاحبي يتمتع بمزاج متحضر ومن النوع الذي يحب المقدمات أكثر من الغاية نفسها،

فسألها أن تجلس في غرفة مكتبه ثم عمد إلى إغلاق الستائر والنوافذ بإحكام، واستأذنها أن يغيب لبضعة دقائق بغية تحضير القهوة.

ولأنها على عجلة من أمرها فما كان منها إلّا أن بادرت إلى خلع ملابسها فور خروج صاحبي من الغرفة ورفعت شعرها وربطته بحبسة صغيرة وارتمت فوق أحد المقاعد على نحو خُيل إليها فيه أنه وضعٌ مثير وفي منتهى الإغراء.

حين عاد صديقي إليها حاملاً صينيّة تحتوي على فنجانين من القهوة وكأساً من الماء، فوجئ بها على تلك الحال وقد ظهرت تضاريسها المتهدلة من خصرها وأردافها فصدم وشعر وكأن الفتاة التي تجلس أمامه غير تلك الصبيّة الجميلة التي استفزته أنوثتها الطاغية منذ قليل في الشارع، فقال لها متعجّباً:

- عفواً من أنت؟ أين الفتاة الأخرى؟

فضحكت بدلال معتقدة بأنّ تعرّيها السريع زاد من إثارته وإعجابه بها فردت عليه بغنج:

- أنا لوحدي جيت معك، ما في حدا غيري هون يا الله تعال بسرعة.

فهتف صاحبي:

- كلا أنا لا أعرفك أنت واحدة أخرى أرجو أن تحتسي القهوة وتغادري المكتب فوراً، أنا آسف جداً.

أعطاها مبلغاً من المال واعتذر منها مرة أخرى وسألها ارتداء ثيابها ريثما يعيد فنجانيّ القهوة إلى المطبخ.

حين رجع بعد دقائق قليلة وجدها قد عادت إلى سيرتها الأولى مستردّة أنوثتها إثر ارتداءها ملابسها وتحرير شعرها فوق كتفيها، فشعر بأنها قد امتلأت ثانية بالفتنة والجاذبيّة، فصرخ صاحبي بلهجةِ منْ عثرَ على شيءٍ ضاع منه:

- أنت الآن حقاً من جاء معي، خلّيك كما أنت لا تأتي بأيّة حركة.

أطفأ أنوار المكتب إثر تفجر الإثارة لديه من جديد واندفع نحوها برغبة جامحة، وكان فعلاً مقضياً، وانصرفت الصبيّة من الواقعة راضية مرضيّة غير مكسورة الخاطر.

* * *

سيدة الهيلاهوب

اعتادت سيدة في نهاية الثلاثينيّات من عمرها التسكع بجوار سور (الحديقة العامة)[1] الواقعة في وسط مدينة حلب، وبالتحديد بجوار البوابة المطلّة على كافتيريا الهافانا في (حيّ محطة بغداد)[2].

على أنها لم تكن تملك شيئاً من مواصفات الجمال أو الإغراء بل كان سلوكها أقرب إلى السذاجة وتميل طباعها إلى الغفلة والبساطة، ولا أدري من كان يتمتع بمثل هذه المواصفات قادراً على اصطياد الزبائن من الطرقات.

واللقب الذي اشتهرت به هو (الهيلاهوب)، أطلقه عليها أحد مرتاديّ تلك المنطقة كناية عن الجوارب الطويلة ذات الألوان الفاقعة والمنسوجة بشكل أفقيّ، فقد كانت تستخدمها على نحو دائم متخيلة بأنها تزيدها إثارة وفتنة.

دأب شباب هذه المحلّة على التحرش بها ومعاكستها من باب التسلية والفكاهة ليس إلّا دون أن تحظى بعرض جدّي من أحدهم يوماً قطّ، فقد كانوا يسألونها في كل مرة عن السعر الذي تطلبه مقابل الجنس المأجور فتسارع إلى الردّ عليهم بحماسة كما لو أنهم يسألونها أول مرة، فيطلبون أن تخفض السعر فتذعن المسكينة لرغبتهم بسرور فيعيدون الكرّة مرّة بعد مرّة وهي توافق وتوافق حتى يغدو عرضهم لا يتعدى الدريهمات القليلة، ورغم أنها كانت ترضى بما

آلت إليها المساومة فإنهم يُعرضون عنها وقد عشموها بالعودة إليها في القريب العاجل.

كما حدثني أحد الأصدقاء عن تلك المسكينة إذ مرق بجوارها في يوم واحد أكثر من عشر مرات وهو يجول بسيارته حول الحديقة العامة، وعندما يقترب منها يعمد إلى إبطاء سرعته فتسعى إليه بشغف ثم ينطلق من جديد بعد أن يسألها عن سعر معاشرتها، ويغيب عنها مدة عشر دقائق تقريباً وهو الزمن اللازم للالتفاف حول الحديقة العامة والعودة إليها، فيتوقف ثانية بجوارها فتهب إليه بحماسة ويمضي ثانية إثر فراغه من طرح سؤاله التقليدي وما يتبعه من نقاش بغية تخفيض الأجر، ويعاود التحرش بها مرّة إثر مرّة وكان في كل جولة يبدي إعجابه بجمالها وقوامها بنبرة مصطنعة إمعاناً في إثارتها مما كان يزيد في آمالها السرابيّة، ولكن هيهات هيهات.

أغلب الظن أنها كانت تعيش مما يجود به أهالي المنطقة المحسنين وليس من العمل في مهنة الدّعارة، فأنا أعتقد أنّ إيرادها من مزاولة تلك المهنة لم يسدّ رمقها يوماً قطّ.

* * *

الصواب الثاني

ثمّة علاقة صداقة فريدة جمعت بين طالب وأستاذه سمحت لهما أن تستمر طويلاً. وفي أحد الأيام اتفقا على خوض تجربة (شكار)، ومن خلال أحد القوادين المعروفين تمت الصفقة.

على الرغم من فارق العمر بينهما فإنّ الطالب كان أوسع خبرة من أستاذه في خفايا هذا العالم المليء بالمفاجآت.

حين وصلت المومس شهق الأستاذ تعبيراً عن إعجابه بها إذ كانت فتية وتملك من مواصفات الجمال ما يثير في الصدور البهجة

والرغبة، ومن باب الاحترام والتقدير دعا الطالب أستاذه إلى أن يدخل عليها أولاً.

اجتمعت خبرة المومس مع قلّة خبرة الأستاذ فخرج من غرفة العمليات بعد أقلّ من خمس دقائق وقد أنجز مهمته، غير أنه بدا ممتعضاً فهمس في أذن تلميذه مصرّحاً أنّ العملية تمت بسرعة كبيرة كما لو أنها نسمة عابرة، وطلب منه أن يجد وسيلة ما تجعل المومس تهتم به في الجولة الثانية.

حين دخل عليها الطالب أقنعها بطريقة ماكرة أنه ينبغي لها أن تنحي جانباً آلاعيب المومسات وتتعامل مع أستاذه في الدور الثاني كفتاة تمارس الجنس مع عشيقها، وأوحى لها إن لم تفعل ذلك فإنّ العواقب ستكون وخيمة عليه، ويبدو أنه كان على معرفة مسبقة بها فأخذ يرجوها قائلاً:

- كرمى لي لا تخجليني مع أستاذي.

وخاض معها جولة خرجا منها فائزين معاً.

لمّا دخل الأستاذ في المرة الثانية قامت المومس بواجبها على أكمل وجه، مستخدمة خبرتها ومهارتها في تقديم وجبة ساخنة للأستاذ، آملة أن تكون قد حقّقت رغبة صديقها الطالب ورفعت رأسه أمام أستاذه.

خرج الأستاذ بعد جولة لاهبة وقد انفرجت أساريره، وما إن سأله تلميذه عن النتائج حتى هتف بنبرة مفعمة بالنشوة:

- يا أخي غير شكل، الصواب الثاني كلام ثاني!

وذهبت هذه العبارة مثلاً.

* * *

وهكذا يسعني القول دون تحفظ أو مبالغة في نهاية الحديث عن المرحلة التي تلت إغلاق المحل العمومي إنّ جنساً عبثياً قد عصف

بالمدينة على نحو انفلتت فيه أشكال الرقابة الأخلاقيّة والصحيّة والأمنيّة جميعها.

* * *

1. الحديقة العامة: من أكثر الحدائق شهرة في مدينة حلب، بُنيت في بدايات عهد الاستقلال بقرار استملاك من مجلس البلديّة الذي كان يرأسه (مجد الدين الجابري). وأرض الحديقة كانت مملوكة لآل الجابري وقال حينها: هذه الأرض ملك أهالي حلب أخذها جدّي (نافع باشا) هديّة من السلطان العثمانيّ وأنا أعيدها لسكان حلب، وينسب بعض الناس جهلاً إنشاءها إلى فترة الاستعمار الفرنسيّ. وهي ذات تصميم كلاسيكي، تحوي نوافير ومساحات خضراء ومناطق مخصّصة للعب الأطفال، يزورها يوميّاً الكثير من سكان المدينة لا سيما كبار السن منهم، إضافة إلى الأسر من طبقات المجتمع جميعها ليقضوا فيها وقتاً بعيداً عن التلوث والضوضاء. للحديقة العديد من المداخل وفيها عدد من المنحوتات الحجريّة لأهم الفنانين السوريين، من أهمها تمثال (أبو فراس الحمداني) المتوضّع أمام مدخلها الرئيس. تبلغ مساحتها (17 هكتار) وتقع بين منطقتيّ العزيزيّة والجميليّة، وهي محاذية لساحة سعد الله الجابري، ويمر خلالها نهر قويق.

2. حي محطة بغداد: استمدت المحلّة اسمها من محطة سكّة بغداد التي بُدئ بتأسيسها سنة (1328 هجريّة). يقع الحيّ تجاه الباب القبلي للحديقة العامة وهي منطقة عامرة، يسكنها أخلاط من المسيحيين والمسلمين، وفيها تقوم محطة القطار تنطلق منها القُطُر المسافرة إلى العراق وتركيّة وإلى مدن الجزيرة السوريّة.

انظر كتاب أحياء حلب وأسواقها، تأليف خير الدين الأسدي، وتحقيق عبد الفتاح روّاس قلعه جي، الصفحة (338).

القسم الرابع
معززات فنيّة متنوعة

الفصل الأول: الألقاب الدينيّة والعلميّة

الفصل الثاني: الملاهي الليليّة

الفصل الثالث: أمثال حلبيّة

الفصل الرابع: أسماء وألقاب

الفصل الخامس: شعر

الفصل السادس: الرأي القانوني



الفصل الأول

الألقاب الدينيّة والعلميّة

كيف تسمى الساقطات معلمات، أو أمّايات، أو شيخات؟

لا جرم في ذلك إذ اعتاد العرب أن يطلقوا الأوصاف على الأشياء بالنقيض، فمثلاً يقولون للقبيحة: يا قمر، أو للبهيم: يا فهيم.

العجيب في الأمر أنّ أبناء هذه الشريحة من المجتمع يلجؤون إلى تلك الصفات دون حرج، وقد وجدت لهذا السلوك أو العرف نظيراً له في المجتمعات العربيّة الأخرى، على أنني لم أقع على تفسيرٍ علميٍ للأسباب التي دفعت أفراد هذا القطاع إلى التكني بالألقاب الدينيّة، أو العلميّة، سوى اعتقادي أنهم في حاجة ماسّة إليها كنوع من التعويض المعنويّ لخوائهم الروحيّ، وسعياً لاكتساب قدر من التوازن النفسيّ.

* * *

الأمّاية

هذا اللقب تختص به القوّادة دون سواها من العاملات في قطاع الدّعارة، ويعدّ واحداً من الألقاب التي يطلق عليها في حلب، وهو دون أدنى ريب صفة مشتقّة من اسم الأم، وممّا هو معروف وبدهي أنه من أسمى خصائص الأم هو احتضان أطفالها وحمايتهم ورعايتهم، إضافة إلى خصائصها السلطويّة في المنزل وهيمنتها على مقدراته لاسيما حين يغيب الأب لأيّ سبب من الأسباب.

القوّادة أيضاً تعكف إلى احتضان المومسات اللاتي يعملّن تحت كنفها، وتحيطهنّ بالرعاية والحماية، فضلاً عن تمتعها بصفات القوة والحزم والقيادة.

يبدو أنّ أوجه التشابه تلك وكثيراً من الصفات المشتركة الأخرى دفعت أفراد هذه الشريحة إلى إصباغ صفات الأم على القوّادة ومناداتها بالأمّاية، على أنّ هذا لا يمنع أن تتحول إلى كائن فاجرّ وشرس حين الضرورة.

* * *

المعلمة

نضيف لقباً آخر وهو (المعلمة)، وهذا اللقب أيضاً تختص به القوّادة دون سواها من المشتغلات في قطاع الجنس المأجور، وهو متداول في البلاد المصريّة والشاميّة على حد سواء، ولن نكشف سرّاً إذا قلنا أنّ أنبل المهن وأشرفها هي مهنة التدريس والتعليم.

يبدو أيضاً أنّ مهنة المعلمة ومهنة القوّادة تتشاركان في كثير من المهام والمواصفات، فالقوّادة تقوم على تعليم وتدريب الفتيات الصغيرات المنضمّات حديثاً إلى شبكتها على أصول المهنة وتقاليدها تجنباً لوقوعهنّ في مطبات ومشاكل يزخر بها عالم شبكات تسهيل الدّعارة، وكيلا يمسين فريسة لاستغلال أيّ طرف من الأطراف

سواء كان من المحيطين بهنّ أو من شريحة الزبائن على اختلاف انتماءاتهم ومشاربهم.

* * *

العوالم

في مصر تدعى العاملات في مهنة الرقص والطرب لاسيما المنضويات منهنّ تحت مظلة الفرق الشعبيّة (بالعوالم)، ومفردها عالمة، ولا تختص بهذا اللقب واحدة منهنّ دون سواها، على أنه ليس بالضرورة أن تمارس جميع العاملات في هذه المهنة الدّعارة، إلى ذلك فإنّ هذه الصفة منحوتة من كلمة العلم والعالم، ولا أدري ما الصفات المشتركة بين العالم والراقصة، أو بين العلم وفنون هز الوسط.

تطرّقت السينما المصريّة إلى هذه الشريحة من المجتمع وقدمتها في أعمال فنيّة كثيرة من أيام الزمن الجميل وحتى يومنا هذا، ومن أهم الأعمال السينمائيّة التي تناولت قطاع العوالم ومحيطها ثلاثية الأديب الكبير (نجيب محفوظ) وهي بين القصرين إنتاج عام (1964)، وقصر الشوق إنتاج عام (1966)، والسكريّة إنتاج عام (1973)، والأفلام الثلاثة من إخراج (حسن الإمام) وبطولة نخبة من الفنانين المصريين، وفيلم أحبك يا حسن إنتاج عام (1958) من إخراج (حسين فوزي) وبطولة نعيمة عاكف وشكري سرحان، وتدور أحداثه في حيّ العوالم بشارع محمد علي وسْط القاهرة، وفي الدراما التلفزيونيّة مسلسل (ليالي الحلميّة) للكاتب المبدع (أسامة أنور عكاشة) والمخرج اللامع (اسماعيل عبد الحافظ) وبطولة عدد كبير من نجوم الدراما المصريّة، وفي كثير من الأعمال الفنيّة والسينمائيّة الأخرى.

***

الشيخات

إذا توجهنا نحو المغرب العربي نلاحظ أنّ الغانيات في المغرب يطلق عليهنّ لقب (شيخات) واستخدامهنّ لهذه الصفة الجليلة يثير الحيرة والدهش إذ لا يوجد أصلاً في المجتمع المسلم سيدات دين (شيخات) كرجال الدين (شيوخ) فمن أين جاءت تلك الإستعارة؟

أشير أيضاً إلى أنه ليس من الضروري أن تزاول العاملات في هذا المجال مهنة الجنس المأجور.

* * *

الحجيّات

لا يفوتنا في هذا المقام العروج على معشر (الحجيّات) وهن فئة من الفتيات يُجدن فنون الرقص والغناء على الأنغام البدويّة التي يقمن بتأديتها بغنج ودلال على نحو مفرط، ويعشن مع أسرهنّ في الخيام المنتشرة على أطراف الطرقات الخارجيّة في أغلب البلاد الشاميّة، وما إن تخرج من مدينة حلب باتجاه طريق الشام أو طريق الرقة حتى تستقبلك مضاربهم وقد انتشرت في الأراضي الخالية إذ إنهم يتوخون الابتعاد عن الأماكن المأهولة تحقيقاً لخصوصيّة معيشتهم وطبيعتها.

لا يحتاج الأمر لكثير من الذكاء كي نعرف أنّ كلمة الحجيّات هي جمع لكلمة حاجّة، تلك الصفة التي تحلم باكتسابها السيدات المسلمات جميعهنّ في مشارق الأرض ومغاربها.

أشير هنا إلى أنّ المسلسلات التلفزيونيّة السوريّة قد تناولت مجتمع الحجيّات في عدّة أعمال دراميّة، ولعلّ من أشهر هذه المسلسلات وأهمها التي تناولت تلك الشريحة مسلسل (خان الحرير) للمخرج الكبير (هيثم حقي) والكاتب المتميز (نهاد سيريس) وقد أدّت دور الحجّيّة (فضّة) الممثلة القديرة الفنانة (أمل عرفة) على نحو

متقن وبديع وكأنها عاشت عمرها كلّه بين ظهرانيهن، وشاع حينها بأنّ هذا الدور يترجم حياة الفنانة (يسرا البدوية) غير أنّ (أمل عرفة) أوضحت حين سؤالها عن هذا الموضوع بأنه لا يوجد أيّ ارتباط بين دور (فضّة) بالمسلسل وبين الفنانة (يسرا البدوية) سوى الغناء باللون البدوي.

* * *

معشر الحجيّات

تنحدر أصول هذه الفئة من الناس إلى جنس القرباط الذين يتخذون الخيام مسكناً لهم في أطراف المدن وبجوار الطرقات العامة الخارجيّة وهي منتشرة في معظم بلاد الشام.

تقدم هذه الخيام المباهج والخدمات للمسافرين والسائقين العابرين على الطرقات العامة الواصلة بين المدن الرئيسة إذ يحب صاحبو سيارات الأجرة اللجوء إلى تلك الخيام للتزود بالدفء في أيام الشتاء الباردة وبنسمات الهواء البريّة اللطيفة في أمسيات الصيف الحارّة ولا سيما في الفترات المسائيّة وما يليها من ساعات الليل التي يطيب فيها السهر والسمر.

ثمّة نفر من الناس اعتادوا زيارة تلك الأماكن بغية الاستمتاع بهذا اللون من الفنون دون أن يكونوا بالضرورة من فئة سائقيّ سيارات الأجرة أو من الركاب المسافرين، فبيوت الشعر مفتوحة لمن يرغب من الزوار، والشرط الوحيد لاستضافتهم هو أن يكونوا من الأشخاص الكرماء والأسّخياء.

فضلاً عن أنّ هذه التجمعات البشريّة توفر أنواعاً من الطعام لا سيما اللحوم المشويّة الطازجة، إضافة إلى تقديم المشروبات الروحيّة المتنوعة إذ يطيب للزوار تناولها على صدى الألحان البدويّة الشجيّة

وتمايل وغنج الأجساد الفتيّة الغضة، وليس بالضرورة على الإطلاق أن تمارس الحجيّات الدّعارة حيث يُقدم عدد قليل منهنّ على فعل الفاحشة.

حين تطأ أقدام محبيّ هذا اللون من المسرّات أرض الخيمة يبادر الذكور الموجودون بالترحيب بهم وتقديم الضيافة الأوليّة وهي القهوة العربيّة المرة، ويطلق على أولئك الرجال لقب (زلم الحجيّات) وليس بالضرورة أن يكونوا أقرباءهنّ من الدرجة الأولى.

ومن ثم تأتي الحجيّات لاستقبال الضيوف، وما هي إلّا دقائق معدودة حتى يشرعّن بالغناء والرقص على إيقاعات الأنغام البدويّة وإيقاعاتها المميزة، وحين يجلسّن بجوار الزبائن يردّدن بغنج ودلال مقولتهنّ الشهيرة:

- بوس وقرص ودق ورقص.. ما عندنا شيء ثاني.

كما أنّ الحجيّات اعتدن الظهور أمام الزبائن بأزياء محتشمة، وغالباً ما يرتدين سراويل طويلة تحت ثيابهنّ، وهذا سلوك منتشر في معظم المناطق الريفيّة.

يعتقد مجتمع الحجيّات أنّ عمل فتياتهنّ على هذا النحو لا ينطوي على أيّ لون من ألوان المحظورات إذ إنهنّ يؤمنّ بأنهنّ لا يرتكبن إثماً ولا يقترين من المحرمات، وما يُقْدمن عليه من رقص وغناء لا يتعديان أن يكونا سوى وسيلتين لأداء مهنة شريفة تكفل لهنّ حياة كريمة مثل أيّ مهنة أخرى.

على أنه لكل قاعدة شواذ فعندما يكون الضيف كريماً وجواداً تبادر الحجيّات إلى خلع السراويل الطويلة إذ إنهنّ يغيرن ثيابهنّ بعد كل وصلة رقص أو طرب.

ثمّة حالات نادرة يظهرن فيها بألبسة مجويّة أيّ ثياب مصنوعة من أقمشة شفافة تتيح إلى حد ما إظهار ما تخفي تحتها من صدور فتيّة وسيقان غضّة.

ما إن يبرزن مرّة جديدة أمام الزبائن وهنّ على هذا النحو من الإثارة والجاذبية حتى يهتفن بالقول:

- باب الكريم.. وباب الخير قصدنا.

مما يفجر النخوة والكبرياء لدى أصحاب الهمم العالية فيزيدون من عطاءاتهم وكرمهم.

* * *

المحامي الطيب

روى لي أحد الأصدقاء قصة طريفة جرت معه في القصر العدلي بحلب (مجمع المحاكم) فقد أخبرني أنه في يوم من الأيام وبينما كان يتابع عمله في إحدى المحاكم استوقفته امرأتان وسألتاه مساعدتهما حين عرفتا أنه محامٍ وطلبتا منه التوسّط لدى زميل له يتابع قضيّة تخص عشيرتهما.

تبيّن لصديقي أنّ الفتاتين تنتميان إلى معشر الحجيّات، وتتلخّص مشكلتهما في أنّ زميله كان قد طلب من أهل الفتاتين مبلغ خمسين ألف ليرة سوريّة مقابل الترافع عن قضية لهم أمام إحدى المحاكم.

ولمّا كانوا لا يملكون سوى خمسة وثلاثين ألف ليرة سوريّة عرضوا عليه أن يقوموا بتسديد باقي المبلغ على صورة سهرات يستضيفونه فيها متى شاء في خيامهم، يُقدمون له من خلالها الطعام والشراب والصحبة الطيّبة، وقد شكروه كثيراً على كرمه ونبله لمّا وافق على هذا الاقتراح.

على أنّ المحامي المقدام استغل هذا العرض المغري وراح يتردّد على مضاربهم كلما طاب له السهر، أو حينما يرغب في دعوة أحد من أصدقائه وبات دَيْنَهم له كمسمار جحا، إلى أن بلغ عدد زياراته وسهراته إلى ما يزيد عن العشرين وما كان هذا الدين أن ينتهي، وفي

كل مرّة جديدة كان يتذرع بأنّ القضيّة صعبة ومعقدة وجلساتها كثيرة، مما يعني أنّ نفقاتها ازدادت ومصاريفها تضاعفت، وما عادوا يعرفون متى سيتحرّرون من أعباء هذا الدين الثقيل وباتوا يشعرون بالضيق والهم كما لو أنهم دخلوا في نفق مظلم لا نهاية له، فاستجارتا بصديقي كي يتوسط لهما لدى زميله لعله يكف عن التردّد إلى خيمتهم والسهر عندهم مع أصحابه دون مقابل غير أنّ مساعيه باءت بالفشل.

* * *

يسرا البدوية

تعدّ الفنانة (يسرا البدويّة) من أشهر الحجيّات في مدينة حلب على وجه الخصوص وفي البلاد الشاميّة على وجه العموم، ولعلها أشهرهنّ على مستوى العالم العربي إذ كانت تمتلك صوتاً عذباً تميزت من خلاله باللون البدويّ التقليديّ، وقد شهدت الساحة الفنيّة في الستينيّات والسبعينيّات من القرن الماضي منافسة غنائيّة كبيرة وغيرة فنيّة إيجابيّة بينها وبين المطربة المعروفة (سميرة توفيق) نَجم عنها العديد من الأعمال الفنيّة والسينمائيّة الناجحة، وقد شاركت الفنانة (يسرا البدوية) في كثير من الأفلام السينمائيّة في تلك الفترة، من أهمها فيلم (عقد اللولو) في العام (1964) إخراج (يوسف معلوف) وشاركها البطولة فيه (صباح، فهد بلان، نهاد قلعي، دريد لحام، ملك سكر) وفيلم (لقاء في تدمر) في العام (1965) إخراج (يوسف معلوف) وشاركها البطولة فيه (نهاد قلعي، دريد لحام، هالة شوكت).

فضلاً عن أنّ الذين يعرفونها عن قرب يجمعون على أنها لا تُسرّ ولا تشعر بالسعادة إلا حين ينادونها بلقب الحاجّة، ولم تكن ترضا عنه بديلاً.

أقامت (يسرا البدوية) في بداياتها في شقة متواضعة بمنطقة الشيخ طه، وخلال سنوات قليلة انتقلت للإقامة في فيلا سكنيّة فاخرة في (حيّ السريان الجديدة)[1]، وقد اتخذت منها ومن مزرعة خاصة بها في منطقة الزربة التي تقع إلى الجنوب من حلب على الطريق الدوليّة المتجهة إلى دمشق مَقرّين مناسبين وسرّيين في الوقت نفسه لاستضافة واستقبال عليّة القوم في المدينة ليمارسوا فيهما ألوان المجون واللهو على نحو آمن وهادئ، وكثيراً ما أُريقت في مخادعهما بكارات فتيّة ودارت على موائدهما جولات الميسر الطاحنة والمطعمة بتمايل وغنج الحسناوات ذوات الأجساد الطازجة، وكثيراً ما أودت تلك السهرات الماجنة بمقام العديد من الأشخاص المحترمين ومكانتهم إلى الهاوية على المستوى الماديّ، أو على المستوى المعنويّ، وكانت تجري تلك الأمور كلها تحت إشرافها وإدارتها على نحو مباشر دون تذمر أو مضايقة أو مساءلة من أيّة جهة كانت إذ كانت (يسرا البدوية) تتمتع بذكاء لافت، فضلاً عن أنها كانت تجيد بمهارة إشاعة أجواء التناغم والألفة بينها وبين البيئة الرقابيّة المحيطة بها، وتقبض بحرفيّة ونباهة على عصى المصالح المتبادلة بينهما.

إلى ذلك تتردد شائعات عنها مُفادها أنها كانت أوّل من صدّر الحجيّات الصغيرات ذوات الأشعر السوداء الطويلة والعيون الكحيلة الجذابة إلى منطقة الخليج العربيّ اللاتي اشتهرّن فيما بعد بلقب (النعّاشات)، وتكاد لا تخلو منهنّ مناسبة وطنيّة أو احتفال لا سيما الخاص منها إذ يظهرّن بالثياب التقليديّة المحليّة وهنّ حاسرات الرؤوس ويتمايلّن بشعورهنّ السوداء الناعمة وأردافهنّ الغضّة يمنة ويسرة بتناغم وانسجام مع الإيقاعات الخليجيّة المتميزة.

اعتزلت (يسرا البدوية) الفن والحياة الصاخبة في سنواتها الأخيرة، وابتعدت عن الأضواء واعتكفت في منزلها بحلب الذي حافظت على طابعه البدويّ، وانتقلت إلى جوار ربها بصمت وهدوء في (2011/07/30).

* * *

نوفا البدويّة

حدثني أحد الأصدقاء عن ذكرياته في أيّام الصبا إذ كان يقطن مع أهله في منزل مجاور لمنزل (يسرا البدوية) في منطقة الشيخ طه، بالتحديد في شارع فرعي بالقرب من جامع الشيخ طه.

تمكن صديقي بسهولة من التلاعب بقلب الصبيّة الصغيرة (نوفا) وإيقاعه في مصيدة جاذبيته الآسرة، وباتت خليلته يقطف صباها الغضّ في الأوقات المخفيّة وذلك في غفلة من خالتها (يسرا البدويّة) التي كانت تُعدّها لتطلقها صاروخاً طازجاً في عالم الفن والشهرة.

ولمّا اكتشفت يسرا تلك العلاقة المجانيّة سارعت إلى الاستعانة برهط من رجال عشيرتها الأشدّاء بغية إرهاب صديقي وتوقيفه عند حدّه معتقدة أنه ينتمي إلى إحدى الأسر الحلبيّة الصغيرة.

غير أنّ الرياح لم تجر كما تشتهي سفن يسرا إذ إنّ صديقي استدعى أيضاً لفيفاً من شباب قبيلته المعروفة في (حيّ باب النيرب)[2]، وشتّان بين رجال العشيرتين، فأسقط في يد الحاجّة يسرا وانقلب السحر على الساحر.

استمرت العلاقة البريئة المجانيّة بين صديقي وبين نوفا إلى اليوم التي انتقلت فيه يسرا إلى فيلتها الفاخرة في حيّ السريان الجديدة، ولعل انقطاع الوصال بينهما أتاح للصبيّة المغمورة، وساعدها في انطلاقتها الجديدة في عالم الفن والأضواء.

* * *

سأعرض عليكم الآن قصة فنيّة لها علاقة بعالم الحجيّات، كنت قد نشرتها في إحدى مجموعاتي القصصية القديمة، وهي مستوحاة من حادثة جرت مع أحد الأصدقاء في التسعينيّات من القرن الماضي.

مهمة خاصة

ذات مساء في يوم شتويّ بارد وعلى ارتفاع ثلاثة وثلاثين ألف قدم كان ثمّة طائرة تحلق فوق بحر من الغيوم البيضاء منفذة رحلة عاديّة بين إحدى المدن الخليجيّة ومدينة دمشق.

تلك الليلة كان القمر بدراً.. بدا متربّعاً في الأفق الفسيح.. ينشر أنواره الناعمة بحرية وسخاء.. ملأت الفضاء رومانسيّة.. غمرته بسكينة حالمة.. جعلت الطائرة تندفع بهدوء واطمئنان.. وكأنها عربة ملكيّة تنساب بكبرياء أنيق فوق سهل ثلجيّ عامر.

غلافها المعدنيّ المصقول جعل أشعة القمر تتهادى بمزيد من الإغراء على أسطحها لتبدو كما لو أنها تسبح وحدها في بحر كونيّ صامت.

بعضٌ من تلك الأشعة الحريريّة تسللت عبر إحدى النوافذ.. أضاءت وجهاً غافياً إلّا أنه بدا ممتعضاً، كان يعكس في هذه الأثناء استياء صاحبه من تلك السيدة القابعة خلفه والتي لم تتوقف لحظة واحدة عن الكلام على الرغم من مضيّ أكثر من ساعتين على الرحلة.

كان صلاح بمفرده، أربعة أيام ويعود لأسرته الصغيرة المقيمة معه في إحدى المدن الخليجيّة، على حين يبدو أن المصادفة وحدها جعلت هذه السيدة الثرثارة تجلس وسط عددٍ من الأطباء العائدين من مؤتمر طبيّ.

كانت تمطرهم بأسئلتها السخيفة.

كانوا يردون عليها بكياسة لا تخلو من مجاملة.

كانت تعتقد أنها فرصة لا تعوض.

كانوا على يقين تام بأنّ الرحلة مدتها ثلاث ساعات فقط.

وفي الوقت الذي كان يحاول فيه جاهداً تجاهلها والاسترخاء قليلاً قبل الهبوط كانت مسبحة أنيقة تتدافع حباتها بنزق بين أصابعه وكأنه يفرغ انزعاجه فيها، على أنّ الفضول المتنامي والممزوج بمشاعر الغضب دفعه للالتفات إلى الوراء كي يتعرف إلى تلك الشخصيّة الغريبة.

بُهت عندما وجدها صبيّة صغيرة وجميلة.. في العشرينيّات من عمرها.. ترتدي زيّاً خليجيّاً غير أنّ لهجتها كانت محيّرة.. استوى ثانية وحاول إغماض عينيه كي يتغلب على الدوار الذي باغته في تلك اللحظات التي أعلنت فيها المضيفة عن بدء الهبوط التدريجيّ نحو المطار.

استقرت الطائرة على الأرض وغادرها الركاب المتجهون إلى دمشق في حين بقي في داخلها بضعة عشر شخصاً وهم المتابعون سفرهم إلى حلب، وإذا بصوتها يداهمه من جديد إلّا أنه في هذه المرة كان ناعماً ولطيفاً، التفت نحوها فلم يجد غيرها بالقرب منه وهذا ما جعله يتساءل:

- هل هي السيدة ذاتها، أم أنها واحدةٌ أخرى؟

غير أنها بادرته قائلة دون أن تتيح له مزيداً من التفكير:

- ماذا نحن فاعلون الآن؟

وبينما كان يشرح لها برنامج ما تبقى من الرحلة قاطعه صوت المضيفة حين قالت:

- يرجى من الركاب المتابعين إلى مدينة حلب التفضل بمغادرة الطائرة والاتجاه إلى قاعة الترانزيت مصطحبين معهم حقائبهم الشخصيّة.

وجد صلاح نفسه مضطراً لمساعدة السيدة العجيبة التي عجزت يداها عن حمل الحقائب والأكياس التي كانت برفقتها، فقبضت يده اليمنى على حقيبة صغيرة وكيسين منتفخين، أمّا يده الأخرى فحملت حقيبة ثانية بالإضافة إلى حقيبته الشخصيّة، بينما حملت هي حقيبتين وكيساً كبيراً ممتلئاً وآخر صغيراً، أمّا حقيبة يدها المتورمة فاسترخت على كتفها بتعب، الأحمال الثقيلة جعلتهما يسيران بخطوات بطيئة وهما متجهان إلى كافتريا المطار، دقائق قليلة جلسا على إثرها إلى إحدى الطاولات.

وجد نفسه أمام فتاة ناعمة تتفجر شباباً وحيويّة وإغراءً ذات عينين ساحرتين وفي الوقت نفسه تحتاج إلى مساعدة، استمتع بالحديث معها في الدقائق الأولى ما لبث أن تحول بعد قليل إلى حوار مكرّر سخيف.

بعد ساعة من التساؤلات والاستفسارات المملّة التي أثقلت بها رأسه عاد ليجد نفسه مسترخياً على مقعدٍ بجوار الفتاة الجميلة في منتصف الطائرة لا يفصلهما سوى مقعد مُلئ بأغراضها وحقائبها، في حين استقر معظم الركاب في مقدمة الطائرة، وفضل آخرون الجلوس في مؤخرتها، اعتذر منها وأسبل جفنيه محاولاً الاسترخاء استعداداً للإقلاع، وما إن استقرت الطائرة في الجو حتى بادرته قائلة:

- أرجو أن تكمل معروفك وتساعدني في حملها حتى نخرج من المطار.

أجاب بلا تردد:

- تكرم عينك.

قالها وهو يمدّد جسده على مقعده ثم رفع قَبّةَ معطفه وأخذ يتثاءب متظاهراً بالنوم بغية التخلص من ثرثرتها الفارغة، على أنه ما

إن مرت دقائق قليلة حتى اقتحمت خلوته ثانية وعادت لتثقل رأسه من جديد بالأحاديث العاديّة المتنوعة، ثم راحت تحدثه عن حياتها الشخصيّة الخاصة فأخبرته بأنها متزوجة منذ فترة قصيرة، وأخذت تتباهى بأنّ زوجها رجلٌ مهم هناك وفي الوقت نفسه مقربٌ من السادة والأعيان، كما أخبرته أنّها أول مرة تزور فيها وطنها وأهلها بعد زواجها، لذا فهي محمّلة بالهدايا الكثيرة لأفراد أسرتها الكبيرة.

تلك الكلمات الأخيرة عن زوجها جعلته يقرر في سرّه مضاعفة الاهتمام بها والتفاني في مساعدتها إلى أن تخرج من المطار وإلى أبعد من ذلك إذا رغبت طمعاً بالتقرب منها ومن زوجها المهم بعد عودته من رحلته تلك.

بعد قليل أخذت تحدثه عن زوجها وعن حياته وأصحابه وعن تفاصيل دقيقة لا يجوز البوح بها إلّا لقريب أو عزيز، أنشأ يرمقها بنظرات ملؤها الدهش والاهتمام متسائلاً في نفسه:

"لِمَ تغمرني بهذه التفاصيل الخاصة عن حياتها وعن زوجها، فأنا مجرد رفيق درب ليس إلّا، لا شكّ في أنها امرأة عجيبة".

لمْ تمنحه وقتاً كافياً لهواجسه وأفكاره فباغتته مرة أخرى بصوتها الدافئ وراحت تفضي له بما يجول في صدرها، الأمر الذي جعله يسألها بنبرة المستفسر:

- هل تقصدين أنّ لزوجك علاقات نسائيّة بعد ارتباطه بكِ؟

فأجابت بدلال لا يخلو من خبث:

- لا ليس كما تظن، يبدو أنك لم تفهمني جيداً.

فأقبل عليها وسألها بلهجة فيها شيء من الفضول:

- أرجوكِ وضحي، ولا تتركيني في حيرة من أمري.

مصّت شفتها العلويّة بغنج لافت فيما كانت تحدّجه بنظرة ماكرة ثم قالت:

- يحلو لزوجي العزيز السهر مع أصدقائه في أحد المجالس الخاصة ومتابعة الرقصات الجميلة التي تقدمها بعض الفتيات الفاتنات "النعّاشات".

بُهت صلاح من هذه الاعترافات الجريئة التي تلقاها من سيدة لم يمض سوى ساعة واحدة على معرفته بها فتملكه الدهش والحيرة فيما راح يتنامى في أعماقه فضولٌ قلق يطالبه بمعرفة المزيد عن هذه الصبيّة المجهولة إلّا أنه ظلّ صامتاً فتابعت قائلة بسحر ودلال:

- وأنت هل تحب النعّاشات مثل زوجي؟

رفع حاجبيه مشدوهاً بينما ارتسمت على قسماته أشدّ علامات الذهول الممزوجة بمشاعر الرغبة الداخليّة في متابعة الولوج في أغوار هذه السيدة الرهيبة بل وأكثر، غير أنه ظلّ ساكناً فراحت تتابع استكمال حديثها الشائق الذي لم يخلُ من فتنةٍ ودلع:

- في بلادنا يدعوهن بالحجيّات، هل سبق لك أن قابلتهنّ يوماً؟

ثم مالت نحوه وهتفت بأنوثة طاغية منهية بذلك عرضها المغري:

- أتحبُ أن تتعرف على إحداهنّ الآن؟

آنذاك اختلطت الأحاسيس والأفكار لديه جعلته يتوه في سراديب الرغبة.. ينساب في مسالكها.. يتلمس نهاياتها السرابيّة التي استحالت بغتة واحاتٍ وجناناً حقيقيّة فنطقت شفتاه المرتعشتان فرحاً:

- أرجو ذلك.

امتلأ وجهها بعلامات الانتصار.. مالت عليه.. مدّت يدها بهدوء.. انسابت أناملها الناعمة.. لامست كفيه الباردتين.. ضغطت برقة على أصابعه المرتجفة.. نزعت منها مسبحته الأنيقة.. أخذت تداعبها بأصابعها الدافئة وقد تلاعبت على شفتيها ابتسامة فتيّة مشرقة، ثم همست بخبث:

- بركاتك يا حاج.

قاطعها صوت المضيفة الناعم:

- نرجو من الركاب الاستعداد للهبوط في مطار حلب الدولي.

اقتحمت تلك الكلمات سحر هذه اللحظات الآسرة وكأنها أيقظته من حلم جميل، اعتدل وأخذ نفساً عميقاً.. تلفت حوله.. لم يجد سوى رجلٍ مسن بالقرب منه يغط في النوم.. عاد واستدار نحوها فوجد عينيها اللوزيتين يتراقص على أهدابهما مرح لعوب، حينها أيقن بأنها لم تكن حلماً، في تلك اللحظات شعر وكأنه قد اكتشف سراً فريداً من أسرار الحياة، هزّ رأسه عدة مرات وهو يحملق بعينيها الفاتنتين بينما ارتسمت على وجهه أحلى معاني الرضا والبهجة.. أرخى ظهره.. أغمض عينيه المتوثبتين.. وأسلم نفسه لنشوة عميقة.

بعد قليل تذكر زوجته وأولاده الصغار فاستنكر استجابته السريعة لمغرياتها وفتنتها.. مال برأسه قليلاً نحوها وراح يسترق النظرات من خلال جفنيه شبه المغمضين فاخترقه سهم جاذبيتها ثانية.. تغلغل في صدره فانبعث صوتٌ من داخله يحضه ويشجعه على استكمال المغامرة.

هذه المرة خرجت أمامه حاملةً حقيبة يدها وكيساً صغيراً فقط.. حاول أحد الركاب مساعدته إلّا أنه رفض ونهره مستنكراً تدخله فيما لا يعينه، وراح يتبعها بخطوات متعثّرة وهو ينوء بجسده المثقل بأوزانها الكبيرة.

غادرا الطائرة.. تجاوزا الأمن العام.. استلما بقية الحقائب.. وضعاها فوق عربتين متحركتين واتجها نحو صالة الجمارك.. في هذه الأثناء كانت تداوم على تغذية مشاعره بابتساماتها الرقيقة وعباراتها الناعمة التي لم تكن تخلو من مكر ودلع متقنين.

استقبلهما رجلا جمارك بوجه بشوش.. مرت الصبيّة الحسناء بجوار أحدهما بعد تفتيش بسيط بينما أوقفه الرجل الأخر وأخذ يفتش حقائبه، على أن صلاحاً فُوجئ حين أخبره موظف الجمارك بأنّ لديه بعض الأجهزة الإلكترونيّة التي لا يسمح بإدخالها.

ابتسم وقال له:

- إنها مجرد أجهزة قديمة.

فردّ عليه:

- لا فرق.

هتف صلاح بحماسة:

- إنها ليست لي.

فضحك الموظف، وسأله بسخرية:

- إذا لمْ تكن لك فلِمَ هي موجودة بين حقائبك؟

ابتسم صلاح، وأشار قائلاً:

- الأجهزة تخص.. تخص تلك السيدة.

لم تنكر ملكيتها للأجهزة عندما رجعت إليهما.. طلب الموظف منها جواز سفرها كي يقوم بترسيم الممنوعات على اسمها.. أخرجته من حقيبتها.. قدمته له.. قلّب صفحاته.. توقف عند إحداها.. ما لبث أن أغلقه وأعاده إليها.. ثم التفت صوب صلاح وقال له:

- لا يمكن ترسيمها على جوازها.

هتف صلاح متعجّباً.

- لماذا؟

أجابه الموظف ببرود شديد:

- لأنها ليست مقيمة في الخليج.. إنها مجرد زائرة.

انتفض صلاح مبهوتاً.

- وماذا يعني هذا؟

- سيتم ترسيم الأجهزة على اسمك.

فسأله صلاح بنبرة خفيضة:

- حسناً ما المبلغ المطلوب للترسيم؟

فأجابه الموظف بصوت جاف:

- خمسمئة دولار فقط.

- ماذا قلت، خمسمئة دولار؟!

- نعم إمّا أن تدفع، أو يحجز جواز سفرك مع الممنوعات.

صُدم صلاح.. موقفٌ لم يكن يتوقعه.. ارتسمت على قسماته علائم الحرج والحيرة.. التفت نحوها فوجد الابتسامة الساحرة نفسها تشع من عينيها.. استجمع بعضاً من شتات أفكاره.. تنحنح قليلاً ثم بادره ثانية:

- يا أخي ألا ترى أنها أجهزة قديمة ومستعملة، حتى إنّ قيمتها لا تعادل هذا المبلغ أرجوك دقق جيداً كي تتأكد.

أجابه الموظف بصوت صارم:

- لا فرق بين قديم وجديد عليك أن تدفع و إلّا..

اقترب منه ورد عليه بصوتٍ خافت:

- أرجوك يا سيدي أن تتفهم وضعي، فأنا لا أملك الآن نقوداً أجنبيّة ألا يوجد حلٌ آخر؟

هتف الموظف بتهكم:

- إذن سنحجز جوازك إلى أن تملكها.

سقطت هذه الكلمات على صلاح كالماء الحار.. رافقه أحد الموظفين إلى صالة المحجوزات بينما كانت السيدة المجهولة ترمقه بنظراتٍ مليئة بالاستهجان والاستنكار.

آنذاك تضاربت الأفكار والهواجس في عقله بشكل صاخب.. لعن الساعة التي تعرف فيها على هذه الحجّيّة المنحوسة.. أخذ يلوم نفسه ولكن بعد فوات الأوان.

وبينما كان قابعاً في أحد المكاتب ينتظر استكمال إجراءات حجز جواز سفره كان حشد غفير من أهلها وأبناء عشيرتها يرحبون بها، ويهنئون أنفسهم بعودتها سالمة غانمة من مهمة خاصة، بل يبدو أنها كانت خاصة جداً.

* * *

القرباط[3]

القرباط قوم ينتشر أفراده في كثير من بلاد الدنيا، ويتكلمون بلغات فيها جذور خاصة وممزوجة بكثير من مفردات لغات الأقوام التي يسكنون بلادها، وتسميهم الكتب الغَجَر، والنَّور، والجنكنه.

في التركيّة يطلق عليهم: الكَوْجيّة، وهم قوم يتنقلون بخيامهم في البراري من مكان إلى آخر، وكَوْجك كلمة سباب واحتقار.

وفي العربيّة يطلق عليهم: الزط.

ومن أمثالهم: طلع من بيت الزط مؤذن.

والقرباط في البلاد الشاميّة لا يزاولون عملاً سوى الاستيلاء على الفطايس، فهم يتخذون من جلودها الطبول والدربكات والمناخل، وتشتهر نساؤهم بفتح الفال وقراءة الطالع.

وثمّة نفر منهم امتهن صناعة الأسنان البديلة، وكان يميزها أمران: لونها الذهبي، وسعرها الزهيد.

ومنهم الطّبالون، والزمّارون، والرقّاصون، والعبلات[4]، أمّا دينهم فهو دين الأقوام التي يسكنون بينها.

وبنى الحلبيون من القرباط فعل: قربط بمعنى بخل، ومطاوعه: تقربط.

ويقولون: أنت أقربط واحد في البلد، يريدون: أنه يحمل أكثر من غيره من طبائع القرباط كالخسّة والدناءة، وقد بنوا اسم التفضيل من القرباط.

وحين ترغب الأم تخويف ابنها تقول له: كو بجي القرباطي بياخدك.

ومن كنايات أهالي حلب: عليه لحية بتشغل القرباط سنة.

ومن تهكماتهم: القرباطي ما بقول لمرتو: وين كنت؟ بقول لا: شقد جبتي؟ ما يعني أنّ عند القرباط لا يوجد قيم.

ومن تشبيهاتهم: متل شيخ القرباط كبير في عين حالو زغير بين الناس.

سُئل واحد منهم: أنت قرباطي ولا جنكَنه؟ قال: الحمد لله قرباطي.

من عادات القرباط: حين يجد القرباطي فطيسة يغرز موسه فيها وإن سبقه إليها غيره، بمعنى صار ألو فيًا حصّة.

ويزعم قرباط حلب أنّ جدهم الأعلى هو جسّاس المذكور في (سيرة الزير)، ونفوسهم في حلب في أواسط القرن العشرين نحو (700)، يسكنون في حارة القرباط، وهو حيّ يقع شرقي جامع التوبة في منطقة باب النيرب.

* * *

الخوجة[5]

الخوجة من التركيّة: قوجة: الشيخ والشيخة.

وعن الفارسيّة: خوجة: السيد، والسيدة.

وبيت القوجة في حلب إسلام ومثلهم بيت الخوجة.

إلى ذلك يطلقون لقب الخوجة في حلب على معنيين:

1 - الشيخ أو الشيخة اللذان يعلمان القرآن.

لا يخفى على أحد أنّ لقب (الخوجة) كان إلى زمن قريب يطلق في حلب على المشايخ الذين اختصوا بتدريس الأولاد الصغار في الكتاتيب الملحقة بالمساجد.

من أهازيجهم: أهازيج الأولاد: يا خوجتنا انصرفنا وعلّقنا مصاحفنا.

ومن تهكماتهم: الله الله خوجتنا! سرّك بان من طاقتنا. يريدون: الشيخة التي تعلّم القرآن يبدو أنهم شاهدوها تغازل.

2 - رئيسة جوقة الغناء والطرب.

درجت العادة على أن يطلق لقب (الخوجة) على السيدات اللاتي يمتهن الغناء والرقص وبالتحديد على رئيسة جوقة الغناء ومجازاً: جوقة الغناء والطرب كلها.

هذه التسمية ما زالت تنسحب على الفرق الفنيّة المحليّة إلى يومنا هذا إذ غالباً ما تختص تلك الجوقات الطربيّة بإحياء الأعراس والأفراح النسائيّة، وهي منتشرة في المدينة على نطاق واسع، وما زالت مطلوبة كثيراً إلى يومنا هذا لا سيما في الأحياء الشعبيّة والطبقات الاجتماعيّة المحافظة.

على امتداد سنوات القرن العشرين كانت خوجات الغناء والطرب في المدينة أغلبهنّ يهوديات، واستمرت هذه الظاهرة منتشرة ومألوفة إلى الفترة التي سبقت هجرة اليهود الأخيرة من حلب في بداية التسعينيّات من القرن الماضي، وظنّي أنّ نسبة لا بأس بها منهنّ كانت لهنّ علاقة بشكل أو بآخر بقطاع الدّعارة، وقد تحوّل من تجيد منهنّ الرقص والغناء إلى العمل في جوقات الفن والطرب إثر تقدمهنّ في السن.

حدثني في هذا السياق أحد المعمرين عن مغامرات ابن عمه خارج حدود المحل العمومي، فقد كان يتردّد في خمسينيّات القرن الماضي على منزل يقع في محلّة بندرة اليهود، ويقضي الليل عند صاحبته مقابل عشر ليرات، يدفعها لزوجها الذي يستقبله في صالة المنزل قبل الدخول عليها.

وآخر حدثني عن طبيب ذكر له أنه استدعي في أربعينيّات وخمسينيّات القرن العشرين عدة مرّات لمعالجة بعض العاهرات يعملن بالسر خارج المحل العمومي، وتبيّن له بالمصادفة أنهنّ من اليهوديّات المقيمات في محلّة بحسيتا.

الطريف في الأمر تلك المقولة التي كان أبناء الطائفة اليهوديّة في حلب يروجونها في مجتمعهم وفي المجتمعات المحيطة بهم حين تنغمس إحدى بناتهنّ في مهنة الدّعارة إذ كانوا يدّعون أنها فقدت عقلها ولا تدرك ما تقدم عليه من أفعال ولا يسعهم محاسبتها عليها، ويعدّونها أنها باتت آنئذ واحدة من اللواتي مسّهنّ الجنون.

نشير إلى أنّ أغلب الخوجات اليهوديّات اتخذن من بيوت عربيّة قديمة في محلّة القلّة مسكناً لهنّ، وبالتحديد في المناطق التي تقع خلف المحلات التجاريّة العامرة التي كانت موجودة في ساحة باب الفرج ومنها: حلويات المستت، ومطعم سطّح، ومطعم ستوت، وغيرها. في عام (1979) أزيلت هذه المنطقة بالكامل في إطار مشروع باب الفرج، وقد أشادت البلديّة بدلاً عنها فندق الشيراتون.

هذا وقد وصلتني معلومات شفويّة متواترة تفيد بأنّ سيدات حلب من الشرائح الاجتماعيّة المتنوعة، واللاتي يرغبّن في أن تحيي أعراس بناتهنّ جوقة غناء متخصصة بأفراح النساء، ليس لهنّ سوى زيارة الخوجات في منازلهنّ لا سيما القاطنات منهنّ بحيّ القلّة، للتفاوض معهنّ والاتفاق على الأسعار وعدد أفراد الفرقة بما فيها

الراقصة وما إلى ذلك من تفصيلات لها أول وما لها آخر، إذ لم تكن الخطوط الهاتفيّة في تلك الفترة متوافرة على نطاق واسع، فضلاً عن أنه لم يكن ثمّة سماسرة متخصصون بأعراس النسوان، بل نرى أنّ الاتفاقات كانت تعقد بين أصحاب العرس والخوجات على نحو مباشر.

من أهم الخوجات اللائي نلّن شهرة واسعة في حلب على مدى العقود الفائتة: جميلة سمعان، إنعام توفيق، وفاء صدقي، صباح محمد، أم سامي، بهيّة السودة، الراقصة فيروز، عازفة القانون الزهيراتيّة، وعلى الدربكة (الطبلة) نظلة، التي تتقن في الوقت نفسه العزف على آلة العود، وفي السنوات الأخيرة تسيدت الساحة السيدة قدرية وبناتها.

السيدة نظلة

أشير إلى أنه تواترت عدّة أخبار عن السيدة (نظلة) أنها ما زالت على قيد الحياة، وأنها كانت تقطن إلى وقت قريب في منزل يقع في حيّ الجميليّة، وذلك في منتصف الشارع الصاعد من موقع مقرّ نادي الاتحاد الرياضيّ القديم باتجاه شارع البحتريّ.

تعدّ السيدة (نظلة) من بقايا الزمن الجميل، وهي واحدة من أقدم العاملات في جوقات الغناء، على أنها اعتزلت المهنة منذ فترة لا بأس بها إثر تقدمها في العمر وتراجع الطلب نسبياً على الخوجات.

كما يشاع عنها بأنها كانت في مطلع شبابها قريبة بشكل أو بآخر من قطاع الدّعارة نظراً لما كانت تتمتع به من جمال لافت، وربما انضمت إلى العاملات في المحل العمومي ردحاً من الزمن خلال حياتها المهنيّة الطويلة، ثم ما لبثت أن احترفت الفن إذ إنها كانت تتقن العزف على آلتي العود والطبلة، وانخرطت في عالم الخوجات

وأعراس النساء وإحياء حفلاتهنّ الخاصة التي يطلق عليها في حلب اسم (القَبول)[6].

ممّا لاشك فيه أنّ (نظلة) هي واحدة من فئة لا يتجاوز عدد أفرادها أصابع اليد الواحدة من أبناء الطائفة اليهوديّة الذين ما زالوا يعيشون ويقيمون في مدينة حلب.

أعراس النساء

غالباً ما يقتصر عمل جوقات الغناء على إحياء أعراس النساء وما أكثرها في حلب إذ إنّ إيقاع مجتمع المدينة المحافظ يفرض هذا النمط من السلوك، ولمّا كان مزاج أهالي حلب لا يستقيم إلّا مع وجود الطرب والقدود الحلبية استدعى الأمر أن يكون للخوجات سوقٌ رائجة في المدينة.

من أشهر وأعرق الأماكن التي تقام فيها أعراس النسوان في حلب هي (قهوة البرتقان)[7] ، و(دار الأفراح)[8]، ومن دلالات إقامة حفل الزفاف في مثل هذه الأماكن هي أنه سيكون (عرس مطنّطن، ومنظوم)[9]، لا سيما إذا أحيته خوجة معروفة، أمّا إذا ترافق مع تقديم عشاء أو ضيافة عندئذ يوصف العرس (بالجخ)[10] إذ إنّ أغلب أعراس النساء في المدينة لا تجمع بين الخوجة والضيافة.

إنّ الصالات المخصصة لإقامة أعراس النساء تشبه إلى حد بعيد قاعات (السيمنا)[11]، فهي تشتمل في صدرها على (مرسح)[12]، يتسع لجوقة الغناء وركن للعروسين، إضافة إلى أنه مجهز بنظاميّ صوت وإنارة مناسبين، وستائر لحجب خشبته، وتتوزع المقاعد في المساحة المتبقيّة من الصالة على نسق صفوف متراصّة.

إضافة إلى الغناء والرقص لا يفوت الخوجة أن تدلو بدلوها تجاه العريس ووالده وإخوته حين يدخلون في نهاية العرس لاصطحاب

العروس، وذلك من خلال ترديد الهناهين[13] وبعض عبارات التفخيم والتعظيم لدفعهم إلى منحها مزيداً من الإكراميّات.

كما أنّ ثمّة أغنيات وقدوداً حلبيّة منسوجة على قياس حفلات أعراس النساء تُنشدها الخوجة بدلال وغنج تنطوي على معانٍ وشذرات مبطّنة بالغمز واللمز على نحو تثير فيه في نفوس النسوة مشاعر طاعنة في الأوهام والغبطة، فيندفعن بحماسة إلى تقديم (الشاباشات)[14] لا سيما المقتدرات منهنّ إكراماً للعروسين، وتجسيداً لمكانتهنّ.

في الوقت نفسه تلجأ الراقصة التي تشارك جوقة الطرب في إحياء العرس إلى تكرار حركة الهوّاية أمام العريس وأهله عدّة مرات متتالية بغية مضاعفة الإكراميّة الخاصة بها، والهوّاية عبارة عن قيام الراقصة برفع الجزء الأماميّ من بدلتها إلى الأعلى لأجزاء من الثانية ثم إعادتها إلى الأسفل، وبتلك الحركات الخاطفة والمتواترة تَظهر ساقا الراقصة بشكل واضح، وفي ذلك إثارة ومتعة للحضور، النساء منهم قبل الرجال، إذ تتعالى صيحاتهنّ لتشجيع الراقصة لفعل المزيد من تلك الحركات الماكرة واللعوب.

من الأشياء الطريفة التي أمست عرفاً في حفلات الأعراس تلك المتعلقة بالخوجات، فهنّ يطلبن من أصحاب الأعراس أن يمنحوهنّ قبل مغادرتهنّ المرسح عدا الأجر المتفق عليه والإكراميّة التي لا بدّ من أن تكون سخيّة كيلو بن وكروز دخان أجنبي، من نوع (كنت أو بولمان).

أخيراً ينبغي لنا أن نشير إلى أنّ أغلب الخوجات لا يزاولن مهنة الدّعارة على نحو مباشر، إنما أعتقد أنّ ذلك لم يحلْ دون أن يدور بعضهنّ في فلكها.

***

1. حيّ السريان الجديدة: يعدّ من الأحياء الجديدة التي بنيت وفق طراز معماري حديث، ويسمى حيّ ثكنة طارق بن زياد، يخترقه شارع الزهور، ويفصل شارع حطين بين حيّ السريان القديمة وحي السريان الجديدة.

2. حيّ باب النيرب: استمد اسمه من باب النيرب، وهو أحد أبواب حلب الشهيرة، يقع إلى الجنوب الشرقي من المدينة، يفضي منه إلى قرية النيرب، بناه الملك الأشرف برسباي، وكانت قنطرة الباب موجودة حتى العقد الثالث من القرن العشرين، فقد هدمت مع حركة التوسع العمراني في المنطقة، وفي الحيّ تقوم الصناعات اليدويّة مثل البسط والصايات واللبابيد والعبي، وكان فيه مضافات عربيّة يقوم شيخها بحل الخلافات بين أفراد عشيرته، وفيه مسجد آشق تمر وتكثر فيه القيساريّات والخانات، وقسم كبير من أهل الحيّ يعملون بتهريب وبيع الأسلحة والأجهزة الكهربائيّة المهرّبة، وفيه عشيرتان متنافستان يحدث بينهما باستمرار صدامات دمويّة وهما العساسنة والبقارة، وهناك عشيرة السخانة أيضاً.

3. القرباط: انظر موسوعة حلب (المقارنة)، تأليف خير الدين الأسدي، وتحقيق محمد كمال، المجلد السادس، الصفحة (170).

4. العبلات: جمع العبلة، وهو الرقص على الجمال، وكانت تشتهر به الحجيّات.

5. الخوجة: انظر المصدر السابق، الصفحة (367).

6. القَبول: عربية مصدر قَبِل، والحلبيون أطلقوها على يوم في الشهر تخصصه المرأة لزيارة صديقاتها إيّاها يأتونها فيه، وتقدم لهم الضيافات المتنوعة، ويطيب لكثيرات من النساء في هذه الليلة أن يجلبن إحدى الخوجات لإحيائها لا سيما إذا ترافقت مع حدوث مناسبة خاصة كالأفراح والأعياد وما شابهها.

7. قهوة البرتقان: من أهم الأماكن التي كانت تحيا فيها حفلات الأعراس قبل إنشاء الفنادق الحديثة والأندية العامة، وتسمى قهوة البرتقال ولم أجد سبباً لتسميتها بهذا الاسم، يبدو أنه كان يوجد في فنائها بعض أشجار البرتقال، وسابقاً كانت تدعى قهوة البليط، وتعدّ عمارتها من المباني التراثيّة العريقة، وهي عبارة عن قاعة مستطيلة الشكل ذات سقف مرتفع، تحتل أحد ضلعيه الصغيرين مصطبة حجرية تستخدم كمسرح، وتنتصب على جداريه الطويلين أنصاف أعمدة حجرية أنيقة تنتشر فيما بينها نوافذ كبيرة، تعلوها أقواس حجريّة مزخرفة وتمتاز بزجاجها المعشق ذي الألوان البهيجة، وتقع قهوة البرتقان في منتصف شارع السجن القديم على الطرف الأيمن بالاتجاه الواصل بين السبع بحرات ونزلة السجن، وتحديداً في مدخل سوق الموازين.

وأمّا استبدال اللام بالنون فيسمى الإبدال، وهو من سمات لهجة أهل حلب، ولا عجب في أن تجد لها مثيلاً أو ما يدانيها في لهجات المدن السوريّة الأخرى.

انظر كتاب الظواهر اللغويّة الكبرى في العربية، تأليف الدكتور عبد الرحمن دركزللي، لهجة حلب، الصفحة (24).

ويروى: بأن سيدة لبنانية دعيت إلى حفلة زفاف في قهوة البرتقال أحيتها خوجة حلبيّة معروفة وامتدت إلى ساعات الفجر الأولى، وفي اليوم التالي أخبرت صديقاتها بأنها حضرت عرساً رائعاً في كازينو الليمونة (في لهجة أهل لبنان يطلقون على البرتقال ليمون، وعلى الليمون حامض).

8. دار الأفراح: تعدّ أيضاً من أهم الأماكن التي كانت تقام فيها الأعراس حتى وقت قريب، وهي موجودة في منطقة الرمضانيّة في نهاية

خط الترام الذي كان يصل أحياء حلب الشرقيّة بالأحياء الأخرى، وتحديداً أمام موقع المشفى العسكريّ القديم.

9. مطنّطن ومنظوم: مطنّطن: من الطّن والرّن: أيّ الطّنين والرّنين، أيّ يشتمل على الدّق والرّقص، ومنظوم: من العربيّة، يستعملها أهالي حلب بمعنى الجيّد، بيت منظوم، أكلة منظومة، عرس منظوم، وهكذا.

10. جخّ: جخّ فلان علينا، يريدون: صرف بسخاء، وفي أصلها المذاهب التالية:

أ- أنها من جخّ (العربية): اضّطجع واسترخى استعملوها بمعنى تنَعّم وترفّه، ذهاباً إلى أنّ الاضّطجاع والاسترخاء من ملابسات التنعّم والترفّه عند كسالى الشرق.

ب- يرى الدكتور أحمد عيسى أنّ الجخّ من الجخف (العربيّة): التكبّر والافتخار.

ج- وقال العلايلي: جخّ عامي مفصح: الشخص بالغ وتأنّق في لباسه ورياشه، وأظنّ أنها ترجع في الأصل إلى لباس الجوخ وكان علامة ثراء ونعمة.

انظر موسوعة حلب (المقارنة)، تأليف خير الدين الأسدي، وتحقيق محمد كمال، المجلد الثالث، الصفحة (44).

11. السيمنا: وهي السينما: من الفرنسية، آلة الصور المتحركة، ومجازاً: مكان عرض الأفلام، وضع لها بعضهم: خيال الظل، ووضع لها المجمع الثاني المصري: الخَيَالَة، واستمرت كلمة السينما العالميّة السائدة، وجمعوها على السينمات والسينمايات، وبلغ عدد السينمات في حلب سنة (1960) عشرون.

انظر المصدر السابق، الصفحة (437).

وتغيير موضعيّ الحرفين الميم والنون يسمى قلب المكان، وهو من سمات لهجة أهل حلب.

انظر كتاب الظواهر اللغويّة الكبرى في العربيّة، تأليف الدكتور عبد الرحمن دركزللي، لهجة حلب، الصفحة (24).

12. المَرْسَخ: تحريف المسرح من العربيّة: اسم المكان من سرح، وجمعوها على المراسح.

وتغيير موضعيّ الحرفين السين والراء يسمى قلب المكان، وهو من سمات لهجة أهل حلب.

انظر المصدر السابق، الصفحة (24).

13. الهناهين: مفردها هَنْهُونة: تطلق على رباعيّة، وفي لهجة أهل حلب يقولون: هاها في صدر كل بيت، وفي دمشق وحمص وحماة يقولون أويها، وتقولها المرأة في مناسبة فرح كالعرس، والطهور، والنّشيدة. والحجّ. وسائر النساء يزغردن: (لي لي لي ش) إثر الانتهاء من إلقاء الهَنْهَونة. والجمع: هَنْهُونات وهَناهين، وبنو على فعفولة من هنّأ (العربيّة) أو من هنيانا (السريانيّة) بمعنى التهنئة الصغيرة.

انظر موسوعة حلب (المقارنة)، تأليف خير الدين الأسدي، وتحقيق محمد كمال، الجزء السابع، الصفحة (371).

وقد أحصيتُ الهَنْهُونات الخاصة بالأعراس والليالي الملاح الواردة في موسوعة حلب (المقارنة)، فظهرت على النحو التالي:

أ. عريسنا بوجّك نور .. والخضر إلَك ناطور.. شقد ما ردت في الدنيا تدور.. هي عروسك الست بدور.

ب. يا نجمة الصبح فوق الدار علّيتي..شمّيتي ريحة الحبايب وجيتي وضوّيتي.. ندراً عليّ إذا راحوا على بيتي.. لا شعل لهم شحم قلبي إذا خلص زيتي.

ج. يا ستنا يا عروس قومي نسير فيكي.. من بيت أبوكي وأمك لعلاليكي.. ونصب كاس الهنا والسعد يسقيكي.. بنت الأجاويد ما ضاع المهر فيكي.

د. دقت طبول الفرح من دخلتك عالدار.. والورد فتح وفاحت ريحة الأزهار.. والوج دورة قمر والخد يقدح نار.. والخصر من رقّتو ما يحمل الزنار.

ه. بنت الأجاويد سرير العز مرباكي.. الورد حبك كما النسرين حياكي.. حلف عريسك بربّو أنّو يلقاكي.. ولّما شافك صرخ الله ما أحلاكي.

و. عريسنا الشب نحنه اليوم في حيّك.. يا برج عالي وكل الناس في فيّك.. سألت ربّ السما يخليك لبيّك.. مع طولة العمر للأحباب ولخيّك.

ز. دوس يا عريسنا دوس على روس.. تحت إجريك دهب مكدوس.. ومن دخلتك على السراي.. بتفك والله ألف محبوس.

لا شك في أنه يوجد غيرها الكثير الكثير في تراث حلب المدون منه، أو المتداول شفاهة.

14. الشاباشات: شاباش: من الفارسيّة: الذهب الذي ينثر على المطربين والراقصين، وكلمة دعاء بمعنى: لتكن سعيداً، وكلمة استحسان بمعنى: مَرْحَى، وما أحسن، ونعِمّا، وتقال في الأعراس لدى تبرع أحد الحاضرين أو إحدى الحاضرات للعريسين بمبلغ فيهتف بيشاورش العريس: شاباش من فلان خمسمائة ليرة، وتهتف البيشاروشة عند النساء: شاباش من فلانة مئتا ليرة، فيضرب الطبّال أو الطبّالة على الدربكة تحيّة للمتبرع، وعادة ما يتم المصالحة على المبلغ بعشر قيمته، ومايجمع في نهاية العرس يتقاسمه العروسان والخوجة أو جوقة الغناء عند الرجال بنسب متفق عليها مسبقاً.

انظر المصدر السابق، الجزء الخامس، الصفحة (8).

الفصل الثاني

الملاهي الليليّة

لمحة تاريخيّة

لا يوجد لدينا كثير من المعلومات والأخبار عن بدايات انتشار الملاهي الليليّة في حلب، على أنّ ما ذكره العلامة (محمد خير الدين الأسدي) في معرض حديثه عن كلمة (الرقص) في موسوعته الشهيرة عن لهجة حلب يسمح لنا بالتقاط بعض الإشارات عمّا كانت عليه الحال في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، ولعلّ الأخبار التي أوردها عن الراقصين والمقاهي في تلك الفترة تعطينا فكرة أوليّة عن بدايات انتشار المراقص والملاهي في المدينة، وسأنقلها حرفيّاً كما وردت في الموسوعة وإن كانت لغة هذه الفقرة أقرب إلى العاميّة منها إلى الفصحى لئلّا أنتقص شيئاً من قيمتها التراثيّة والاجتماعيّة.

"في مطلع القرن العشرين كانت بعض المقاهي تقام فيها إلى جانب الغناء رقصات أذكر منها القهاوي التالية:

1- قهوة البرتقال، المسماة حالياً قهوة البليط.

2- قهوة كانت قدّام حمّام القاضي، تحولت إلى مخزن لبيع الموبيليا (الأثاث المنزلي).

3- قهوة الناطور خارج باب النصر، وهي الآن قهوة حمو.

4- قهوة الشهبندر العتيق.

وكانت هذه القهوات كغيرها مقاعدها الرحلات الطويلة، ولمّا جلبوا كراسي القش الصغيرة، إي هه يكان صرنا أوادم أمّا قلاطق القش فعيب أن يجلس عليها غير الزوات.

ولمّا كان سفور النساء محرّماً كانت الراقصات آنئذ فتياناً مراهقين، يلبسون قُبّع الشعر، وبدلات النسوان، ويثبتون الحلق في آذانهم بخيط، ويمسحون وجوههم بالبودرة، ويُحمرون وجناتهم ويتكحلون، ومنديلتين في العبّ عوضاً عن البزاز، والناس طاير عقلا حواليهن والسعيد اللي تبتسم لو هل الرقّاصة اللي بيعرفوّا مزيفة، ولمّا بتبلّش بترقص شوف الدلع وشوف الغنج وشوف هز البطن، وطلّع الناس عم بزتّوا نصاص المجيديّات، و(المجيديّات)[1] على هل الرقّاصات، وبزتّوا معا صياحن: يا حلوة! فتنتينا.

واشتهر من هؤلاء الراقصين اثنان عرفناهما لأنهما عمّرا، وأدركنا شيخوختهما.

1- شكري الشامي النصراني، وكان في الثامنة عشرة، إلو هزّة بطن وضربة صنوج ما حدا بسبقو فيّا.

2- عبد الله المصابني الشامي النصراني أيضاً، وكان في السابعة عشرة، كان آية في الملاحة وضنين في البسمات سحر الدنيا بزمانو ولم قروش حتى انفزر.

وكانوا يسمون هؤلاء الراقصين كَوْجَك كما يسميهم الأتراك، وسموهم كَوْجَك لأنهم لا يكونون إلا من قوم الكَوْجَية الذين يتنقلون بمخيمهم في البراري من مكان إلى مكان وهم القرباط، وكَوْجَك كلمة سباب واحتقار.

وظل الرقص هكذا حتى عهد الاتحاديين حيث عُين والٍ جديد اتحادي، وكان يتفقد هذا الوالي شؤون حلب.

ذات ليلة دخل قهوة أمام مدخل التكيّة إلى الشرق وسأل:

- من أين تحصلون على هؤلاء الراقصات؟

- أفندم! هدول ما هن نسوان، هدول أولاد شغلتن بتقنوا الرقص.

تَقدم الوالي وتأمّلهن وتعجب من إتقان الدور:

- ته ته ته ته، وليش ما بتجيبوا عواضن بنات؟

- أفندم! ما برضى القاضي يَسق.

- سكتر إيت، نحنه في عهد الاتحاد والترقّي، القاضي ما لو شغل هون.

- سيدي ولو جبنا بنات بخطفوّن الناس وبصير مدابح.

وبعد كم يوم بلّشوا بعمارة قلّق باب الفرج، وأجو بنتين خمسينيات ما بيعرفوا برقصوا ولا يتشحوروا، وعطا أمر الوالي للقومسير: منو بتشفتر بتضربو بالكرباج سَلْخ على ضهرو، على راسو مجاورة، حتى يجي كيفو.

قال أبو حمدو لرفيقو: أقول لك يا قدّور! يا حيف على الزمن الأول، يا حيف! ومسح دمعتو."

* * *

البدايات الحقيقيّة

سرعان ما انتعشت المسارح الغنائيّة في المدينة في بدايات العقد الثاني من القرن العشرين، وبات ظهور الراقصات والمغنيات في مقاهي المدينة أمراً مألوفاً، فقد صرحت الفنانة الكبيرة (بديعة مصابني) في مقابلة تلفزيونيّة أجريت معها في منتصف السبعينيّات من القرن نفسه أنها عملت في مقاهي حلب ومسارحها قبل سفرها إلى مصر في عام (1912)، وأفادت في الحوار عينه أنها كانت تتقاضى (300) ليرة ذهبية أجراً شهرياً، وتعدّ بديعة فنانة شاملة إذ كانت تغني وتقدم العروض الاستعراضيّة الراقصة.

نخلص بالقول إنه لولا ازدهار تلك المهنة في تلك الفترة في المدينة لما استطاع أصحاب المحلات الفنيّة أن يمنحوها هذا الأجر الضخم.

كما أشير إلى ما أورده القاضي (سعد زغلول كواكبي)[2] في إحدى فقرات كتابه (ذكريات من ماضي حلب) الصادر في عام (2009) عن النشاط الفني الأصيل في تلك الفترة، فقد ذكر أنّ مسارح المدينة ومقاهيها استقبلت غير مرة العديد من الفنانين العرب، وفي مقدمتهم (الشيخ سلامة حجازي) والمطربة (منيرة المهديّة). وبمناسبة الانتهاء من تشييد فندق بارون عام (1912) أحيت المغنية (منيرة المهديّة) حفلة في مقهى الشهبندر، وبلغت قيمة التذكرة آنذاك ليرة ذهبيّة عثمانيّة واحدة.

يبدو أنّ دخول الانتداب الفرنسي إلى سوريّة في عام (1920) أعطى دفعة كبيرة لقطاع المسارح الفنيّة والمقاهي الليليّة في سوريّة بشكل عام، وفي حلب على وجه الخصوص، على أنه ينبغي لنا الإشارة إلى أنّ هذه الظاهرة تطورت ونمت في مسارين مختلفين.

الأول في مجال الفن الرفيع والطرب الأصيل اللذين اشتهرت بهما حلب منذ الأزل إذ لا يخفى على أحد تنافس عمالقة الطرب بالوطن العربي في نيل شرف الغناء فوق مسارح حلب في النصف الأول من القرن العشرين، ومنهم الفنان الكبير (محمد عبد الوهاب)، وكوكب الشرق (أم كلثوم)، لإظهار براعتهم أمام جمهور حلب العاشق لضروب الطرب والفن الأصيل، وفي هذا حكايات كثيرة باتت معروفة للقاصي والداني.

من أشهر المسارح التي استقطبت أولئك الفنانين كازينو (لونا بارك) الذي كان موقعه على ضفاف نهر قويق قبل أن تطاله يد الخراب، وبالتحديد بجوار مبنى الفندق السياحي المطل على (ساحة سعد الله الجابري)[3]، وكازينو الشهبندر الذي كان موجوداً في شارع بارون، وقد تحوّل مؤخراً إلى مرآب لوقوف السيارات.

في هذا السياق يتناقل الحلبيون قصة طريفة عن السيدة (أم كلثوم) حين زارت المدينة في ثلاثينيّات القرن الماضي، فقد بادر جمهور حلب الذواق إلى حمل سيارتها (الكاديلاك) بعد أن ركبت فيها، وسار المحبون وهي على أكتافهم من مكان إقامتها في (فندق بارون)[4] إلى موقع إحياء حفلتها الغنائيّة في كازينو (اللونا بارك) إكراماً لها وتقديراً لفنها، فهي من القلائل الذين سبقتهم سمعتهم الفنيّة العطرة إلى المدينة قبل وصولهم إليها إذ من المعروف تاريخياً أنه لا يسمح لأيّ فنان يفد إلى حلب أن يغني على مسارحها قبل أن يجيزه سمّيعتها ويرضى عنه شيوخ الطرب فيها.

أمّا المسار الثاني فيتقفّى آثار الفن التجاري وما يتعلق بالمرابع الليليّة وسرعة انتشارها في المدينة ورواجها في الفترة نفسها، ومنها الكازونيهات الراقيّة التي كانت تؤمّها النخبة من العائلات السوريّة

والفرنسيّة حيث دأبت هذه المحلات على استقدام الفرق الفنيّة الاستعراضيّة العالميّة، وقد جئنا على ذكر بعضها في بداية هذا الكتاب، في حين انتشرت في الوقت عينه الملاهي الليليّة التي كانت تقدم ألواناً من الفن الرخيص الذي يعدّ مفتاحاً للعبور إلى عالم الدّعارة والجنس المأجور، وقد وَجدتْ هذه الأماكن من منطقة باب الفرج القريبة من بَحْسيتا والشوارع المتفرعة عنها مرتعاً خصباً لجذب الزبائن وطالبيّ المتعة.

تحولات

في الخمسينيّات ودون أسباب مسوغة تراجع تقديم الفن الراقي على مسارح المدينة، وانحسر توافد الفنانين العرب إليها، في حين ازدهرت الملاهي الليليّة والكباريهات على نحو ملحوظ، وللدلالة على ذلك سأقتبس حادثة ذكرها القاضي (سعد زغلول الكواكبي) في كتابه (ذكريات من ماضي حلب) تشير بوضوح إلى تراجع الذائقة الطربيّة عند أهالي المدينة:

"أمّا قهوة الأزبكيّة فهي في مقابلة قهوة الدب وعلى مستوى الأرض. وآخر من غنّى فيها من السلف الصالح هو المطرب المرحوم (محمد عبد المطلب) عام (1951)، ولنا معه قصة تاريخيّة مبكية تذكر. فلقد أنفذنا إليه نادل المقهى برفقة طلبنا منه، فيها أن يسمعنا أغنية قديمة، وأعتقد أنها كانت دور (يا منت وحشني) فتقبلها بسرور عظيم، وجاء يجالسنا شاكراً على إقامتنا على حب الموسيقى الأصيلة، وحدثنا أنه قبل مجيئه إلى حلب استشار مغنية من أهل الطرب الحديث جاءت لتغني بحلب مرّة عما وجدته من حال أهل حلب فأجابته: (زفت خالص)، فعقّب قائلاً لها إن الدنيا لا تزال في خير بحلب، وقال: وقررت التوجه إليها لأغني في قهوة الأزبكيّة، وهأنذا أتأكد - منكم بالذات أنتم الشباب المثقف – أنّ أهل حلب لا يزالون

في خير والحمد لله، وقد استضافنا على حسابه الخاص، وتابع غناءه التراثي حتى بعد منتصف الليل خلافاً لبنود عقده مع أصحاب المقهى تبرعاً. ولا أكتمكم أنّ طيب قلبه قد ساقه إلى الإكثار من الأغاني التراثيّة الأصيلة في الأيام التالية، وفي غيابنا. حتى كان اليوم الأسود، إذ سمعنا بأن الناس المستمعين من الجيل الجديد قد أوسعوه ضرباً بالبيض والطماطم وقشور البرتقال، تماماً كما فعل من هم أكبر سناً قبل عدة سنوات حينما حضروا حفلة ل(نعيمة عاكف) التي أعلمته بأن الدنيا في حلب (زفت خالص)، وقد كنت في جملة مشاهدي ذلك الحفل في مقهى الشهبندر.

كانت تلك الحادثة آخر عهد لحلب وأهل حلب بالموسيقى الراقية الأصيلة، ولم تعد حلب مهداً لها وعرشاً لملوكها يتوجون فيها من سائر أنحاء البلاد العربيّة. وما ظاهرة (بكري الكردي ومحمد خيري وصباح فخري) إلّا عرض يصارع الموت الذي يصنع نعشه أصحاب موسيقى القردة التي لي فيها حديث تال".

كما حدثني الصديق الروائي (نبيل سليمان) عن ذكرياته في إحدى زياراته إلى حلب في صيف عام (1957)، فقد اصطحبه عمه وهو في سن الثانية عشرة إلى مقهى الشهبندر لتناول العشاء وحضور المطربة المصرية الصاعدة آنذاك الفنانة (نجاة الصغيرة)، وما علق في ذاكرته من تلك الليلية أن الحضور كان متواضعاً، وأن أغلب الطاولات بدت شبه فارغة، وهذا دليل آخر على انحسار الذائقة الطربية الراقية لدى أهالي حلب في تلك الفترة.

الكباريهات

بالعودة إلى الحديث عن الملاهي الليليّة، نجد أن أهم الكباريهات وأشهرها في فترة الستينيّات والسبعينيّات في حلب هي ملاهي

الكاسبا، والطاحونة الحمراء، والسميراميس والشهبندر إضافة إلى ملهى الصحراء الصيفيّ الذي تميز مسرحه بتقديم الفنانة (ليلى حلمي) المعروفة بأداء أغاني السيدة (أم كلثوم)، وملهى الكروان الصيفيّ الذي اختص بتقديم الفرق الاستعراضيّة المصريّة، والملهيان الأخيران كانا يقعان في أطراف حي الجميليّة بالقرب من ساحة سعد الله الجابري.

استقطبت هذه النوادي الليليّة الفنانات من الصفوف الثانية الثالثة، والغالبيّة العظمى منهن قادمات من خارج المدينة، ومن ألمع الأسماء التي اشتغلت في ملهى (الطاحونة الحمراء) في تلك الحقبة المغنيّة (روحية عبد الخالق) التي كانت تتخيل أنها خليفة المطربة الكبيرة (أم كلثوم)، والراقصة ذات القوام الفاتن (نازك).

تعود ملكيّة (ملهى الكاسبا) و(ملهى الشهبندر) إلى الفنانة (يسرا البدويّة)، فقد كانا يعملان بالتناوب بين الموسمين الشتويّ والصيفيّ.

في حقيقة الأمر يعدّ (ملهى الشهبندر) من أعرق المسارح في المدينة قبل أن يتحول إلى كباريه، فقد اعتلاه وغنّى فوق خشبته في عشرينيّات، وثلاثينيّات، وأربعينيّات القرن الماضي أعظم فنانيّ ومطربيّ الدول العربية وأهمهم، وعلى رأسهم - إضافة إلى الذين ذكرناهم سابقاً- موسيقار الأجيال الفنان الكبير (محمد عبد الوهاب)، وكوكب الشرق (أم كلثوم)، وشيخ الفنانين المصريين الملحن والمطرب (الشيخ زكريا أحمد)، وسيدة مطربات بلاد الشام (ماري جبران)، والمطربة الكبيرة (ألكسندرا بدران) التي اشتهرت باسم (نور الهدى)، وغيرهم كثيرون.

على أنّ دوام الحال من المحال، فقد تغيرت ملامح (ملهى الشهبندر) إثر انتقال ملكيته وإدارته للحاجّة (يسرا البدويّة) إذ أصبح

مسرحه عامراً بتمايل الأجساد الرخيصة وأصوات الحناجر التي لا تطرب إلّا الرؤوس المترعة بألوان الخمر الرديء.

على أنّ الميّزة الوحيدة التي حافظ عليها الملهيان هو أنّ الحاجّة يسرا خصتهما بوصلة غناء طربية يتخللها عادة تقديم بعض أغنيات القديرة (السيدة أم كلثوم) في نهاية البرنامج الفني وذلك على نحو شبه يومي، وقد دأب كثير من معجبيها على الحضور خصيصاً في ساعات الليل المتأخرة لسماع صوتها والاستمتاع بوصلتها دون أن يكون لهم أدنى رغبة في متابعة البرنامج الفني اليومي المبتذل.

نور الهدى (ألكسندرا بدران):

تحدثت المطربة القديرة (نور الهدى) عن بداياتها الفنيّة في مقابلة تلفزيونيّة جرت معها في التسعينيّات قبل رحيلها بسنوات قليلة، فقد صرّحت بأنّ والدها اصطحبها إلى حلب فور اكتشاف صوتها الجميل لعلّها تجد فرصة للغناء فوق أحد مسارحها أو في أحد كازينوهاتها الراقية، وقد أرجعت الفضل في صقل موهبتها إلى مشايخ الطرب في حلب وموسيقيها إذ تبنوها بمجرد سماع صوتها، وأضافت أنها تعرفت إلى المقامات وإلى علوم الغناء على أيديهم، وتمرنت على سلامة النطق وإجادة ضبط مخارج الحروف من خلال تدريبها على قراءة القرآن وإتقان فنون تجويده رغم أن ديانتها مسيحيّة.

كما أنّهم أجازوها كمطربة قبل أن تمضي سنة على وجودها في حلب، وأخبروها أنه بوسعها الآن الغناء فوق أهم المسارح في الوطن العربي، وفعلاً ما إن وصلت القاهرة متسلّحة بموهبتها وبزادها الفنيّ الأصيل حتى ذاع صيتها وباتت خلال فترة قصيرة واحدة من أهمّ نجمات المسرح والسينما في عاصمة الفن العربي.

ومما لا شكّ فيه أنها أمتعت جمهوري حلب والقاهرة الذواقين خلال فترتيّ إقامتها في المدينتين.

نجوى فؤاد:

تمكنت (يسرا البدويّة) من التعاقد مع نجمة الرقص الشرقي في العالم العربي الفنانة (نجوى فؤاد) لمدة شهر كامل في منتصف السبعينيّات من القرن الفائت، قدمت خلاله أجمل الاستعراضات والتابلوهات الفنيّة الرائعة على خشبة مسرح (ملهى الكاسبا).

يعدّ هذا الحدث آنذاك ضربة معلم من الحاجة (يسرا البدويّة) فهو لم يتكرر له مثيل حتى يومنا هذا، أقول ضربة معلم نظراً لانحسار دور حلب الفني منذ فترة الخمسينيّات، علماً بأنّ مسارح حلب وكازينوهاتها كانت قِبلة لأهم المطربين وأشهر الراقصات في النصف الأول من القرن العشرين.

قاع المدينة:

هناك أيضاً ملهى (الكريزي هورس) أو (الحصان الجامح) لصاحبه (أبو لبو)، وهو واحد من الكباريهات الرديئة والساقطة الموجودة في المدينة إذ كان يعرض على مسرحه فناً مبتذلاً ورخيصاً.

كما تتوافر فيه الدّعارة بصورة شبه علنيّة، فقد كان بوسع الزبائن ممارسة الجنس وهم جالسون إلى طاولاتهم في القسم العلويّ من الصالة والمغمور بالأضواء الخافتة مقابل مبلغ سخيّ من المال، يغطي حصة المومس، وحصة (الكباريه)، ومصاريف (الكراسين) المسؤولين على تأمين الأجواء المناسبة لإتمام العمليّة براحة وهدوء، فضلاً عن إكراميّة أفراد الدوريّة الأمنيّة من قسم شرطة الآداب، بغية تغاضيهم وتجاهلهم لما يحدث رغم أنهم مكلّفون أصلاً بضمان عدم السماح بحدوث مثل تلك الأفعال في النوادي الليليّة، فهي

مرخصة فقط لتقديم ألوان الغناء العربيّ، والأجنبيّ، وفنون الرقص الشرقيّ، والغربيّ، ومشاهد التعريّ الفنيّ التي تعرف باسم (استربتيز).

* * *

الفنادق الرخيصة

تجدر الإشارة إلى أنّ الدعارة السريّة ازدهرت في الفنادق الصغيرة الموجودة في منطقة (بستان الكلاب)[5] القريبة من ساحة باب الفرج إثر إغلاق المحل العمومي إذ كان يقيم فيها معظم (الأرتيستات)[6] العاملات في الملاهي الليليّة المنتشرة بكثافة في محيط وسط المدينة.

حرص قسم شرطة الآداب في المدينة على مراقبة القاطنات في تلك الفنادق، وفرض عدة إجراءات تقيد من حركتهنّ وتقلص من إمكانيّة إقدامهنّ على ممارسة الجنس المأجور إذ إنّ معظم (الأرتيستات) العاملات في (الكباريهات) لسن من السوريّات.

من أهم تلك الإجراءات سحب بطاقة نقابة الفنانين التي تُمنح لهنّ، حيث لا يسمح لهنّ العمل في النوادي الليلية دون حيازتهنّ لهذه البطاقة، وعادة تسحب في إحدى الحالات التالية:

1- إذا ضُبطّن وهنّ يمارسّن الجنس المأجور.

2- إذا بتّن خارج الفندق الذي يقمّن فيه.

3- إذا تأخرّن بالعودة إلى الفندق بعد الانتهاء من عملهنّ في الكباريه.

4- إذا تغيبّن عن العمل دون سبب مسوغ.

5- إذا ضُبطّن وهنّ يشربّن الخمور أو يتعاطيّن المخدرات في أماكن إقامتهنّ.

على أنّ تلك المحاذير كلها كانت تُنتهك على نطاق واسع مقابل حفنة من الرشا الصغيرة، فقد كانت تلك الفنانات المزيفات واللاتي

قدمّن من خارج البلد بغية تقديم العروض الفنيّة على مسارح النوادي الليليّة فيها، يمارسّن الدّعارة داخل الفنادق التي يقمّن فيها حيناً، وخارجها في أحايين كثيرة، وذلك تبعاً لرغبة الزبائن وإمكاناتهم، وفي الفترة الأخيرة صارت المزارع المنتشرة في ضواحي المدينة مسرحاً رحباً لاستعراض فنون فجورهنّ المبتكرة.

* * *

1. المجيديّات: جمع المجيدي: وهو نقد عثماني فضّي، ضربه السلطان عبد المجيد فنسب إليه، كما ضرب نصفه، وربعه، وظل مستخدماً حتى بعد زوال السلطنة العثمانيّة. وأول ما ضرب كان سنة (1260 هجرية). وكان أهل الشام يسمون أهل حلب: أهل المجيدي الممسوح. وحلب تلقبه: أبو أحمد. ويقولون فتّح عينَك قدّ المجيدي.

انظر موسوعة حلب (المقارنة)، تأليف خير الدين الأسدي، وتحقيق محمد كمال، الجزء السابع، الصفحة (40).

2. سعد زغلول الكواكبي: هو حفيد العلامة والمفكر عبد الرحمن الكواكبي صاحب كتابي (طبائع الاستبداد وأم القرى)، ولد في حلب عام (1924)، نشأ في مدارسها وتخرج في كلية الحقوق بجامعة دمشق عام (1950)، ترأس محكمة الاستئناف في حلب بين عامي (1952-1984)، له حضور واسع في الشأن العام، ونشاط لافت في مجال التاريخ والتراث والأدب، كما ترأس جمعية العاديات بين عامي (1973-1987)، وله العديد من الكتب، أهمها (السيرة الذاتيّة لعبد الرحمن الكواكبي، وذكريات من ماضي حلب)، انتقل إلى جوار ربه في عام (2013)

3. ساحة سعد الله الجابري: هي الساحة الرئيسة في حلب، تقع في قلب المدينة بجوار الحديقة العامة، يقام فيها معظم الاحتفالات

والمهرجانات وأهمها مهرجان القطن. استمدت اسمها من اسم المناضل الوطني الكبير سعد الله الجابري، وهو أحد أهم الزعماء الذين أعادوا توحيد سورية بعد أن قسمها الفرنسيون إلى دويلات.

4. فندق بارون: فندق تاريخي عريق، يقع بالقرب من المتحف الوطني، يزيد عمره عن قرن من الزمان. أنشأه الأخوان مظلوميان بين عاميّ (1906-1911)، كان يطلق على الشارع الذي يقع فيه الفندق قبل الاستقلال شارع غورو، ولدور الفندق الوطنيّ أصبح اسمه في عام (1946) شارع بارون، وهو موجود في منطقة تعجّ بالحركة والفخامة في مركز مدينة تعدّ بوابة الشرق، وملتقى للطرق، والتجار، والسياح القادمين من الشرق والغرب. استقبل الفندق العديد من المشاهير، والملوك، والرؤساء، والأمراء، والنبلاء، منهم: الرئيس جمال عبد الناصر، شاه إيران، مصطفى كمال أتاتورك مؤسس تركيّا الحديثة، الشيخ زايد بن سلطان آل نهيّان مؤسس دولة الإمارات العربيّة المتحدة، الرئيس الفرنسي شارل ديغول، لورانس العرب، وأقامت الكاتبة أغاتا كريستي مع زوجها عالم الآثار في الغرفة (213)، وأنجزت خلالها بعضاً من فصول روايتها الشهيرة (جريمة في قطار الشرق السريع)، إضافة إلى أول رائد فضاء في العالم يوري غاغارين، وغيرهم كثيرون.

5. بستان الكلاب: (يلفظها العامة بستان كليب)، منطقة في وسط المدينة، تقع بين ساحة باب الفرج وشارع بارون، وتسميته فيها ثلاثة مذاهب:

أ. إنّ الكلاب عربيّة جمع كلب.

ب. إنّ أصلها (گُل) كلمة تركية تلفظ كافها جيماً مصريّة ومعناها الورد، و(آب) كلمة فارسيّة بمعنى الماء، فمؤدى التركيب ماء الورد، سُميّ بذلك لأنه كان يزرع فيه الورد ويُقطّر.

ج. إنّ أصلها (كُل أبا) الكلمتان السريانيتان، بمعنى كل الثمر أو كل الفاكهة. جاء في إعلام النبلاء، الجزء (3) الصفحة (471): بستان الكلاب: كان هذا المكان مخوفاً، يُخشى على من مرّ منه وحده أن تُؤخذ عنه ثيابه. تقوم حالياً في بستان الكلاب: المطاعم، والفنادق، والملاهي الليليّة، والمحلات التجاريّة.

انظر كتاب أحياء حلب وأسواقها، تأليف خير الدين الأسدي، وتحقيق عبد الفتاح روّاس قلعةجي، الصفحة (135).

6. الأرتيستات: جمع أرتيست: من الفرنسية: ARTISTE : الفنان، الممثّل، المغنّي، الرقّاص، ذكراً كان، أو أنثى، وكثر في عرفنا إطلاقه على الأنثى، وتحديداً الغانيات منهن والراقصات اللاتي يعملْن في الملاهي الليليّة والكباريهات.

انظر موسوعة حلب (المقارنة)، تأليف خير الدين الأسدي، وتحقيق محمد كمال، الجزء الأول، الصفحة (101).

الفصل الثالث

أمثال حلبيّة

رغم أنّ معظم الأمثال العاميّة التي لها علاقة بصورة أو بأخرى بظاهرة الدّعارة وبالعاملات فيه تزخر بالإيحاءات والتلميحات التي يلامس أغلبها حدود الحرج واللباقة فإنني وجدت من باب الإحاطة والأمانة البحثيّة أن نعرضها في هذا الكتاب، والطريف في الأمر أنها متداولة على نطاق واسع بين أهالي المدينة، وتروى دون تفكير مسبق أسوة بالأمثال العاميّة الأخرى، وذلك تبعاً للمواقف الآنيّة والأحداث اليوميّة.

من الأقوال المأثورة عند أهالي حلب عبارة (قحبة برخصة)، وهي صفة على شكل شتيمة.

يريدون بها تشبيه الشخص الذي يأتي بناقصة أو إساءة دون أن تبدو عليه مظاهر الحرج أو الخجل بداعرات المنزول اللائي يجاهرن بفحشهنّ دون حياء.

ثمّة أمثال حلبيّة طريفة أيضاً منها: (حظه حظ شراميط).

يريدون به نعت الشخص الذي يظفر بالمال أو الجاه فجأة دون عناء أو ذكاء بتلك الفئة من الفتيات، غير أنني لم أجد تفسيراً مقنعاً لهذا القول، وأعتقد أنّ تشبيه المحظوظ بالمومسات ناجم عن أنهنّ يكسبّن المال الوافر بسهولة دون بذل أدنى جهد أو تعب.

من الأمثال الحلبيّة ذات الدلالات العميقة:

شغلتين ما بينْحَسْ عليهم: موت الفقير، وتعريص الزنغيل.

والمثل الشهير ذو المعنى البليغ:

الدفع قبل الرفع.

ثمّة أمثال حلبيّة لها علاقة ببحثنا، منها:

هالزلمة رزقتو قليلة متل شخاخة المعقب.

ومنها: أقوى من بائعات الزهر.

يريدون به تشبيه الشخص الذي تغلب عليه طِباع الشراشة والهيمنة الفاجرة بالعاهرات الهرمات اللاتي امتهنّ بيع الزهور في الأماكن العامة إثر إغلاق المحل العمومي.

ومنها: بالفلوس أكبر غرّة بتبوس.

من كلام أهالي حلب:

زلمة ساقط، كلامو ساقط، سقط مقداره بين الناس.

من أمثالهم: لا ساقطة إلّا وراءها لاقطة.

أيضاً: لكل ساقطة لاقطة.

من تهكمات أهالي حلب:

على شراميطا غنّاجة، أو على شراطيطا.

شرموط على مرموط: ما وردْ على صنان.

من أمثالهم:

ثلاثة بنخاف منهم: شوفير، وشرطي، وشرموطة.

من تشبيهات أهالي حلب: فلان مقْلو مقْل الشْلكّات.

من أمثالهم: الفاجر هجرو ولا فَجرو.

من تهكماتهم: دموع الفاجْرات عالخدود حاضْرات.

من أمثال أهالي حلب:

القَحْبة لا تعاديّا، والأكلة الطيبة طعميّا.

القَحْبة لا تعاديّا بتقيم اللي فيك وبتحطّ اللي فيّا.

من تشبيهات أهالي حلب:

عينو متل عين القحبة، أو الشلكّة.

القَحْبة إذا تابت بتتناوق من الدراخيش.

من كلام أهل حلب: فلان سَكْري زَنَوي.

من حكمهم:

ابن الحرام مو اللي زنت أمّو فيه، ابن الحرام اللي يضيع الجميل فيه.

من عاشر أولاد الزنا هسبت ما بندم.

التمقمق خير من الزنا.

من أمثالهم:

الزَنَوي بخاف على حلالو، والحرامي بخاف عمالو.

من تهكمات أهل حلب:

بزقوا في وجه العرسوز، قالن: هي مطرة تموز.

من شتائم أهل حلب:

فلان كوّاد، لا يا كوّاد يا ابن الكوّاد.

من سبابهم البريء:

أخو الحدّافة يستعاض بها عن أن يقال: أخو الزانية، أو أخو...، إلخ.

***

الفصل الرابع

أسماء وألقاب

في هذا الفصل سنعرض الأسماء والأوصاف والألقاب المتداولة في مدينة حلب لكلٍ من القوّادة، والمومس، والقوّاد، وما أصل كل تسمية وما دلالات هذه الأوصاف والألقاب، وسنبدأ بالقوّادة ثم المومس ونختتم بالقوّاد، وقد تم ترتيب الأسماء في الفروع الثلاثة وفق الأحرف الأبجديّة إذ لا يوجد صفة أهم من الأخرى، وغالباً ما يستخدم العامة هذه المسميات دوت تفكير مسبق فهي تخرج من الأفواه تبعاً للموقف أو الحادثة أو المكان إلخ.

* * *

أولاً: القوّادات

1- الأمّاية

الأمّاية: صفة مشتقة من اسم الأم.

وجمعها: أمّايات.

وهي صفة أخرى للقوّادة.

تُطلق على من تشرف على تشغيل مجموعة من الدّاعرات.

2- البترونة[1]

البترونة: وهي القوّادة أخذت من الإيطاليّة (padrona).

تعني صاحب بيت أو دكان وتستخدم مؤنثة ويراد بها صاحبة ماخور.

تسهل العلاقة بين الراغب والراغبة.

3- التاجرة

التاجر: من العربيّة: من يتعاطى التجارة.

والجمع: التجّار.

ومؤنثه: تاجرة.

وجمعه: تاجرات.

أطلقوها على من تتاجر بجسدها مقابل المال أو بجسد الأخريات، وهذا اللقب ينطبق على القوّادة والمومس في آن واحد.

4- القوّادة[2]

القوّادة: جمعها: قوّادات.

تلفظ في حلب (الكوّادة)، وهي مؤنث (الكوّاد)، وقد تم تحريفها عن العربيّة (القوّاد).

جمع كوّادة: كوّادات.

أطلقوها على التي تسهل الصلة بين الراغب والراغبة بشكل عام.

تدير شبكات الدّعارة وتهيمن على العاملات فيه.

* * *

1. البترونة: انظر موسوعة حلب (المقارنة)، تأليف خير الدين الأسدي، المجلد الثاني، الصفحة (53).

2. القوّادة: المصدر نفسه، المجلد الرابع، الصفحة (447).

ثانياً: المومسات

1- بائعات الهوى

بائعات الهوى: بائعات الحب مقابل المال.

تركيب شائع أطلقوه على الفتيات اللواتي يمارسّن مهنة الجنس المأجور، يريدون بها أنّ النشوة هي قمة الحب.

2- البغي

بَغَى: فلان بَغْياً.

الباغي: الظالم، المُسْتَغْلِ: تجاوز الحدّ واعتدى وتسلّط وظلم.

المرأة: بِغاء: فَجَرت، وتكسّبت بفجورها فهي بَغي.

3- بنات الكار

بنات الكار: العمل بالفارسيّة، وهو تركيب غربي أطلقوه على الفتيات اللواتي يعشقّن أو يعشّن مع لذائذهنّ أو يحترفّن تقديم أجسادهنّ، يرادفها: بنات الهوى.

4- بنات الليل

بنات الليل: أطلقوها على الفتيات اللواتي احترفن بيع أجسادهن مقابل النقود في الملاهي والطرقات بعد منتصف الليل نظراً لأنه يخفي كثيراً من العيوب.

5- بنات الهوى

بنات الهوى: تركيب غربي أطلقوه على الفتيات اللواتي يعشقّن أو يعشّن مع لذائذهنّ أو يحترفّن تقديم أجسادهنّ، يرادفها: بنات الكار.

6- الحجيّة

الحجّيّة: صفة مشتقّة من كلمة الحاجّة.

وجمع الحجيّة: الحجيّات.

أطلقوها في الريف على محترفات الرقص، يؤتى بهن للأعراس فيرقصّن والأركيلة فوق رؤوسهنّ.

ليس بالضرورة على الإطلاق أن تمارس الحجيّة مهنة الدّعارة.

7- الخليلة

الخليلة: مؤنث الخليل بالعربيّة.

وجمعها: الخليلات.

الخليلة: اصطلح ديوان الشرطة أن يسمي المومس التي ترتبط ارتباطاً وديّاً فقط بالخليلة، وهذا لا يترتب عليه مسؤولية إذا لم يخلّا بالأداب العامة.

والسائد أنّ الحلبيين يسمونها بالكلمة العربيّة (الصاحبة)، أو بالكلمة الفرنسيّة (المترس).

8- الخوجة[1]

الخوجة: يطلقونها في حلب على معنيين:

1- الشيخة التي تعلّم القرآن.

2- رئيسة جوقة الغناء والطرب، ومجازاً: جوقة الغناء والطّرب كلها.

ليس بالضرورة على الإطلاق أن تمارس الخوجة مهنة الدّعارة.

9- الدّاعرة

الدّاعرة: مؤنث دَاعر، ودَعّار.

دَعَرَ: دَعَارة: فَسَدَ وفَسَقَ، فهو دَاعر ودعّار.

الدّعارة: من مفردات الثاقفين.

بالعربيّة: الفُسق، الفساد، الفجور، وسوء الخلق.

والجمع: الدّاعرات، والدَعّارات.

10- الزانية[2]

زَنَى: عربيّة: وطئ من لا تحل له شرعاً.

والمصدر: الزِنى، والزناء.

الزاني: جمعه: زناة.

الزانية: مؤنث الزاني.

وجمعه: الزواني، والزانيات.

الزانية: كل أنثى تمارس الجنس من غير عقد شرعي.

11- الساقطة[3]

الساقطة: سقط: من العربيّة.

سقط من عيني أو من منزلته: انحطّ قدره.

الساقط، أو الساقطة: اسم الفاعل من سَقَط.

يقولون: إنسان ساقط (أي: سقوط مجازي بأن كان حقيراً لئيماً لا يعرف الكرامة).

من كلام أهالي حلب:

زلة ساقط، كلامو ساقط، سقط مقداره بين الناس.

من أمثالهم:

لا ساقطة إلّا وراءها لاقطة.

لكل ساقطة لاقطة.

12- الشرموطة[4]

الشرموط: يطلقونها على من يأتي الفاحشة بابتذال (أتساءل هنا متدخلاً على ما جاء في شرح هذه الصفة: هل ثمّة من يأتي الفاحشة برصانة واحترام)؟ وفي أصلها المذاهب التالية:

1- بنوها على فعمول من شَرطَ بمعنى مَزّق، مراداً بها أنّ عرضه ممزّق، أو أنه حقير كالجزمة الممزقة.

2- أنها من فعل (اثر نمط) السقا. بالعربي: انتفخ، وهو مذهب الدكتور أحمد عيسى.

3- أنّ أصل الشرموط (القعموط)، بالعربيّة: الخرقة الطويلة يلف فيها الصبي.

4- أنّ أصل الشرموط (سرموزة): بالفارسيّة: نوع من الأحذية سُميت به العاهرة.

ويدانيها بالفرنسيّة: (CHARMANTE): الجذابة.

وفي لهجة شمال المغرب: الشُرويط: الخرقة البالية.

وفي العبريّة: سمَرْطوط: بالسين المهملة: الخرقة.

ومؤنث الشرموط: الشَرموطة، وجمع الشرموطة: الشراميط، والشرموطات، وبنوا عليها فعل: شَرْمط.

من تهكمات أهالي حلب:

على شراميطا غنّاجة (أو على شراطيطا).

شرموط على مرموط: ما وردْ على صنان.

في القانون السوري نجد أنه يطلق صفة الشرموطة على كل أنثى تمارس الجنس مقابل المال.

13- الشْلكّة[5]

الشْلكّة: من التركيّة: شيِلّق: المومس، والجمع الشْلكّات.

وقد يسمون المذكّر الذي يزاول عمل الأنثى: الشْلكّ.

ويداني الشْلكّة في لهجة تطوان: التَشنك بمعنى الزانية، وأصلها بمعنى الخرقة البالية.

ومن تشبيهات أهالي حلب: فلان مقْلو مقْل الشْلكّات.

الشلكّات المغرّقة: من أكلات أهل حلب استمدوها من الشام، وحمص، وحماة: القطايف الصغار تلتّ بالسمن والدبس وهي على النار، سُميت على التشبيه بالشلكّة بجامع اللّذّة، وسهولة الاتخاذ، ومغرّقة، أيّ: مغرّقة بالسمن والدبس أو القطر.

ومصر تقول في مسبّاتها: يابن المرا، يريدون: يابن المُومِس.

14- الصاحبة

الصاحبة: من العربيّة.

الصاحبة: مؤنث الصاحب، وهم أطلقوها أيضاً على المرأة التي تصحب الرجل دون عقد شرعيّ.

ومن هَنْهونات أهالي حلب:

فــــتح عينــــك وانظـــرا   وشــوف أحمـرا مـن أصـفرا

وإن كان لك صاحب اتركوا   وإن كان لك صاحبة اهجرا

15- العاهرة

عَهَرَ: من العربيّة، عُهُوراً، فَجَرَ.

العَاهر: الزاني، وهي عاهِرَة.

العهْر: من مفردات الثاقفين.

من العربيّة: العَهْر، والعِهْر: مصدرا عهَر المرأة.

وبها، وإليها: أتاها ليلاً للفجور، ثم أطلقت.

16- الغانية

غَنَى فلان: غِنى وغناء: كثر ماله.

الغِناء: التطريب والترنّم بالكلام الموزون وغيره، يكون مصحوباً بالموسيقى وغير مصحوب بها.

المُغَنّي: محترف الغناء.

المُغَنّية: محترفة الغناء.

الغانية: المرأة الغنيةُ بحُسنها وجمالها عن الزينة.

وتجمع على: غَوانٍ، وغانيات.

امرأة غانية: مومس، بائعة هوى.

الغانية: راقصة تعمل في الملاهي الليليّة.

17 - الغاوية

غَوَى: غَيّا، وغَوَايَة، أدمن في الضلال.

فهو غاوٍ، وغَوِيٌّ، وتجمع على: غُوَاة.

وهي: غَاوية، وتجمع على: غَاويات.

18- الفاجرة(6)

الفاجرة: فَجَرَ: من العربيّة، فَجْراً، وفُجُوراً.

الفاجر: المنقاد للمعاصي غير المكترث، الزاني، ويستعملونها لبذيء اللسان أيضاً.

وفي يمينه: كَذَبٌ، وفلانٌ عن الحَقّ: عَدَلَ.

الفاجر: الفاسق غير المكترث، ويقال: يمينٌ فاجرةٌ: كاذبة.

وجمع الفاجر: الفُجّار، وفَجَرَة.

ومؤنثه: الفَاجرة، وجمعه: الفاجرات.

وبنوا منه الصفة المشبهة: الفَجْران، ومؤنثه: الفَجْرانة.

من أمثالهم: الفاجر هجرو ولا فَجرو.

من تهكماتهم: دموع الفاجْرات عالخدود حاضْرات.

19 - الفاسقة

فَسَقَ: من العربية.

فَسَقَ فلان: عَصَى وجَاوَزَ حدود الشرع.

ويقال: فَسَقَ عن أمر ربه: خرج عن طاعته.

فهو فَاسق، وهي فَاسقة.

وتجمع: على فَسَقَة، وفُسّاق.

20- القحبة

قَحَبَ الجملُ أو الفَرَسُ قَحباً، وقُحاباً: سَعَلَ الجملُ.

قَاحَبَتِ المرأةُ: كانت بَغيّاً.

القَحْبَة: البَغيّ، وتجمع: قِحاب.

ومن أمثال أهالي حلب:

القَحْبة لا تعاديّا، والأكلة الطيبة طعميّا.

القَحْبة لا تعاديّا، بتقيم اللّيّ فيك وبتحط اللي فيّا.

ومن تشبيهات أهالي حلب:

عينو متل عين القحبة (أو الشلكّة).

القَحْبة إذا تابت بتتناوق من الدراخيش.

في القانون السوري يطلق صفة القحبة عل كل سيدة تمارس الجنس خارج إطار مؤسسة الزواج دون أن تتلقى أجراً عليه.

21- المُومِس[7]

المُومس: من العربيّة: المُومِس والمُومِسة: المرأة الزانية، المجاهرة بالفجور، والجمع: مومِسات.

ويقولون: مومسات عن اللاتينيّة (MIMUS أو MIMAS): الممثلة في الروايات الهزليّة عند الرومان، ثم استعملت في المرأة التي

تتعاطى الفحشاء، يستعملها الثاقفون ودوائر الشرطة، والعدليّة، أما الشعب فيسميها قحبة.

* * *

في لغتنا العربية الجميلة

جدير بنا أن نشير هنا إلى ما ورد ذكره في المجلد الثالث في لسان العرب عن معنى كلمتي القحبة والشرموطة:

من هي القحبة؟

يقال في اللغة العربية: قحباء، وهي الهضبة المنكوسة قمتها، التي اعتاد العرب على عبورها لاختصار مسافات الأسفار لوعورة طرق السفر!!

فيقال لمن يحالفه الحظ: كالقحباء في وسط الصحراء.

أمّا من يقطنون خلف تلك الهضاب فكان يطلق عليهم: أبناء القحباء.

قال ابن الأضرمين يمتدح نفسه:

أنا ابن القحباء رامق العينين   يلوح في وجنتي مهند قتّال

أمّا نساء من يقطنون خلف تلك الهضاب، فكُنّ مضرب مثل بحسنهنّ وجمالهنّ، فكُنّ يلقبن بالقحاب، ومفردهنّ قحبة.

ومن هي الشرموطة؟

وأمّا عند البادية فقد كان يقال للزهرة الحمراء المتفتحة: الشرمطاء، ويقال لمن تُلوّن شفاهها باللون الأحمر: شرمطاء الشفاه، أو تشرمط شفاهها.

أمّا صانعة اللون الأحمر التي تصنع أحمر الشفاه، وتبيعه للنساء فكان يطلق عليها، **شرموطة**، أو شريمطة.

وقد قيل: تشرمط لتجد قوت يومها، ويعني تبيع أحمر الشفاه لتعتاش.

وقال الشاعر الأموي قيس ابن ذريح:

هنا وقفنا والشفاه مواجدُ

أين البسالة وأين سيفي الباشقُ

شرموطة أسرت بلونها النواجدُ

لولا الهوى ما ذل في الأرض عاشقُ

غير أن بعض الجهلاء جعلوا هذه الكلمات الرائعة سبّاً وقذفاً وشتماً!

* * *

1. الخوجة: انظر موسوعة حلب المقارنة، تأليف خير الدين الأسدي، وتحقيق محمد كمال، المجلد الثالث، الصفحة (367).

2. الزانية: المصدر نفسه، المجلد الرابع، الصفحة (259).

3. الساقطة: المصدر نفسه، المجلد الرابع، الصفحة (298)، والصفحة (361).

4. الشرموطة: المصدر نفسه، المجلد الخامس، الصفحة (54).

5. الشلكّة: المصدر نفسه، المجلد الخامس، الصفحة (87).

6. الفاجرة: المصدر نفسه، المجلد السادس، الصفحة (233).

7. المومس: المصدر نفسه، المجلد السابع، الصفحة (233).

ثالثاً: القوّادون

1- أبو قرون

أبو قرون: صفة تطلق على الأشخاص الذين لا يبالون حين يمارس أهله الجنس دون عقد شرعي سواء بعلمه، أو بغير علمه، فيقولون: طلعلو قرون.

يريدون بها تشبيهه بذكر بعض الحيوانات الذي لا يكترث حين يجامع ذكرٌ آخر أنثاه.

2- البَزَوْنك[1]

من التركيّة: بَزَوَنك.

عن الفارسيّة: بزه ماد.

وتعني القوّاد: وهي من سباب أهل حلب.

3- الديّوث

الديّوث: من الرجال: من لا يغار على أهله.

الديّوث: من العربيّة، تحرف في لهجة أهل حلب، فتصبح: الديّوس.

دَيّثَ (الحيوان ولإنسان): ذلّله حتى لان وسَهُل وانقاد.

هي صفة تطلق على الأشخاص الذين يغضّون البصر، ولا يشعرون بالخجل، أو الحرج حين تبادر إحدى نساء أسرهم إلى ممارسة الجنس مع الآخرين سواء أكان مأجوراً، أو غير مأجور.

ألعنهم من يقود على أهله، ويشرف بنفسه على تشغيل زوجته، أو بناته في مهنة الدّعارة.

4- الزاني[2]

زَنَى: عربيّة: وطئ من لا تحل له شرعاً.

والمصدر: الزِنى، والزناء.

الزاني: جمعه: زناة.

الزانية: مؤنث الزاني.

وجمعه: الزواني، والزانيات.

الزَّنّا: يستعملونها بمعنى الزاني المفرط في الزِنا.

من كلام أهل حلب: فلان سَكْري زَنَوي.

من حكمهم: ابن الحرام مو إللي زنت أمّو فيه، ابن الحرام إللي يضيع الجميل فيه.

من عاشر أولاد الزنا هسبت ما بندم.

التمقمق خير من الزنا.

من أمثالهم: الزَنَوي بخاف على حلالو، والحرامي بخاف عمالو.

من سبابهم البريء: أخو الحدّافة، يستعاض بها عن أن يقال: أخو الزانية، أو أخو ....، إلخ.

5- السيفونجي

السيفونجي: بمقام الصاحب.

وجمعه: السيفونجيّة.

6- العكروت[3]

العكْروت: من التركيّة: عن اليونانيّة أكروت: KERATOS

أكروت: القوّاد، وهو الذي يسهل الصلة بين الراغب والراغبة، ويستعملها أهالي حلب مجازاً في من يرون أنه يستحق لقباً ذميماً.

من أقوالهم: ابني الزغير ما عم يسمع لي كلمة هالعكروت.

وجمعوها على: العكاريت.

وجعلوا مؤنثه: العكْروتة.

وجمعوه على: العكْروتات.

ويقولون: فلان ما في أعكْرت منه: فيبنون منه اسم التفضيل.

ويقولون عم بعكُرت: بنوا منه الفعل.

ويقولون في مصدره: العكُرتة.

واسم فاعله: المعكُرت، والمعكُرتة.

وبنوا من عكُرت: تْعكُرت للمطاوعة.

ومصدر تْعكُرت: التعكُرت.

7- القوّاد[4]

القوّاد: من العربيّة، تُحرف في لهجة حلب فتصبح: الكوّاد.

جمعوها على الكوّادين.

قد يقولون كالعراقيين: الكواويد.

مؤنثه: كوّادة.

وجمعوه على: الكوّادات.

وهو من يقود الفحشاء، سمسار الفحشاء، من يسهل الصلة بين الراغب والراغبة.

من شتائم أهل حلب: فلان كوّاد، لا يا كوّاد يا ابن الكوّاد.

* * *

1. *البَزونك: انظر موسوعة حلب المقارنة، تأليف خير الدين الأسدي، وتحقيق محمد كمال، المجلد الثاني، الصفحة (108).*
2. *الزاني: المصدر نفسه، المجلد الرابع، الصفحة (259).*
3. *العكروت: المصدر نفسه، المجلد الخامس، الصفحة (425).*
4. *القوّاد: المصدر نفسه، المجلد السادس، الصفحة (447).*

الفصل الخامس

شعر

1- قصيدة المبغى.. للشاعر نزار قباني

كما أشرت سابقاً لم يقترب أغلب الباحثون والأدباء العرب من ظاهرة الدّعارة إذ إنها تعدّ أحد أضلاع مثلث المحظورات والمحرمات المهيمن على الثقافة الجمعيّة في عموم مجتمعات البلدان العربيّة.

ومن خلال جولات البحث والتقصي في عالم هذا القطاع وجدت قصيدة للشاعر الكبير نزار قباني ترصد هذه الشريحة من المجتمع، وما دفعني لضمها إلى مواضيع هذا الكتاب أمران، أولهما تقديراً لقامته الأدبيّة التي أعتقد أنها لن تتكرر قبل مرور شطر طويل من الزمن، وثانيهما وهو الأهم أنّ القصيدة تناولت الظاهرة بحياديّة تامة ورؤية إنسانيّة قلّ نظيرها.

* * *

المبغى

علّقت في بابها قنديل
نازف الشريان محمرّ الفتيلة
في زقاق ضوّأت أوكاره
كل بيت فيه.. مأساة طويلة
غرف.. ضيّقةٌ.. موبوءةٌ
وعناوين (لماري) و (جميلة)
وبمقهى.. الحي حاكي هرم
راح يجتر أغانيه الذليلة
* * *
وعجوز خلف نرجيلتها
عمرها أقدم من عمر الرذيلة
أنها آمرة البيت هنا
تَشتِم الكسلى.. وتسترضي العجولة
وأمام الباب صعلوكُ هوى
تافهُ الهيئة.. مسلوبُ الفضيلة
يعرض اللحم على قاضمه
مثلما يعرض سمسار خيوله
هذه.. جاءت حديثاً سيدي
ناهدٌ ما زال في طور الطفولة
أو إذا شئت.. فرافق هذه
إنها أشهى من الخمر الأصيلة
تحت شاربها بأوراقَ ضئيلة

قيمة الإنسان ما أحقرها
زعموه غاية.. وهو وسيلة
* * *
لو ترى الردهة فيها اضّطجعت
كل بنت كانفتاح الزهرة
نهدها منتظر جزّاره
صابر حتى يلاقي قدره
هذه المذهبةُ السن.. هنا
ترقب الباب بعين حذرة
حسرت عن ركبة شاحبةٍ
لونها لون الحياة المنكرة
من سيأتي؟.. من سيأتي معها؟
أي صعلوكٍ حقير نكرة؟
وهناك انفردت واحدة
عطرها أرخص من أن أذكره
حاجب بولغ في تخطيطه
وطلاء كجدار المقبرة
وفم متسع.. متسع
كغلاف التينة المعتصرة
* * *
الفضوليّون.. من خلف الكوى
أعين، جائعة، مستعرة
وشجار دائر في منزل
وسكارى.. ونكات قذرة

من رآهنّ قوارير الهوى
كنعاج بانتظار المجزرة
كم صبايا مثل ألوان الضحى
أفسدتهنّ عجوز خطرة
* * *
هذه المجدورة الوجه انزوت
كوباء.. كبعير نتن
أخرجت ساقاً لها معروقة
مثل ميّت خارج من كفن
حفرٌ في وجهها مرعبة
تركتها عجلات الزمن
نهدها حبة تين نشفت
رحم الله زمان اللبن
فالعصافير التي كانت هنا
تتغذّى بالشذا والسوسن
كلّها طارت بعيداً عندما
لم يعد في الأرض غير الدّمن
إنها الخمسون.. ماذا بعدها؟
غير أمطار الشتاء المحزن
إنها الخمسون.. ماذا ظلّ لي؟
غير هذا الوحل.. هذا العفن
غير هذي الكأس أستهلكها
غير هذا التبغ يستهلكني
غير تاريخ مدمّى حيثما
سرت.. ألقى ظلّه يتبعني

غير أقدام الخطايا.. رجعت
تحرق الغرفة بي.. تحرقني
غير رب كنت لا أعرفه
وأراه الآن لا يعرفني

* * *

يا لصوص اللحم.. يا تجّارهُ
هكذا لحم السبايا يؤكل
منذ أن كان على الأرض الهوى
أنتم الذئب.. ونحن الحمل
نحن آلات هوى مجهدةٌ
تفعل الحب.. ولا تنفعلُ
انبشوا في جثث فاسدة
سارق الأكفان لا يختجلُ
وارقصوا فوق نهود صلبت
مات فيها النور.. مات المخملُ
من أنا؟.. إحدى خطاياكم أنا
نعجة في دمكم تغتسلُ
أشتهي الأسرة والطفل وأن
يحتويني مثل غيري.. منزلُ
أرجموني.. سدّدوا أحجاركم
كلكم يوم سقوطي.. بطلُ
يا قادتي.. يا رماتي.. أنكم
أنكم أجبن من أن تعدلوا
لن تخيفوني.. ففي شرعتكم

ينصر الباغي.. ويرمى الأعزلُ

تسأل الأنثى إذا تزني.. وكم

مجرم دامي الزنا.. لا يسألُ

وسرير واحد.. ضمهما

تسقط البنت.. ويحمى الرجلُ

* * *

2- قصيدة من التراث

نسبة إلى هَوس العرب بالجنس فقد استعملوه في الهجاء، كما قال الشاعر جرير حين هجا أم الشاعر الفرزدق.

عجوز قد زنت ستين عاماً   وقادت بعد ذلك أربعينا

وتابت واشترت جدياً وعنزة   لتنظر لذة المتناكحينا

* * *

3- قصيدة المومس العمياء

نشير فقط إلى هذه القصيدة الرائعة والمعبّرة عن الألم والظلم الإنساني، وهي إحدى أطول قصائد الشاعر بدر شاكر السياب كتبها عام (1954)، وهي تعرض من خلال قصة خلقها الشاعر، بطلتُها مومس امتد بها العمر فأصبحت عمياء غير مرغوب فيها، تعرض مشاهد من البؤس البشري والعري الأخلاقي للمجتمع الحديث.

وظني أنها قصيدة رمزيّة وطنيّة أكثر من كونها قصيدة تتحدث عن البغاء والدّعارة.

* * *

الفصل السادس

الرأي القانوني

مرحلة الحكم العثماني (1898 – 1920)

لقد أشرنا في بداية هذا الكتاب إلى أن ثمّة شحاً وندرة في المعلومات والمصادر التي أولت الاهتمام بظاهرة الدّعارة بما فيها المراجع والكتب التي ذكرت الفرمان الصادر عن الدولة العثمانيّة في عام (1898) والذي سمح بفتح بيوت الفحش والبغاء على نحو مرخص في مدن السلطنة جميعها، وبالتالي لم تتوافر لدينا تفاصيل وافية عن هذا القانون لا سيما الإجرائيّة منها سوى ما أوردناه من أخبار وتفاصيل وشواهد في سياق حديثنا عن المراحل المتعاقبة التي مر بها قطاع الدّعارة منذ صدور هذا القانون.

مرحلة الاستعمار الفرنسي (1920 - 1946)

في زمن الانتداب الفرنسي أصدرت السلطات المحليّة قانوناً ينظم مهنة البغاء بتاريخ (1933/6/14) كما صدر لاحقاً تعديل لهذا القانون بالمرسوم التشريعي رقم (112) بتاريخ (1935/3/21) وللأسف لا تتوافر النصوص الكاملة لهذا القانون ولا لتعديله أيضاً.

مرحلة الاستقلال (1946 - 1974)

في مرحلة الاستقلال وتشكل الدولة السوريّة الحديثة ينبغي لنا أن نميز بين فترتين، الأولى وهي كما رأينا سابقاً تبدأ من عام (1946) وتنتهي في عام (1961) مع صدور القانون رقم (10) إبان الوحدة بين مصر وسوريّة، والثانية تبدأ من عام (1961) وتستمر حتى تاريخ إغلاق المحل العمومي نهائيّاً في عام (1974).

الفترة الأولى (1946 – 1961)

صدر في هذه الفترة قانون العقوبات السوري العام بالمرسوم التشريعي رقم (148) وتحديداً بتاريخ (1949/06/22) ولم يتطرق في مواده القانونيّة إلى موضوع الدّعارة، وبالتالي بوسعنا الخلوص إلى أنّ قانون البغاء وتعديله اللذين صدرا في الثلاثينيّات من القرن العشرين ما يزالان ساريين ومعتمدين في هذه المرحلة.

الفترة الثانية (1961 - 1974)

أصدر الرئيس (جمال عبد الناصر) القانون رقم (10) في (1961/03/08) بصفته رئيساً للجمهوريّة العربيّة المتحدة تحت اسم قانون مكافحة الدّعارة، وقد قضى هذا القانون بإلغاء البغاء العلني وإغلاق دور الدّعارة المرخصة في القطرين المصري والسوري.

وقد نص القانون على ما يلي:

القانون رقم(10) لعام (1961) مكافحة الدّعارة

باسم الأمّة

رئيس الجمهوريّة

بعد الاطّلاع على الدستور المؤقت.

وعلى قانون البغاء الصادر في الإقليم السوري بتاريخ (1933/6/14) والمعدل بالمرسوم التشريعي رقم (112) بتاريخ (1935/3/21).

وعلى المرسوم التشريعي رقم (148) الصادر بتاريخ (1949/6/22) بشأن قانون العقوبات العام في الإقليم السوري وتعديلاته.

وعلى القانون رقم (68) الصادر في عام (1951) بشأن مكافحة الدّعارة في الإقليم الجنوبي.

وعلى ما ارتآه مجلس الدولة.

قرر القانون الآتي:

المادة (1)

(أ)- كل من حرّض شخصاً ذكراً كان أو أنثى على ارتكاب الفجور أو الدّعارة أو ساعده على ذلك أو سهله له وكذلك كل من استخدمه أو استدرجه أو أغواه بقصد ارتكاب الفجور أو الدّعارة، يعاقب بالحبس مدة لا تقل عن سنة ولا تزيد عن ثلاث سنوات، وبغرامة ماليّة من مائة جنيه إلى ثلاثمائة جنيه في الإقليم المصري، ومن ألف ليرة الى ثلاثة آلاف ليرة في الإقليم السوري.

(ب)- إذا كان من وقعت عليه الجريمة لم يتم من العمر الواحدة والعشرين سنة ميلاديّة، يعاقب بالحبس مدة لا تقل عن سنة ولا تزيد عن خمس سنوات، وبغرامة ماليّة من مائة جنيه إلى خمسمائة جنيه في الإقليم المصري، ومن ألف ليرة إلى خمسة آلاف ليرة في الإقليم السوري.

المادة (2)

يُحكم بالعقوبة المقررة في الفقرة (ب) من المادة السابقة:

(أ)- كل من استخدم أو استدرج أو أغرى شخصاً ذكراً أو أنثى بقصد ارتكاب الفجور أو الدّعارة وذلك بالخداع أو بالقوة أو بالتهديد أو بإساءة استعمال السلطة أو غير ذلك من وسائل الإكراه.

(ب)- كل من استبقى بوسيلة من هذه الوسائل شخصاً ذكراً كان أو أنثى بغير رغبته في محل للفجور أو للدّعارة.

المادة (3)

كل من حرّض ذكراً لم يتم من العمر الحادية والعشرين سنة ميلاديّة أو أنثى أيّاً كان سنّها على مغادرة الجمهوريّة العربيّة المتحدة أو سهّل له ذلك أو استخدامه أو اصطحابه معه خارجها للاشتغال بالفجور أو الدّعارة وكل من ساعد على ذلك مع علمه به، يعاقب بالحبس مدة لا تقل عن سنة ولا تزيد على خمس سنوات، وبغرامة ماليّة من مائة جنيه إلى خمسمائة جنيه في الإقليم المصري، ومن ألف ليرة إلى خمسة آلاف ليرة في الإقليم السوري.

ويكون الحد الأقصى للعقوبة الحبس سبع سنين إذا وقعت الجريمة على شخصين فأكثر أو إذا ارتكبت بوسيلة من الوسائل المشار إليها في الفقرة الأولى من المادة الثانية بخلاف الغرامة المقررة.

المادة (4)

في الأحوال المنصوص عليها في المواد الثلاث السابقة تكون عقوبة الحبس ثلاث سنوات إلى سبع سنوات إذا كان من وقعت عليه الجريمة لم يتم من العمر ست عشرة سنة ميلاديّة أو إذا كان الجاني من أصول المجني عليه أو من المتولين تربيته أو ملاحظته أو ممن لهم سلطة عليه أو كان خادماً بالأجر عنده أو عند من تقدم ذكرهم.

المادة (5)

كل من أدخل إلى الجمهوريّة العربيّة المتحدة شخصاً أو سهّل له دخولها لارتكاب الفجور أو الدّعارة، يعاقب بالحبس مدة لا تقل عن سنة ولا تزيد على خمس سنوات، وبغرامة ماليّة من مائة جنيه إلى خمسمائة جنيه في الإقليم المصري، ومن ألف ليرة إلى خمسة آلاف ليرة في الإقليم السوري.

المادة (6)

يعاقب بالحبس مدة لا تقل عن ستة أشهر ولا تزيد على ثلاث سنوات:

(أ)- كل من عاون أنثى على ممارسة الدّعارة ولو عن طريق الإنفاق المالي.

(ب)- كل من استغلّ بأيّة وسيلة شخصاً أو فجوره.

وتكون العقوبة الحبس من سنة الى خمس سنوات إذا اقترنت الجريمة بأحد الظرفين المشدّدين المنصوص عليهما في المادة الرابعة من هذا القانون.

المادة (7)

يعاقب على الشروع في الجرائم المبيّنة في المواد السابقة بالعقوبة المقررة بالجريمة في حال تمامها.

المادة (8)

كل من فتح أو أدار محلاً للفجور أو للدّعارة أو عاون بأيّة طريقة كانت في إدارته، يعاقب بالحبس مدة لا تقل عن سنة ولا تزيد على ثلاثة سنوات، وبغرامة ماليّة من مائة جنيه إلى ثلاثمائة جنيه في الإقليم المصري، ومن ألف ليرة إلى ثلاثة آلاف ليرة في الإقليم السوري.

ويحكم بإغلاق المحل ومصادرة الأمتعة والأثاث الموجود فيه.

واذا كان مرتكب الجريمة من أصول من يمارس الفجور أو الدّعارة أو المتولين تربيته أو ممن لهم سلطة عليه تكون عقوبة الحبس مدة لا تقل عن سنتين ولا تزيد على أربع سنوات بخلاف الغرامة المقررة.

المادة (9)

يعاقب بالحبس مدة لا تقل عن ثلاثة أشهر ولا تزيد على ثلاث سنوات، وبغرامة ماليّة من خمسة وعشرين جنيهاً إلى ثلاثمائة جنيهاً في الإقليم المصري، ومن مائتين وخمسين ليرة إلى ثلاثة آلاف ليرة في الإقليم السوري، أو بإحدى هاتين العقوبتين:

(أ)- من أجّر أو قدّم بأيّة صفة كانت منزلاً أو مكاناً يدار للفجور أو للدّعارة أو لسكنى شخص أو أكثر إذا كان يمارس فيه الفجور أو الدّعارة مع علمه بذلك.

(ب)- من يملك أو يدير منزلاً مفروشاً أو غرفاً مفروشة أو محلاً مفتوحاً للجمهور يسهّل عادة الفجور أو الدّعارة سواء بقبوله أشخاصاً يرتكبون ذلك أو بسماحه في محلّه بالتحريض على الفجور أو الدّعارة.

(ج)- من اعتاد ممارسة الفجور أو الدّعارة.

وعند ضبط الشخص في الحال الأخيرة يجوز إرساله إلى الكشف الطبي، فإذا تبيّن أنه مصاب بأحد الأمراض التناسليّة المعدية يُحجز في أحد المعاهد العلاجيّة حتى يتم شفاؤه.

ويجوز الحكم بوضع المحكوم عليه بعد إنقضاء مدة العقوبة في إصلاحيّة خاصة إلى أن تأمر الجهة الإداريّة بإخراجه، ويكون ذلك الحكم وجوبياً في حال العَود ولا يجوز إبقاؤه في الإصلاحيّه أكثر من ثلاث سنوات.

وفي الأحوال المنصوص عليها في البندين (أ) و(ب) يُحكم بإغلاق المحل مدة لا تزيد على ثلاثة شهور، وينفذ الإغلاق دون النظر لمعارضة الغير ولو كان حائزاً بموجب عقد صريح ثابت التاريخ.

المادة (10)

يعتبر محلاً للدعارة أو للفجور في حكم المادتين (8) و(9) كل ما كان يستعمل عادةً لممارسة دعارة الغير أو فجوره ولو كان يمارس فيه الدّعارة أو الفجور شخص واحد.

المادة (11)

كل مستغلٍ أو مديرٍ لمحلٍ عمومي أو لمحلٍ من محال الملاهي العموميّة أو محل آخر مفتوح للجمهور ويستخدم أشخاصاً ممن يمارسون الفجور أو الدّعارة بقصد تسهيل ذلك أو بقصد استغلالهم في ترويج محلّه، يعاقب بالحبس مدة لا تزيد على سنتين، وبغرامة لا تزيد على مائتي جنيه في الإقليم المصري، وعلى ألفي ليرة في الإقليم السوري.

وتكون العقوبة الحبس مدة لا تقل عن السنتين ولا تزيد على أربع سنوات، وغرامة ماليّة من مائتي جنيه إلى أربعمائة جنيه في الإقليم المصري، ومن ألفي ليرة إلى أربعة آلاف ليرة في الإقليم

السوري، إذا كان الفاعل من الأشخاص المذكورين في الفقرة الأخيرة من المادة الثامنة.

ويحكم بإغلاق المحل لمدة لا تزيد على ثلاثة شهور، ويكون الإغلاق نهائياً في حال العَود.

المادة (12)

للنيابة العامة بمجرد ضبط الواقعة في الأحوال المنصوص عليها في المواد (8) و(9) و(11) أن تصدر أوامر بإغلاق المحل أو المنزل المدار للدّعارة أو للفجور.

وتعتبر الأمتعة والأثاث المضبوط في المحال المنصوص عليها في المواد (8) و(9) و(11) في حكم الأشياء المحجوز عليها إداريّا بمجرد ضبطها حتى يفصل في الدعوى نهائيّاً، وتُسلم بعد جردها وإثباتها في محضر حارس يُكلف بالحراسة بغير أجر من الأشخاص التالي ذكرهم:

من فتح المحل أو أداره أو عاون في إدارته أو مالكه أو مؤجره أو أحد المقيمين أو المشتغلين فيه ولا يعتدّ برفضه إياها، فإذا لم يوجد أحد من هؤلاء توكل الحراسة مؤقتاً بأجر إلى من ترى الشرطة أنه أهل لذلك إلى حين حضور أحدهم وتسليمها إليه.

ويكلف الحارس على المضبوطات بحراسة الأختام الموضوعة على المحل المغلق فإن لم توجد مضبوطات يُكلف بالحراسة على الأختام أحد المذكورين بالفقرة السابقة وبالطريقة ذاتها.

وفي جميع الأحوال السابقة تفصل المحكمة في الدعوى العموميّة على وجه الاستعجال في مدة لا تتجاوز ثلاثة أسابيع، ويترتب على صدور الحكم بالبراءة سقوط أمر الإغلاق.

المادة (13)

كل شخص يشتغل أو يقيم عادة في محلٍ للفجور أو للدّعارة مع علمه بذلك يعاقب بالحبس مدة لا تزيد على سنة.

المادة (14)

كل من أعلن بأيّة طريقة من طرق الإعلان دعوة تتضمن إغراء بالفجور أو بالدّعارة أو لفت الأنظار إلى ذلك، يعاقب بالحبس مدة لا تزيد على ثلاث سنوات، وبغرامة لا تزيد على مائة جنيه في الإقليم المصري، وعلى ألف ليرة في الإقليم السوري، أو بإحدى هاتين العقوبتين.

المادة (15)

يستتبع الحكم بالإدانة في إحدى الجرائم المنصوص عليها في هذا القانون وضع المحكوم عليه تحت مراقبة الشرطة مدة مساوية لمدة العقوبة وذلك دون الإخلال بالأحكام الخاصة بالمتشردين.

المادة (16)

لا تخل العقوبات المنصوص عليها في هذا القانون بتطبيق العقوبات الأشد المنصوص عليها في القوانين الأخرى.

المادة (17)

يُلغى القانون المتعلق بالبغاء الصادر بتاريخ (1933/06/24) المشار إليه وتعديلاته والقانون (68) لسنة (1951) المشار إليه وكل نص يخالف أحكام هذا القانون.

المادة (18)

لوزير الشؤون الاجتماعيّة والعمل في الإقليم السوري إيداع البغايا المرخص لهنّ من تاريخ العمل بهذا القانون في مؤسّسة خاصة وللمدّة التي يراها مناسبة لتأهيلهنّ لحياة كريمة وتدريبهنّ على

الكسب الشريف، ويعاقب بالحبس مدة لا تتجاوز ثلاثة شهور كل من يخالف ذلك.

المادة (19)

ينشر هذا القانون في الجريدة الرسميّة، ويعمل به في الإقليم المصري من تاريخ نشره، وفي الإقليم السوري بعد ستة أشهر من تاريخ نشره.

صدر في (1961/03/08)

رئيس الجمهوريّة العربيّة المتحدة (جمال عبد الناصر)

* * *

خلاصة

إن القانون رقم (10) ما يزال ساري المفعول في الجمهوريّة العربيّة السوريّة إلى يومنا هذا كما هو إذ لم تطرأ عليه أية تعديلات رغم مضي أكثر من خمسة وخمسين عاماً على صدوره.

ها هنا نلاحظ أنه مع مرور الزمن باتت الغرامات الماديّة الواردة في أحكام هذا القانون زهيدة ومتواضعة جداً أمام التضخم المتنامي على الأصعدة كافة، في حين ماتزال عقوبة الحبس المنصوص عليها في مواد القانون المذكور مقبولة إلى حدّ ما فيما إذا جرى تطبيقها على نحو فعليّ وعادل.

ولتبسيط الموضوع نعرض تالياً خلاصة أحكام القانون رقم (10) التفصيليّة:

1- يعاقب كل مدير محل عمومي لا يلتزم بتنفيذ القانون ويستمر بإدارة نشاط منشأته بالحبس لمدة تصل حتى أربع سنوات.

2- من غرائب هذا القانون أن الرجل لا تطبق عليه أية عقوبة في حال ضبطه متلبساً مع فتاة وهما يمارسان الجنس المأجور.

3- أمّا الفتاة التي تمارس الدّعارة وتعتاد عليها ويتم ضبطها عدة مرات فتعاقب بالحبس من ثلاثة أشهر حتى ثلاث سنوات، وغالباً ما انتهجت المحاكم تطبيق الحدّ الأدنى للعقوبة وهو ثلاثة أشهر.

4- يعاقب من يُسهل الدّعارة ويروج لها، وهم فئة القوّادين والقوّادات بالحبس حتى ثلاث سنوات.

5- أمّا إذا ثَبت أن القوّادين يجبرون الفتاة ويكرهونها على ممارسة الدّعارة فيصل الحكم حتى خمس سنوات.

6- يعاقب مسهلو الدّعارة بالحبس لمدة خمس سنوات في حال استقدموا فتيات من خارج الدولة بغية تشغيلهنّ في مهنة الجنس المأجور.

7- في حال أقدم القوّادون أو البترونات على استخدام فتاة قاصر عمرها دون السادسة عشر في هذه المهنة تشدّد عقوبتهم بالحبس حتى سبع سنوات.

8- أمّا إذا كان من يُسهل دعارتها ويشرف على تشغيلها في قطاع الدّعارة أبوها أو أخوها أو زوجها سواءً كانت قاصراً أو غير قاصر تشدّد العقوبة أيضاً وتصل إلى الحبس حتى سبع سنوات.

9- يحكم القانون بإغلاق المكان أو المحل أو المنزل الذي ضُبط فيه جرم الدّعارة بالشمع الأحمر، ومصادرة الأثاث والأمتعة الموجودة فيه.

10- أمّا مالك العقار أو المستأجر فيعاقبان بالحبس من ثلاثة أشهر وحتى ثلاث سنوات، وذلك في حال ثَبت أنهما سلما المنزل لقوّاد وهما على دراية وعلم بالنشاط الذي يقوم به.

كما نص القانون الجديد أن يبادر وزير الشؤون الاجتماعيّة والعمل إلى إيداع البغايا المرخصات جميعهنّ في مؤسسات خاصة، وذلك من تاريخ العمل بهذا القانون ولمدّة يراها الوزير مناسبة

لتأهيلهنّ ومساعدتهنّ على العودة إلى الحياة الطبيعيّة الكريمة وتدريبهنّ على الكسب الشريف.

في هذا القانون تكررت كلمتان في أغلب مواده وتفصيلاته وهما (الفجور والدّعارة)، الأمر الذي يجعلنا نتساءل عن معنى كلتا الكلمتين، وما سبب استخدامهما دون الأوصاف والألقاب الأخرى، لذا ينبغي لنا أن نعرف أنه من ضمن تعريف المصطلحات القانونيّة، نرى أنّ البغاء هو مباشرة الفحشاء بين الناس بغير تمييز، فإن ارتكبه الرجل فهو فجور، وإن قارفته أنثى فهو دعارة. وبالتالي فإن بغاء الذكور هو الفجور، وبغاء الإناث فهو الدعارة.

تجدر الإشارة إلى أنه تم تقسيم الجرائم الواقعة على العرض وفق ما هو منصوص عليه بقانون العقوبات السوري إلى أربعة أنواع، وهي:

1- الاغتصاب.

2- الفحشاء (الفعل المنافي للحشمة).

3- الخطف.

4- الإغواء والتهتك وخرق حرمة الأماكن الخاصة بالنساء.

ولم يترك هذا القانون الخاص بجرائم العرض لا شاردة ولا واردة إلّا وأشار إليها بالتفصيل وذكر العقوبة المقابلة لها، غير أنه لم يتعرض كما ذكرنا آنفاً إلى ظاهرة الدّعارة على نحو مباشر.

ما يلفت الانتباه أنّ هذا القانون لم ينفذ حين صدوره بشكل كامل وصارم إلّا من جهة توقف الإدارة عن إيداع الفتيات في المحل العمومي وإن تكرر ضبطهنّ بجرم الدّعارة عدّة مرات، وهذا ما يفسر تناقص عدد المومسات في المنزول في سنواته الأخيرة وارتفاع أعمارهنّ إذ نرى أن أصغرهنّ يوم إغلاقه قد تجاوزت الأربعين عاماً.

* * *

القسم الخامس

الدّعارة ما بعد الحداثة

الفصل الأول: انزياحات

الفصل الثاني: أنواع الدّعارة الحديثة

الفصل الثالث: طرائف من عالم العيادات النسائيّة



الفصل الأول

انزياحات

إن قطاع الدّعارة لا ينفك عن التأثر بالمتغيرات المحيطة به أسوة بالقطاعات المجتمعيّة الأخرى إذ إنّ تطور التكنولوجيا وثورة الاتصالات اللذين اجتاحا العقد الأخير من القرن العشرين كان لهما بالغ الأثر في زعزعة بنيته الداخليّة مما أدى إلى تغير شروط اللعبة التقليديّة على نحو كبير إلى الحد الذي يسعنا فيه الادّعاء أنّ تركيبة الدعائم الأربع التي كان يقوم عليها قطاع الدعارة في المراحل السابقة لم يعد صالحة لاستمراريته وازدهاره في تلك الفترة أو لا ضير في أن نقول أنه لم يعد تناغم الأركان الأربعة وتعاونها وتكاملها شرطاً ضرورياً لاتمام عمليّة الجنس المأجور.

لن نخوض في تفاصيل هذه الحقبة كما فعلنا في مرحلتيّ المحل العمومي والفترة التي تلت إغلاقه إذ إنّ هذه المرحلة ما زالت تتفاعل وتخضع لمستجدّات ومتغيّرات متسارعة، وأرى أنه من السابق لأوانه

أن نلقي الضوء عليها ونلج في آتون تفاصيلها بل أجدني أجنح من الناحية الموضوعيّة والبحثيّة إلى تأجيل تحليلها وتوثيقها إلى ما بعد عقدين من الزمن على أقلّ تقدير.

كما ينبغي لنا الإشارة إلى أنّ أدوار، وصفات، وميزات، كل من القوّادة، والمومس، والقوّاد في عصر ما بعد الحداثة قد تبدلت على نحو كبير، وإذا رغبنا في أن نضرب مثالاً على ذلك فإننا سنرى أنّ شخصية القواد لم تعد من الضروري على الإطلاق أن تنتمي إلى فئة أصحاب السوابق أو إلى أولئك الذين يطلق عليهم لقب أشخاص وجوههم تقطع الرزق، بل بات شكلهم عصريّاً وأغلبهم في مقتبل العمر يتعاملون مع التكنولوجيا وبعضهم يجيد اللغات الأجنبيّة، ومنهم من أكمل تعليمه الجامعي أو يكاد، ولا يمكن لنا في أيّة حال من الأحوال أن يساورنا الشك في أنّ أحدهم يحترف هذه المهنة حين يقع بصرنا عليه أول مرة، إذ لا تنطبق عليه المقاييس التقليديّة والمعايير الشكليّة التي ترسّخت في أذهاننا طيلة المراحل السابقة.

أمّا البترونات فقد تراجع دورهنّ إلى حد بعيد، فالانزياحات المجتمعيّة والمتغيرات المتسارعة جعلت اللواتي يقدمّن على مزاولة مهنة الدّعارة بغنى عن حماية ورعاية القوّادات، فالظروف المحيطة بهؤلاء الفتيات كانت تفرض عليهنّ اللجوء إلى البترونات والقوادين والاستعانة بخدماتهم في المراحل السابقة.

في حين نرى أنّ أهمية المومسات في سيرورة قطار الجنس المأجور ارتقت إلى المقام الأول في هذه المرحلة إذ بات بوسعهنّ العمل بمفردهنّ إثر انتشار تقنيات الإتصالات الحديثة ووسائل التواصل الاجتماعي المتنوعة وهذا ما ساعد أيضاً في إستقلاليتهنّ المهنية

وتغلغلهنّ في المجتمعات الحلبيّة المختلفة دون أدنى شعور بالحرج أو القلق.

كما أنه من الجدير ذكره أنّ درجة جمال العاملات في هذه الصنعة ومستوى ثقافتهنّ ازدادا على نحو ملحوظ، ولم يعد أمراً غريباً إذا اكتشفنا أنّ بعضهنّ يتابعن دراستهنّ الجامعيّة، وربما نجد أخريات من فئة الحاصلات على شهادات عليا، أو أنهنّ يعملن بشكل طبيعي في القطاع الحكومي أو الخاص.

سنكتفي بعرض إشارات سريعة إلى الأعراف الجديدة التي ظهرت في أساليب مزاولة المهنة وفنونها في السنوات التي تدور حول فلك نهاية الألفيّة الثانية وبداية الألفيّة الثالثة إثر الانزياحات المجتمعيّة والمستجدات الكبرى المرافقة لثورة الاتصالات وعصر السرعة.

إنّ الكلام عن أشكال الدّعارة الحديثة ووسائلها المبتكرة لا يلغي على الإطلاق دور الشبكات التقليديّة ولا ينتقص من شأنها، فهي ما زالت نشطة إلى حدّ ما ولكن سنرى أنّ سطوتها على المشهد وهيمنتها على قطاع الجنس المأجور قد تراجعتا على نحو كبير، وأنه بات ثمّة عوامل جديدة أكثر تأثيراً في دفع حركة عربة قطاع الدّعارة في الأزمنة الحديثة.

* * *

الفصل الثاني

أنواع الدّعارة الحديثة

قبل الخوض في أشكال الدّعارة المستجدة في مرحلة ما بعد الحداثة ينبغي لنا أن نشير إلى أنّ انتماء العاملات في هذا الحقل وأصولهنّ لم يشذّ عمّا كان عليه في الفترات السابقة حيث نجد أنّ معظمهنّ قدمّن طوعاً من خارج المدينة، على أنّ ذلك لا ينفي انخراط عدد كبير من فتياتها في العمل بهذه المهنة، ولعلّ اتساع أحياء حلب وازدياد عدد سكانها بصورة ملحوظة، إضافة إلى الانتعاش الاقتصادي الذي رافق تلك الفترة وهيمنة أنماط السلوك العصريّة على شرائح كبيرة من المجتمع الحلبيّ، أعتقد أنّ هذه المعطيات والعوامل جميعها ساعدت على ازدهار نشاط الجنس المأجور وانتعاشه في المدينة معتمداً على أشكاله الجديدة المبتكرة ومتكئاً على مزاياه المتنامية.

أولاً: الدّعارة الإلكترونيّة

ازدهر قطاع الدّعارة مستفيداً من ثورة الاتصالات وما تبعها من توافر وسائل التواصل الاجتماعي بدءاً من الهاتف المحمول ومروراً بخاصيّة (البلوتس) وانتهاءً بأشكال التواصل المتجدّدة جميعها، وهذه الميّزات الحديثة حرّرت المومسات إلى حدّ كبير من قيود شبكات الدّعارة التقليديّة وأعرافها.

مما لاشك فيه أنّ فنون الدّعارة المبتكرة كلها اكتسبت حظوظاً وافرة من خلال استخدامها لتلك التقنيات في تسهيل أهدافها وترويج ومبتغاها، وتنمية أشكال العلاقة التبادليّة والتفاعليّة بين المومسات وطالبيّ المتعة إذ بات بوسع بائعات الهوى التقاط زبائنهنّ دون عناء وبصورة عصريّة ومهذبة وهنّ جالسات في المقاهي أو في أيّة أماكن عامة أخرى.

كما لنا أن نتخيل مدى تأثير الصّور الفنيّة الفاتنة أو مقاطع الفيديو الساخنة والشائقة على تلك الفئة من الرجال الجائعين والمتحمسين، ناهيك عن أثر الأصوات البلوريّة والرقراقة في إشعال ألوان الرغبة في صدور الزبائن حين تغرد بحرفيّة ومهارة عبر وسائل التواصل المختلفة.

* * *

ثانياً: الدّعارة شبه القانونيّة

انتشر هذا النوع من الدّعارة على نحو ملحوظ في العقد الأخير من القرن العشرين.

وهو عبارة عن زواج عرفي لأجل مسمى قد يكون شهراً أو ربما شهرين أو أكثر قليلاً، ومعظم أتباع ذاك المذهب هم من أولئك الذين يطلق عليهم لقب الأغنياء الجدد، ومن فئة الذين ينتمون إلى شرائح اجتماعيّة محافظة، وهم مؤمنون على نحو تام أنّ هذا الإجراء هو حلال خالص ولا يتعارض مع الشرع إذ إنهم حريصون على عدم الاقتراب من فعل الدّعارة المباشرة لإيمانهم بأنها حرامٌ بيّنٌ.

وفي الوقت نفسه تراهم عاجزين عن الإقدام على الارتباط بزواج شرعيّ ثانٍ، والمجاهرة به علناً أمام أسرهم ومجتمعاتهم، فيلجؤون إلى هذا الحل الوسط الذي يرونه سلوكاً مقبولاً لا شبهة فيه.

إلى ذلك فهم يتخذون من مزرعة صغيرة في الضواحي القريبة، أو إحدى الشقق في بناية تقع بمنطقة متطرفة من المدينة عشاً زوجيّاً، ولا شك في أنه مؤقتٌ للزوجة السريّة المتجدّدة، وفي الوقت نفسه يغدو دائماً ومستقراً للزوج المقدام، ومنهم من يحقق ثلاث أو أربع زيجات من هذا النوع في العام الواحد، وذلك تبعاً لدرجة الثراء والهمة العالية.

* * *

ثالثاً: الدّعارة الترفيهيّة

لا شكَ في أن ألوان الدّعارة جميعها وأفانينها لا تخرج عن حقيقة واحدة وهي تحقيق ثنائيّة كسب المال للمومس مقابل توفير المتعة للزبائن، وعلى هذا النحو ظهرت أساليب مبتكرة تنسجم مع الأنماط المجتمعيّة الجديدة، وهذا النوع من الدّعارة المخفيّة لا يحتاج إلى

شبكات بغاء تقليديّة بل إلى شبكات خاصة قوامها المومسات فقط، غرضها الأساس هو تقديم المتعة والترفيه لنفر من الزبائن لا يستطيعون الحصول عليهما إلّا بوجود تلك الفئة من المومسات، وسنضرب أمثلة عملية على هذا النوع من الدّعارة المستحدثة.

ظهرت في العقود الأخيرة شريحة جديدة في المجتمع الحلبيّ تملك المال ولكنها لا تملك خصائص الحضور الاجتماعي المنفتح على الاختلاط العفوي وعلى أنماط الحياة المدنيّة إذ تمنعهم تقاليدهم وأعرافهم من اصطحاب زوجاتهم وبناتهم وأخواتهم إلى الأماكن العامة.

ها هنا نرى أنّ قطاع الدّعارة يتكيف مع الانزياحات المجتمعيّة المتسارعة إذ إنه ضمن ما يسعنا تسميته الابتكار الاستراتيجي فقد أفرز فئة من المومسات يلبين حاجة هذا النوع من الزبائن، ولتكتمل الصورة فإنّ شكل هؤلاء الفتيات ولباسهنّ وحتى ماكياجهنّ لا يشبه على الإطلاق أشكال الدّاعرات التقليديّات وصفاتهنّ، فهنّ يظهرن وكأنهنّ بنات عاديات ينحدرّن من أسر تنتمي إلى الطبقات الاجتماعيّة المنفتحة والراقية في المدينة.

ولهذا النوع من الدّعارة أشكال مختلفة تتحقق من خلالها أهدافاً متنوعة، منها:

1- اصطحاب فتاة للدخول إلى المسابح والأندية العائليّة.

2- اصطحاب فتاة لشرب الأركيلة في أحد المقاهي الراقية.

3- اصطحاب فتاة لقضاء يوم من اللهو والتسلية في إحدى المزارع.

4- اصطحاب فتاة لتناول الغداء في أحد المطاعم المنتشرة داخل المدينة أو خارجها.

5- اصطحاب فتاة للسهر في أحد الأماكن العائلية المحترمة.

6- اصطحاب فتاة لتمضية يوم في الساحل السوري أو في أحد المصايف الجبليّة.

في تلك الحالات كلها ينبغي لطرفي الصفقة الترفيهيّة تطبيق الشروط والأحكام، وهي:

1- يجب أن تعود الفتاة إلى منزل أهلها وتنام في سريرها مثل أيّ فتاة عاديّة تعيش مع أسرتها وإن في ساعة متأخرة من الليل.

2- لا يسمح للزبون سوى اقتناص بعض القبلات، واللمسات، والضمات الخاطفة.

3- يتيح هذا النوع من الدّعارة في تلبية رغبات عدد من الزبائن دفعة واحدة.

4- تتبادل المومسات المصالح دون الحاجة لوسيط إذ يمكن تأمين عدد من الفتيات تبعاً لمتطلبات الصفقة.

5- يحدد الأجر والزمن مسبقاً قبل خروج الفتاة أو الفتيات مع الزبائن.

6- لا تمانع هذه الفئة من الدّاعرات في تقديم الخدمة الجنسيّة المأجورة بعد استكمال الخدمة الترفيهيّة، ولكن ضمن اتفاق آخر وشروط جديدة.

* * *

رابعاً: الدّعارة العكسيّة

لا ريب في أنّ هذا النوع من الدّعارة وافد على مجتمعاتنا العربيّة، على أنه يحمل في طياته شيئاً من الظرف والكثير من الغرابة والاستفزاز، فضلاً عن الترف المبتذل.

ببساطة شديدة يسعنا القول إن الآية انقلبت في هذا اللون من ألوان الجنس المأجور إذ إنّ المطلوب هو شاب ممتلئ بالصحة والحيويّة لإرواء عطش امرأة في العقد الخامس أو السادس من عمرها مقابل مبلغ من المال تمنحه هذه السيدة لذاك الفتى.

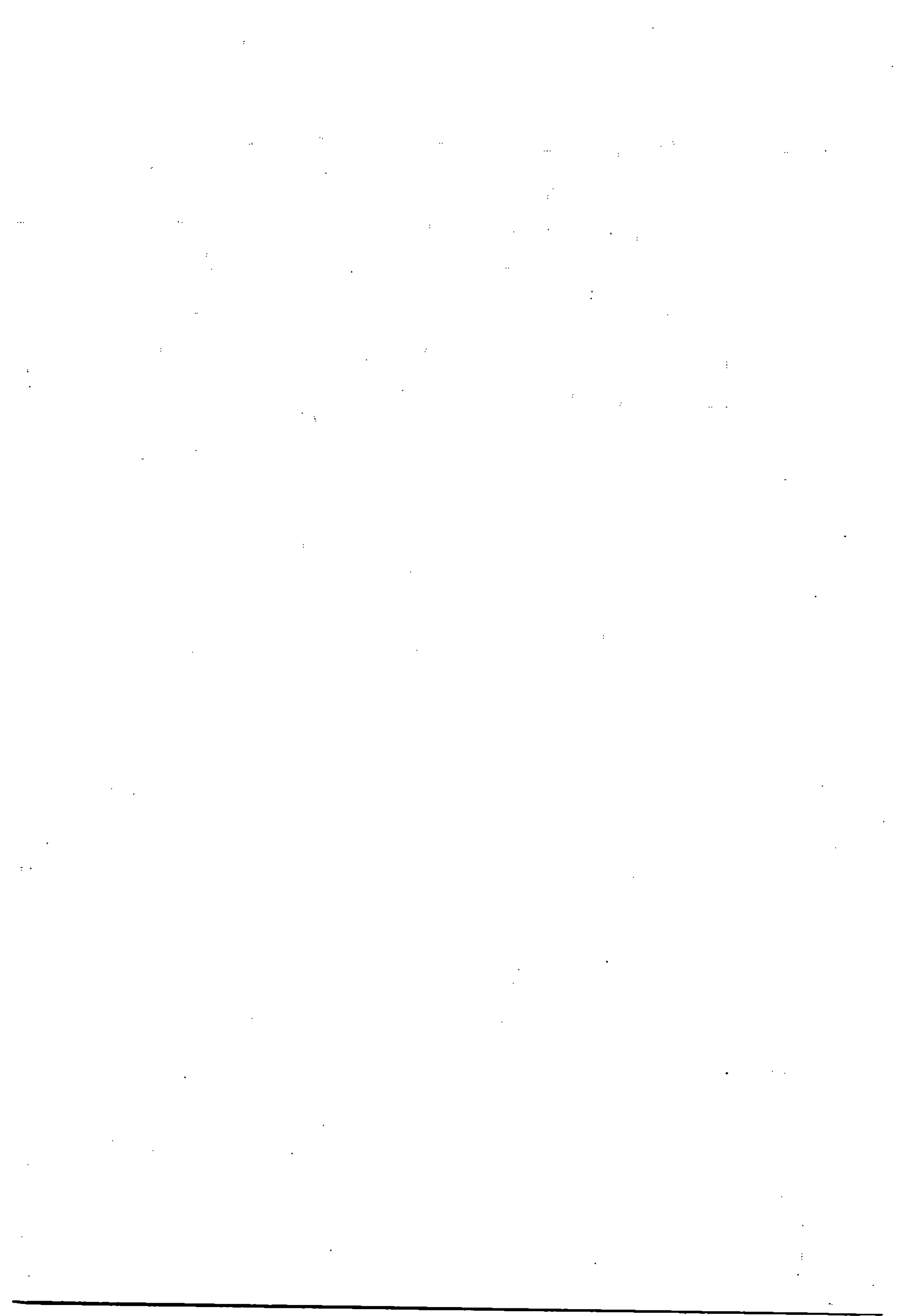
من هنا نرى أنّ الزبون في هذه الحال هو السيدة التي تدفع المال بغية الحصول على المتعة الجنسيّة، والبغيّ هنا هو الشاب الذي يقوم بتقديم تلك الخدمة بمهارة واقتدار.

يحتاج هذا النوع من الدّعارة إلى وسيط يسهل وصول الطرفين إلى بعضهما بعضاً، كما يتطلب السريّة والكتمان الشديدين لما ينطوي عليه من حساسيّة غير مألوفة في مجتمعاتنا العربيّة والشرقيّة على حد سواء، ولن نتطرق إلى الأسباب التي دفعت هؤلاء النسوة إلى ممارسة الجنس على هذا النحو، ولا إلى الظروف المحيطة بهنّ أسوة بالنهج الذي اعتمدناه في تأليف هذا الكتاب بعدم الخوض في الدوافع مهما كان نوعها وشكلها، وبطبيعة الحال لن نتطرق أيضاً إلى الأسباب التي أجبرت المومس (الشاب الممتلئ بالطاقة والحيويّة) إلى سلوك هذه الطريق الوعر، فإذا ضربنا صفحاً عن المردود الماديّ الذي يحصل عليه فإنه لا فائدة جنسيّة مرجوّة من الاتصال الجسدي بسيدة تطاردها سنوات اليأس والأفول.

على الرغم من أنّ هذا النوع من الجنس المأجور انتشر على نطاق ضيق ومحدود في المدينة، فإنه بوسعنا التقاط بعض الإشارات المتعلقة به من خلال الرواية الشفهيّة التي وصلتني مصادفة عن طريق واحد من جيل الشباب تربطه علاقة ما بأحد القوادين المختصين بهذا النوع من الدّعارة العكسية.

جرى حوار مقتضب أمام الشاب الذي روى لي هذه الحادثة بين القواد (شاب جامعي) وبين المومس (شخص في مقتبل العمر وذو بنية قوية) إذ طلب القواد من المومس الشاب أن يتقاسما في هذه المرّة قيمة الصفقة مناصفة نظراً لأنّ الزبون ليست من صنف العجائز بل هي سيدة جميلة وتعدّ (لقطة)، فضلاً عن أنّ شكلها يشي بأنها في أواسط العقد الرابع من عمرها، كما طلب منه أن ينجز مهمته بسريّة تامة، وإن لم يتعهد له بالالتزام بهذين الشرطين فإنه سيلجأ إلى مومس شاب آخر.

***



الفصل الثالث

طرائف من عالم العيادات النسائيّة

يبدو أنّ عالم النساء ما برح يثير أقصى مشاعر الدهش والتعجب، سواءً في خيالنا أو من خلال واقعنا الذي نعيشه على نحو يوميّ.

ما سنعرضه في هذا الفصل من حكايات لا علاقة لها بعالم شبكات الدّعارة لا من قريب ولا من بعيد.

إنّ ما يجمعها معه هذا الخيط الأنثوي الرقراق الذي ينساب عبر مسامات أرواحنا الذابلة، فيبث فيها كثيراً من النشوة وقدراً وافراً من الحيويّة كما ينساب الماء العذب في الأرض اليباب فيحيلها خضراء نضرة.

قصص ومواقف طريفة البطل فيها هو العيادات النسائيّة.

* * *

حيرة

من خلال عمله الطويل في مهنة طب النساء جرى مع صهري (الدكتور فاروق) كثير من الحوادث الغريبة والمواقف الظريفة.

في إحدى المرات وبينما كان يكشف على سيدة في العشرينيّات من عمرها رن هاتفها النقال، وما إن ردت على المتصل بها حتى انتفضت كالدجاجة المذعورة وتناولت حقيبتها وغادرت العيادة على جناح السرعة وفي وجهها ارتباك ملحوظ.

بعد قليل من انصرافها جاءت الممرضة لتخبر (الدكتور فاروق) بأنّ السيدة التي خرجت لتوها نسيت القطعة السفليّة من ثيابها الداخليّة.

أمام هذا الموقف الغريب وقع صهري في حيرة من أمره فتلك الزيارة هي الأولى لهذه الفتاة إلى عيادته، فقرر أن يحتفظ بها كأمانة فربما تعود لتسأل عنها في أيّة لحظة، وبما أنه شديد الحرص على سمعة عيادته ومكانتها فوجد أنه من غير اللائق ألّا يكون حاضراً لردها إلى مكانها الأصلي في اللحظة الحاسمة.

مع الأيام زادت حيرته، فلا هي عادت لتستلم أمانتها، ولا أحد من المقربين منه صدّق أنها نسيتها، فلجأ إلى صديقه العزيز وموئل أسراره الصيدلي (أبو علاء) ليستشيره في الأمر فأفتى له الأخير فتوىً أراحته إلى حين ومُفادها:

على المرء أن يحتفظ بالأمانة لمدة ثلاثة أشهر على أقل تقدير، وبعد انقضاء تلك الفترة يتخذ القرار المناسب دون أدنى حرج أو ريبة، فإذا كانت الثياب الداخليّة من النوع الذي كانت تستخدمه جداتنا فالحكمة تقتضي في هذه الحال أن يكون مصيرها سلة المهملات دون

أدنى شعور بالذنب، وإذا كانت من النوع العصريّ ذيّ الخط المتواري فينبغي لنا الاحتفاظ بها إكراماً لصاحبتها وتقديراً لذوقها الرفيع.

* * *

وقت للراحة

رويت الطرفة السابقة لصديقي (الدكتور سعد) الذي يختص أيضاً بأمراض النساء، وما إن فرغت منها حتى جادت قريحته بنوادر جرت معه خلال عمله في تلك المهنة التي يبدو أنها غنيّة بالمواقف الظريفة والغريبة وهذا بعض مما أخبرني.

في أحد الأيام وبعد يوم عمل طويل سأل سكرتيرته أن تبادر إلى تحضير فنجانيّ قهوة فهو بحاجة لقليل من الراحة وأخبرها بأنه سيتناولها مع المريضة التالية خلال استماعه لمشكلتها الصحيّة.

ويبدو أنه في هذا اليوم كان حظّه عاثراً فالسيدة التي أخذ يحتسي معها القهوة كانت على درجة كبيرة من الجمال والصبا، وبينما كانا يرتشفان القهوة ويتبادلان الأحاديث المعتادة بين أيّ طبيب ومريضته دخلت عليهما السكرتيرة وقد بدا على وجهها شيء من علامات الارتباك والقلق وأخبرته على نحو خاطف أنّ زوجته تصعد سلالم البناية وهي في طريقها إلى العيادة، فما كان منه إلّا أن أشار لها أن تأخذ فنجانيّ القهوة فوراً وتسارع إلى إزالة أيّ أثر لهما، ثم طلب من مريضته أن تخلع ثيابها على عجل وتبادر إلى إلقاء جسدها فوق سرير الفحص بأقصى سرعة، فهو على يقين تام بأنه لو أتى بأغلظ الأيمان وأشدّ الحلفان فإنّ زوجته لن تصدق على الإطلاق أنّ الغاية من شرب القهوة مع تلك السيدة لم تكن إلّا للراحة فقط، وأنها فعلاً زبونة عاديّة جاءت للعيادة للكشف عن علة ألمت بها، فرؤيتها عارية

فوق السرير خير ألف مرة من مشاهدتها ترتشف القهوة معه وهي تضع ساقاً فوق ساق على نحو فيه كثير من الأناقة وفيض من الصفات والدلال.

* * *

لوحة اسميّة

هذه حادثة طريفة أخرى رواها لي (الدكتور سعد).

حين عاد من المملكة المتحدة بعد أن حصل على شهادة الاختصاص بالأمراض النسائيّة واكتسب الخبرة الكافية لمزاولة المهنة، قرر أن يؤسس عيادة خاصة بالتشارك مع أخيه الطبيب الذي اختص بالأمراض الجلديّة.

بعد أن أنهيا كل الترتيبات والإجراءات وأصبحت العيادة جاهزة لاستقبال المرضى والزبائن جاء دور تعليق اللوحات الاسميّة لكليهما أمام بابها الخارجيّ.

بهت صاحبي (الدكتور سعد) حين وجد أخاه متخذاً من صورة جلد وشعر إنسان خلفية للوحة التي كتب عليها اسمه فهتف معاتباً أخيه:

- ماذا فعلت يا منظوم؟ لقد أوقعتني في ورطة فالآن ما الصورة التي ينبغي لي اختيارها لتكون خلفيّة مناسبة للوحتي الاسميّة وموحية في الوقت عينه لاختصاصي؟.

* * *

اليوبيل الفضي

حدثني صاحبي عن حكاية أخرى تتسم بقدر وافر من الفخامة والفطنة إذ طلبت منه في يوم من الأيام سيدة متزوجة من رجل أعمال معروف في المدينة يقضي نصف حياته مسافراً أن يجري لها

عملية لاسترداد عذريتها، ولولا ثقته بأنها أم لأبناء يشاركون أولاده دراستهم الجامعيّة، ولولا يقينه بأنها تنتمي إلى أسرة عريقة لكان ظنّ بها الظنون.

على أنّ ذهوله واستهجانه تبدّدا حين أخبرته بأنّ زوجها قد سافر لتوه وسيغيب عنها لمدة أسبوعين وترغب في أن تعد له مفاجأة غير مألوفة ومن طراز فريد تقدمها له كهدية مفعمة بالحب في عيد زواجهما الخامس والعشرين الذي سيحل عليهما فور رجوعه من رحلته الأخيرة، وهي تسعى من خلالها إلى بث مزيدٍ من البهجة والتجديد في حياتهما.

وقد أسرّ لي صاحبي لاحقاً بأنّ خبرته الطويلة في أفانين الحريم ودهائهنّ تنحني أمام ذكاء تلك السيدة العذب، فقد بات إثر تلك الواقعة شديد الإعجاب بها وبعبثها اللذيذ.

والطريف في الموضوع هو حجم الشكر والامتنان اللذان تلقاهما صديقي من زوج السيدة ذات الأفكار المجنونة في اليوم التالي لاحتفالهما بيوبيلهما الفضي، فقد زاره في عيادته محملاً بهديّة نفيسة وسرور لا حدود له إثر ليلة لا تنسى إذ نفرت الآهات والدماء فيها من جديد جعلت الشباب حقاً يعود يوماً على نحو لم يعد فيه ثمّة أدنى معنىً لكلمة يا ليت.

* * *

القسم السادس

خاتمة الكتاب

من نافلة القول

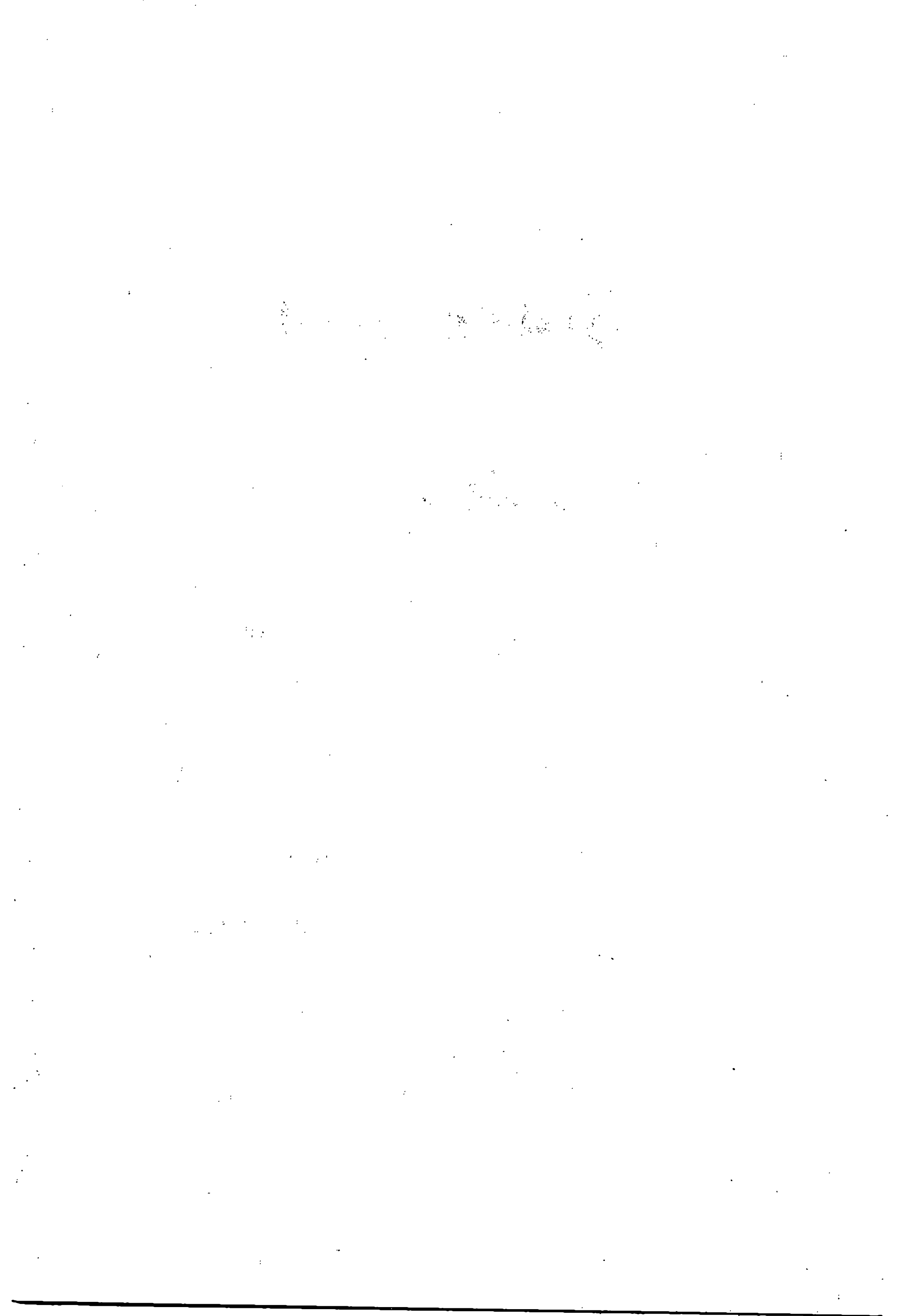
تنويه

شكر كبير

كلمة لا بدّ منها

نبذة عن المؤلف

صدر له



من نافلة القول

لعل هذا الكتاب الذي يرصد ظاهرة اجتماعيّة في حلب لم يسبق لأحد من باحثيها ومبدعيها امتلاك جرأة فتح خزائنها أن يسدّ ثلمة في تراثنا الشعبيّ الجمعيّ.

ربما يجد القارئ قليلاً / كثيراً من الحرج أو الغرابة حين يطّلع على هذا الكتاب، ومهما نجم عنه من اختلاف في الرؤى والمفاهيم فلا يسعنا إلّا أن نصفه دون خجل أو موارية بأنه كتاب يتحدث عن تراث حلبي من الماضي القريب، أي أنّ هذا الموروث الجمعيّ المشبع بالحكايات، والأحداث، والأماكن، والشخصيات أمسى من التاريخ، وللتاريخ سطوة وهيبة، وهو مليء بالحقائق التي ما فتئت تطل كالومضات، وهي دون أدنى شكّ لا تفنى ولا تبلى.

أخيراً وبعد خمسة أعوام من التطواف السهل/ الصعب في عالم النساء العجيب/ البهيج وما يلوذ بهن، والترحال الطويل في رحاب قطاع الدّعارة وشبكات ترويج الجنس المأجور وتسهيله في مدينة حلب، من خلال مسيرة عامرة ومتجدّدة على مدى سنوات القرن العشرين، أجدني ما زلت عطشاً أرغب في المزيد، ولكن هيهات هيهات بلوغ الكمال وتحقيق الآمال، مهما طال الزمن وامتدت الآجال.

على أنه في النهايات غالباً ما تختلط المشاعر وتغمر النفوس عواطف ضبابيّة، تتأرجح بين فرحة الإنجاز وبين حرقة الفراق، فما إن يشرع الكتاب بسلوك أولى خطواته نحو الطباعة حتى تنقطع آخر خيوطه الماتعة / المضنية مع صاحبه إذ إنه ينشئ وصالاً جديداً مع أصدقاء متنوعين ذوي أمزجة ملونة.

أمّا ما قصر عنه وعينا القاصر، وزادنا اليسير، فنرجو أن يتداركه القارئ الكريم بعفوه وسماحه.

* * *

تنويه

في الختام ينبغي لي أن أنوّه إلى أنني اقتبست بعض المعلومات من مقالة المحامي (علاء نديم السيد) التي كتبها عن المحل العمومي بعنوان (بحسيتا.. حكاية بيوت المتعة في حلب) ونشرها في جزأين، الأول بتاريخ (10/02/2011)، والثاني بتاريخ (17/02/2011) في موقع (عكس السير) الإلكتروني.

ها هنا أشير إلى أمرين مهمين وردا في مقالة المحامي (علاء السيد) إذ إنه بدأها بعبارة:

- ما ذكرت بَحْسيتا أمام حلبي إلا وابتسم.

وهذا ما دفعه وحرضه على البحث وكتابة مقالٍ قيمٍ عن المنزول، وختمها بتعليق كرّره الكثيرون أمامه في أثناء جمعه معلومات دراسته عن المحل العمومي:

- من زمان كان الوضع أفضل فقد كانت الدّعارة محصورة في المحل العمومي في حي بَحْسيتا، أمّا الآن فقد صارت قرب بيوتنا، وفي العديد من الأحياء، وفي المنازل الخاصة والمزارع المقامة في الضواحي.

وقد تساءل (علاء السيد) في الجملة الأخيرة من مقالته فيما إذا كانوا محقّين بهذا الرأي أم لا.

كما أشير إلى أنّ الأستاذ علاء زودني بالمواد القانونيّة الأساسيّة التي شكّلت العناصر الرئيسة في عرض فقرات الفصل السادس الذي حمل عنوان الرأي القانوني، وذلك في القسم الرابع من هذا الكتاب، فله مني جزيل الشكر وعظيم الامتنان.

وهو محامٍ وباحث في تاريخ حلب، وصاحب كتاب تاريخ حلب المصور أيام العهد العثماني (1880- 1918) الصادر عن دار شعاع بحلب عام (2011)، وله كثير من المقالات، والمشاركات الثقافيّة القيّمة.

* * *

شكر كبير

أتوجه بالشكر والتقدير إلى الأصدقاء الذين تكرموا عليّ بقراءة مخطوط هذا الكتاب قبل دفعه إلى الطباعة، ولم يكتفوا بالاطلاع عليه فقط بل قدّموا إليّ ملاحظات مهمة رفعت من شأن الكتاب وارتقت بمستواه، وهم:

الباحث والمؤرخ الدكتور محمود حريتاني.

الباحث والمؤرخ الأستاذ يحيى محمد راغب الطبّاخ.

الروائي والناقد الأستاذ نبيل سليمان.

الأديب والقاص الأستاذ نائل حمّاش.

الأديب والناقد الدكتور سمر روحي الفيصل.

الأديب والباحث الدكتور عبد الرحمن دركزللي.

القاص والإعلامي الأستاذ خطيب بدلة.

الأديبة والروائيّة الدكتورة سوسن جميل حسن.

الباحث والمهندس عصمت صلاحيّة.

الباحث والكاتب المحامي علاء نديم السيد.

* * *



كلمة لا بدّ منها

لا يسعني في نهاية هذا الكتاب إلّا تقديم أسمى آيات الشكر، وأبلغ عبارات الامتنان والعرفان لكل من ساهم، وشارك، وساعد في إنجاز هذا العمل، وإلى جميع من دعم جهودي في إتمامه وظهوره على هذه الصورة، وأخصّ بالذكر أعضاء منتدى العين الثقافي لما كان لهم بالغ الأثر وعظيم الفضل في إثراء موضوعات هذا الكتاب على المستويين المعرفي واللغوي، إذ كانوا ينظرون إلى الفقرات التي كنت أعرضها عليهم في لقاءات المنتدى نصف الشهرية نظرة المحقق والمثبت والصابر، فضلاً عن أنهم كانوا يخضعونها لنقاشات مطولة، وحوارات معمقة جادّة، أضفت مزيداً من الغنى والمصداقية عليها.

الجدير بالذكر أنّ ملتقى العين الثقافي تأسس بمبادرة من المهندس إياد جميل محفوظ في عام (2000)، وهو أشبه بصالون أدبي، تُقام سهراتُه في منزله وما تزال، والمؤسسون هم:

الأستاذ محمود حميداني، الدكتور عبد الرحمن دركزللي، الأستاذ محمد حمامي، المهندس غسان خادم، المهندس المرحوم محمد وليد منلا، الأستاذ زياد محفوظ، الأستاذ فاتح سواس، والأستاذ يوسف برو.

في حين يضم الملتقى حاليّاً نخبة من الأدباء وهم:

الأستاذ محمد يحي محمد راغب الطبّاخ، الدكتور محمد فاتح زغل، الأستاذ نائل حمّاش، الدكتور أمان الدين محمد حتحات، الدكتور سمر روحي الفيصل، الدكتور عبد الرحمن دركزللي، الدكتور

رشيد بو شعير، الأستاذ ماهر سباهي، الأستاذ فاتح سواس، المهندس عصمت صلاحيّة، الأستاذ يوسف برّو، الدكتور إياد حدّاد، والمهندس إياد جميل محفوظ.

***

نبذة عن المؤلف

• ولد إياد جميل محفوظ في حلب في (1956/05/12).

• تلقى تعليمه الابتدائي والإعدادي في حلب، وإدلب، ودمشق، والبصرة، ثم تابع دراسته الثانوية في حلب، وتخرّج في جامعتها عام (1986) مهندساً مدنياً.

• عمل مديراً لمؤسسة مقاولات كبرى بمدينة العين في دولة الإمارات العربيّة المتحدة، ابتداءً من عام (1990)، ومؤخراً أسس شركته الخاصة في مدينة العين.

• مارس الرياضة سنوات طويلة في نادي الاتحاد الحلبيّ، وفي منتخب سوريّة الوطني لكرة السلة، وشارك في كثير من البطولات العربيّة، والدوليّة بين عاميّ (1975و 1986).

• أسّس عام (2005) بالتعاون مع مجموعة من السوريين مجلس الأعمال السوري بمدينة العين في دولة الإمارات العربيّة المتحدة، ثم انتخب رئيساً لمجلس إدارته حتى عام (2011).

• أسّس عام (2006) بالتعاون مع وزارة الثقافة في سوريّة **(جائزة الدكتور جميل محفوظ للإبداع القصصي)**، وهي جائزة خاصة بالقصة القصيرة.

• أسّس عام (2001) صالوناً أدبياً في منزله بمدينة العين، وما زال يدعو إليه نخبة من المثقفين العرب المقيمين في الإمارات.

• تمّ اختياره ضمن كتاب (شخصيات سوريّة في القرن العشرين) للصحافي هاني الخيّر، دار الفتاة للطباعة والترجمة والنشر، دمشق (2008).

• تمّ اختياره ضمن كتاب (ينابيع الكلام) قصاصون سوريون في الإمارات للأديب عزت عمر، وزارة الثقافة، أبوظبي (2009).

• تمّ اختياره ضمن كتاب (أدباء من حلب) في جزئه السادس، تأليف مجموعة من الأدباء، دار الفرقان للغات، حلب (2011).

• له ترجمة ضمن كتاب (معجم السرديين العرب) تأليف الدكتور سمر روحي الفيصل، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة (2014).

• دَرَسَ أعماله القصصيّة عدد من النقاد السوريين والعرب، ونشرت هذه الدراسات في الدوريّات، والمجلات الأدبيّة المحليّة، والعربيّة.

• منح شهادة الدكتوراه الفخريّة في الأدب القصصي من جامعة الحضارة الإسلاميّة في بيروت عام (2010) تقديراً لمجمل نتاجه الأدبي.

• شارك في عدد من المؤتمرات الهندسيّة، والاقتصاديّة، المحليّة، والعربيّة، والدوليّة.

• شارك في كثير من المنتديات، والملتقيات الأدبيّة، والثقافيّة محليّاً، وعربيّاً.

• نشر العديد من القصص في مجلة المعرفة السوريّة، ومجلة الضاد الحلبيّة، ومجلة دبي الثقافيّة، وجريدة أخبار العين الإماراتيّة، وجريدة الأسبوع الأدبي السوريّة، وجريدة الخليج الإماراتيّة، ومجلة الموقف الأدبي السوريّة، وجريدة الثورة السوريّة، وجريدة البيان

الإماراتيّة، ومجلة بيت السرد الإماراتيّة، ومجلة الرافد الإماراتيّة، ومجلة الإمارات الثقافيّة، ومجلة شؤون أدبية الإماراتيّة، وفي غيرها.

- عضو اتحاد الكتاب العرب.
- عضو اتحاد كتاب وأدباء الإمارات.
- عضو رابطة الكتاب السوريين.
- عضو جمعية العاديات السوريّة.
- عضو جمعية أصدقاء قلعة حلب.
- عضو الجمعيّة العربيّة المتحدة للآداب والفنون.
- عضو نادي الاتحاد الحلبي.
- عضو نقابة المهندسين السوريين.
- عضو مؤسس لجمعية التنمية الاجتماعيّة في حلب.
- عضو مؤسس لمجلس رجال الأعمال السوريين في العين.
- البريد الإلكتروني للمؤلف eyad2@eim.ae

* * *

صدر له

المجموعات القصصيّة:

1- أحلام الهجرة العكسيّة - دارالبارودي (بيروت - 2004)

2- بين فراغين - دار البارودي (بيروت - 2005)

3- سياحة شرقيّة - دار القلم العربي (حلب - 2006)

4- ينابيع الحياة - دار نون 4 (حلب - 2007)

5- إيقاعات الروح المنسيّة - دار نون 4 (حلب - 2008)

6- الشاطئ الآخر - دار نون 4 (حلب - 2009)

7- حافلة بلا ذاكرة - دار الحوار (اللاذقيّة - 2010)

8- مفترق الحلم - منشورات ضفاف (بيروت - 2013)

9- همسات - منشورات المتوسط (ميلانو – 2017)

الإعداد:

1- ريادة في التربية – دار الفجر (أبوظبي - 2006) لوالده الدكتور جميل محفوظ.

مؤلفات مشتركة:

1- المستطرف الليلكي - دار نون (رأس الخيمة - 2013) بالاشتراك مع الأديب خطيب بدلة.

2- حكايات سوريّة - دار نون (رأس الخيمة - 2014) بالاشتراك مع مجموعة من الكتاب.

مؤلفات أخرى:

1- بيوت الخفاء في حلب الشهباء - دار الحوار (اللاذقيّة - 2017)

تحت الطبع:

1- مجموعة قصصيّة.
2- قصة في كتاب.
3- لوحات حلبيّة.
4- المستطرف الأبيض بالاشتراك مع الأديب خطيب بدلة.
5- حكاية مواطن سوري.

المحتويات

* أسجل إعجابي بهذا الكتاب وأهنئ المؤلف لكشفه للملأ ظاهرة اجتماعية لم يفكر أي أديب أو باحث في تاريخ حلب في توثيقها وإلقاء الضوء عليها.

د. محمود حريتاني

* هذا كتاب ينبش في أسرار المتعة المحظورة المرغوبة.

* ليست الحكاية حكاية المهنة الأقدم في التاريخ كما جاء في الكتاب أو بيوت الخفاء فقط. بل هي حكاية مدينة عريقة ومجتمع ترسّخت ثقافته على أساس متين هو: حبّ الحياة. فدراسة هذا النشاط الاجتماعيّ وتحولاته عبر التاريخ وارتباطه بالمكان والأعراف والقوانين والتغيرات السياسيّة والحداثة أيضاً، كانت مسرحاً لعرض ما بحوزة الكاتب/ الساحر من أفانين الغواية التي تبهر القارئ.

* المدن كالكائن الحي، منظومة عضويّة متكاملة، وليست تقاسيم الجمال البادية للعين فقط ما يمنحها الحياة، بل هناك في الأعماق وفي عتمة البطون والصدور ما يخفي أسراراً أخرى، وهذا ما فعل الكاتب بصبر وبحث وصدق وأمانة فأخرج إلينا هذه التحفة السرديّة الغنيّة الشائقة.
أستطيع القول إنني كنت بمزاج طفلة أمام صندوق الدنيا، صندوق العجائب، وعندما أنهيت الكتاب بمتعة أيضاً كانت قد ترسّخت في بالي مجموعة كبيرة من المعلومات التي قدمها الكتاب بسرديّة محببة، فسيفساء من العلامات والمفردات وأنماط السلوك والأمكنة والأمثلة.

* هذا الكتاب الجريء الفريد يستحق أن يوصف بأنه فتح بمهارة (خزائن) لم تفتح سابقاً، وقد فرد أمامنا نفائس المجتمع الحلبي بلا تنظير ولا إطلاق أحكام مسبقة، بل كان أحياناً يومض على ما يعزز إنسانيّة شريحة صنّفت تاريخيّاً بصورة نمطيّة جائرة.

د. سوسن جميل حسن

تصميم الغلاف: سوزان إياد محفوظ



دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا – اللاذقية ص.ب 1018 هاتف 422339

